القرآن الكريم

سورة يونس

التحليل الروائي

عبد الباقي يوسف

اسم الكتاب	:	القرآن الكريم سورة يونس التحليل الروائي
التصنيف	:	دراسات – تفسير – قرآن
تأليف	:	عبد الباقي يوسف
تصميم الغلاف	:	فارس إيهاب
إخراج فني	:	هيام فهيم
رقم الإيداع	:	2021 / 22800
الترقيم الدولي	:	978-977-6918-22-1
الناشر	:	اسكرايب للنشر والتوزيع

002 01005079256

Scribe20199@gmail.com

اسكرايب للنشر والتوزيع

اسكرايب للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

اسكرايب SCRIBE

سورة يونس

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴿ ١ ﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴿ ٢ ﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴿ ٣ ﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴿ ٤ ﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴿ ٥ ﴾ إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴿ ٦ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴿ ٧ ﴾ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴿ ٨ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴿ ٩ ﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿ ١٠ ﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴿ ١١ ﴾ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿ ١٢ ﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴿ ١٣ ﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴿ ١٤ ﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴿ ١٥ ﴾ قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ

أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا
عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ
فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ
إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي
يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا
رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ
مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ
عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴿٢٤﴾ وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ
ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ
وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ
مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن
يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ
فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴿٣٣﴾
قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى
تُؤْفَكُونَ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ
أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَـذَا
الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن
رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴿٣٩﴾ وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم
مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ
بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ﴿٤٢﴾ وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ
يُبْصِرُونَ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ
يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ
وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ
شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ
يُظْلَمُونَ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿٤٨﴾ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً
وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
الْمُجْرِمُونَ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ
لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ
هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ
لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴿٥٤﴾
أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴿٥٥﴾

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا
فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ
خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ
آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو
مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ
مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ
مُّبِينٍ﴿٦١﴾ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ
يَتَّقُونَ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿٦٤﴾ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٦٥﴾
أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء
إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ
وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴿٦٧﴾ قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ
الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ
مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي
الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴿٧٠﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ
فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴿٧١﴾
فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴿٧٢﴾
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن
بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا

جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَـذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴿٧٧﴾ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴿٩٠﴾ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴿٩٤﴾ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴿٩٧﴾ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ

وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴿١٠٠﴾ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ
وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ
مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ
كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ
أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿١٠٥﴾
وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴿١٠٦﴾
وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ
مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ
فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴿١٠٨﴾
وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴿١٠٩﴾

﴿صدق الله العظيم﴾

مقدمة

نبيٌّ كريمٌ يتمتَّعُ بمزايا خاصّةٍ، امتلأَتْ حياتُه بأحداثٍ مُختلفَةٍ يمكن لأيِّ إنسانٍ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ الاستفادةُ الجَمَّةُ منها. فقدِ اصْطَفَاهُ اللهُ سُبْحَانَه وتَعَالَى رسولاً إلى قَومِه الذين كانُوا يعبدُون الأصْنامَ ويتّخِذُون منها آلهةً، ليُنْقِذَهم من الضَّلَالِ، ويَهْديَهم سبيلَ النَّجَاةِ من عواقبِ ما همْ فيه.

وقد لَبِثَ يدْعُوهم ثلاثاً وثلاثين سنةً دون أن يسْتجيبَ له أحدٌ من عُمُومِ قومه سوى رَجُلَين. الأمرُ الّذي بثَّ شيئاً من اليأسِ لديه تجاهَهم، وأنَّه مهما لَبِثَ يدعُوهم فلن يستجِيْبُوا كون عقيدةِ الأوْثَانِ غَدَتْ مُترسِّخَة فيهم.

هنا اتّخذَ قراراً بأن يَهْجُرَهم، ويترُكَهم في عبادةِ أوْثَانِهم، دون أنْ يأمرَه اللهُ بذلك، فقد اِجْتهدَ بهذا القرارِ وقامَ بتنفيذِه. ولعلَّ الأمرَ شبيهٌ بالحَياءِ من اللهِ عن تَكْملَةِ المُهمّة والانسحابِ منها بسببِ ما أصابَه من يأسٍ خلالَ تلك السّنواتِ، وأنّ وُجُودَه داعياً لا جدوى منه مهما بَقِيَ، فقد اِسْتَفْحلَت فيهم عبادةُ الأوثانِ. فآثرَ الاِنْسحَابَ والاِبتعادَ عنهم إلى مكانٍ آخرَ يعبدُ فيه اللهَ عزَّ وجَلَّ.

الأمرُ اللّافِتُ للنَّظرِ هنا أنّ قوْمَه وبعدَ أن هجرَهم، تركُوا عبادةَ الأوثانِ، واهتدُوا إلى الإيمانِ بوحدانيَّةِ اللهِ وعبادتِه. وقد حصَلَ ذلك لدى مُغادرَةِ نبيِّهم، حيثُ أرْسَلَ إليهم سُحباً سوداءَ، اسودَّت على إثْرِها الطَّبيعةُ التي كانُوا فيها، فكلُّ هذه المَظاهِرِ اِكتسَتْ بالسَّوَادِ جرَّاءَ هذه السُّحبِ السَّوْدَاءِ. وهذا أمرٌ مُفْزِعٌ فقد تغيَّر كلُّ شيءٍ، الأمرُ الذي جعلَهم يُراجِعُون أنفسَهم ويَصِلُونَ إلى قناعةٍ بأنَّ ذلك بدايةُ عِقابٍ من اللهِ الّذي في السَّماءِ نتيجةَ عدمِ إيْمانِهم به. فلا أحدَ بوِسْعِه أن يغيّرَ من الأمْرِ شيئاً، وكلُّ شيءٍ من حَوْلِهم أصْبَحَ سَوَاداً في سَوَادٍ، وليس هذا فحسْب، بلِ اِكْتَظَّتِ الطُّرُقَاتُ والبُيُوتُ بدخانٍ أسْوَد. كانَت هذه نقْطَةَ التَّحَوّلِ الكُبرى فيْ حَيَاتِهم، نقطةَ مُرَاجَعَة النَّفْسِ في العَقيدةِ الوَثَنيَّة الّتي كانُوا عليها. فلجَؤُوا إلى اللهِ بالتَّضَرُّعِ كي يعفُوَ عنهم ويغفِرَ لهم ما قَدْ بَدَرَ منهم. حيثُ اجتمعُوا كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، بل جمعُوا حتَّى حيواناتِهم أيضاً، وقد ارتدُوا ثياباً رثّةً، وغدُوا ينثرُونَ الرَّمادَ الأسودَ على رؤُوسِهم، ويَبْتَهِلُون إلى اللهِ الواحدِ الأحدِ بالعفوِ والمَغفِرةِ.

هنا تقبَّلَ الله عزَّ وجلَّ التَّوبةَ منهم، وأزاحَ عنهم كلَّ ذلك السَّوَادَ، وعادَت حياتُهم طبيعيَّةً كما كانَت، لكن على قاعدةٍ إيمانيَّة باللهِ دون عبادةِ الأوثانِ.

في هذا الوَقتِ كان نبيُّهم يونس عليه السَّلامُ قد ذهبَ إلى بُقعةٍ أخرى مُبتعِداً عنهم ودون أن يعلمَ ما حصَلَ معهم من مُستجدَّات.

وذات يومٍ ركبَ سفينةً للابتعادِ عنهم، وعندما مضَتِ السَّفينةُ في البحرِ، أصبحَ هناك اضطرابٌ في المياه ممّا جعلَ السّفينةَ بين مدٍّ وجزرٍ وعلى وشكِ الغرقِ، فرأوا وفقَ مُعتقَدِهم أن أحدَ الرَّاكبين إذا ضحَّى بنفسِه ورمَى نفسَه في البحر، يمكنُ أن يكونَ بذلك قد فدَى البقيَّةَ وأنْجَاهم. فأجرُوا قرعةً لهذه الغايَةِ، ووقَعَتِ القرعةُ على يونس عليه السّلامُ، لكنهم تردَّدُوا لأنَّهم كانُوا على علمٍ بمدَى صلاحِه وإسْتقامَتِه. ثمَّ أعادُوا القرعَة مرَّةً أُخرى، لتعودَ مرَّةً أخرى عليه، وكذلك تردّدُوا، فأَجْرُوا القرعةَ للمرَّةِ الثَّالثةِ والأخيرةِ، فعادَت ووقعَت عليه. فلم يبْقَ أمامَ يونسَ عليه السّلامُ سوى أن يرميَ بنفسِه في البحرِ. وهو الذي تركَ قومَه كي يتفرّغَ لطاعةِ الله وعبادتِه بعيداً عنهم، ليُصبحَ في هذا الواقعِ الغريبِ الذي لم يجدْ بُدَّاً من تنفيذِه، وهو متأمّلٌ بأنّ اللهَ قادرٌ أن يُنجيَه. ولم يُخيِّبِ اللهُ أملَه، فعندما صارَ في البحرِ، أرْسَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ حوتاً ليَلْتَقِمَه وفقَ الوصْفِ الوَارِد في القُرآن: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ الصافات ١٤٢. والإلتِقَامُ هنا جاءَ بمعنى ما يمكنُ أن نقولَ بأنَّه اِسْتقبالٌ له كي يجنّبَه ما يُصيبُه من أذىً. ﴿فَالْتَقَمَهُ﴾. أي غدا لقمةً ليَسْتقرَّ في جوفِ الحُوْت، وهذا أولُّ ما يفعلُ هو أن يُجَنِّبَه الغرقَ، فأصبحَ في مَعْزِلٍ عن الماءِ عندمَا التقمَه الحوتُ. وهنا شيئاً فشيئاً بدأَ يسْتَشْعِرُ شيئاً من الأمانِ، ويُصدِرُ بعضَ الحركاتِ فرغم أنّه صارَ في البحرِ، إلّا أنَّ ماءَ البحر لا يَقرُبُه. في هذا المكانِ الغريبِ الذي رأى نفسَه فيه ودون أن يمسَّه أيُّ أذىً. عندَ ذاك وفي هذا السُّكونِ أخذَت بعضُ الأصْواتِ تَتَرَامَى إلى سمعِه حتَّى أدْركَ بأنَّها تسْبيحَاتٌ تُسَبِّحُ بها مخلوقاتُ الله في البحرِ، فكلُّ شيءٍ يسبّحُ بحمْدِ الله، لأن فضلَ الله هو على كلِّ شيء، وليس على الحيواناتِ التي تتحرَّك، بل حتَّى على النَّباتِ والجَمَادِ، وهذا كلُّه موجودٌ حتّى في أعمَاقِ البِحارِ، فتُسبِّحُ بحمدِ الله، على نعمةِ الحياة، ونعمةِ الرِّزقِ وما إلى ذلك.

فقد تعرَّفَ سيدُنا يونسُ على أشياءٍ جديدةٍ، على عالمٍ جديد، ومعَ كل هذه التَّسْبِيحاتِ التي يُصْغي إليها، غدا يسألُ اللهَ العفوَ والمَغفِرةَ عمّا بَدَرَ منه من يأسٍ تجاه قومِه، وقد كلَّفَه اللهُ وشرَّفَه واصْطَفَاه لهذه المُهمَّة العظيمةِ، مُهمَّةِ النُّبُوَّة، مهمَّةِ إصلاحِ النَّاسِ، وكانَ عليه أن يصْبِرَ صبراً على صبرٍ، لكنَّه تركَهم دون أن يأْذَنَ اللهُ له بذلك. فهذه هي لحظاتُ النَّدَمِ الكُبرَى على ما بدَرَ منه، وهنا يأتي الدُّعاءُ من عمْقِه في ذاك المكانِ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأنبياء٨٧. فقد وجَدَ نفسَه بغْتةً ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾، ظُلْمَةِ اللَّيلِ، وظُلمةِ عُمْقِ البحرِ، ثمَّ ظلمةِ جَوْفِ الحوتِ في عمقِ البحرِ.

فأَيْنَمَا تكونُ وكيفَمَا تكونُ تبقَى حَاجتُك إلى اللهِ، وليسَ الإنسانُ فحسْب، بلْ كلُّ مخلوقٍ من مَخْلُوقَاتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، أَيْنَما يكونُ وحيثُما يكونُ تبقَى حاجتُه إلى اللهِ. فلا تتردَّدْ وقل: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. ومَن ذَا الذي لمْ يظلمْ نفسَه، ومَن ذا الّذي يكونُ في غِنىً عن تَسْبيحِ الله؟ وها هو نبيُّ اللهِ يمُرُّ بهذه المِحْنَةِ البَشريَّةِ، وهو نبيٌّ، وهذا يعنيْ أنَّ كلَّ إنسانٍ يمكنُ له أنْ يتعرَّض لردّاتِ فعلٍ نتيجةَ ظرْفٍ ما، أو واقعٍ ما. كلامٌ في مُنتَهَى الدّقَّةِ ومُنتهى التَّواضعِ لله عزَّ وجلَّ، في اعترافٍ كلُّنا نحتاجُه، وأن نواجَهَ أنفسَنا به أمامَ اللهِ تعالَى ذكرُه: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وهذا دعاءٌ يجعَلُ الإنسانَ في تواضُعٍ، في خُشوعٍ، في نَدَمٍ حَقِيقيٍّ، على ما بدرَ منه بحقِّ نفسِه. هكذا قالَها بشجاعةِ الاعتراف: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فهذه هيَ العودةُ الحَقيقيَّةُ إلىْ اللهِ، العودةُ بندمٍ حقيقيٍّ، العودةُ بدعاءٍ حقيقيٍّ نابعٍ من العُمْق: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وإذا قالَها نبيٌّ من أنبياءِ اللهِ، فكم يحتاجُ أنْ يقولَها الظّالمون، المُنْتَهِكُون، الطُّغَاة، وكثيرٌ منهُم لا يعترفُ أصلاً بأنه مُنتهِكٌ، أو أنَّه ظالمٌ، أو أنَّه قد طغَى. فيدَّعِي بأنه غيرُ ظالِمٍ وهو في ذروةِ مُمَارسَةِ الظُّلْم بحقِّ نفسِه وبحقِّ غيرِه. وهذا هو الاستكبارُ بعينِه، عندما لا يعترفُ الإنسانُ بأنه ظَلَمَ، لأنَّه من خلالِ ذلك يستَمرُّ في الظُّلمِ، بل يُصبحُ الظُّلمُ والعدلُ بالنِّسْبَةِ إليه سيَّاناً، أو أنه يتجنّبُ ما أَمْكنَه ممارسة العدلِ، فهو مُسْتكبِرٌ وقد عوّدَ نفسَه على الظُّلمِ والجُوْرِ والانتهاكَاتِ.

فهذا الدُّعاءُ يُزيحُ عن الإنسانِ كلَّ آفةٍ من آفاتِ الإستكبارِ والتَّعالي: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وهنا فقد اِستجابَ ربُّ العزّةِ والجلالِ لنبيّه، فقد اتّجَه الحوتُ بأمرِ ربِّه نحوَ شاطِئِ البحرِ، ولفَظَه لفْظَةً واحدةً كما كان قد التقمَه لقمةً واحدةً، لفظَه برفقٍ دونَ أن يمسَّه أذىً، كما التقمَه برفقٍ دون أن يمسَّه أذى، ولا حتّى خدشٌ في جسدِه سواء عندَ اللَّقمِ، أو عند اللَّفظِ.

فها هو يخرُجُ من ظلماتٍ ثلاثٍ كلُّ ظُلمةٍ أكثرُ حلكةً من غيرِها، إلى جانبِ نجاتِه بهذه الأُعجوبَة من الغرقِ في البحر. وها عيناه تريان النُّورَ مرةً أخرى، ها هو حيٌّ على وجهِ الأرضِ مرةً أخرى ينظُرُ إلى ما حولَه على هذا الشَّاطِئِ الذي رأى نفسَه فيه، وقد اختفَى عنه الحوتُ وعادَ إلى جوْفِ البحر. فهذا هو البحرُ بامتدادِه، وهذه هي الطَّبيعةُ نحوَ البحرِ بامْتدَادِها، ولا أحدَ سواه في المكانِ، وعليهِ آثارُ ما عَلِقَ به من جوفِ الحُوتِ، كالمولودِ الجديدِ الذي خرجَ للتوِّ من جوْفِ أمِّه بِما عليهِ من آثارِ الولَادةِ، وهذه بالنِّسبةِ له بمثابةِ ولادةٍ ثانيةٍ. وكانَ بأمسِّ الحَاجَةِ إلى مثْلِ هذه الأمِّ ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ الصافات١٤٥ . والسّقامُ هو المرَضُ، أي لم يخرجْ معافىً كما دخَلَ، بل خرجَ مريضاً، وهو بالأصلِ كان مُتعَباً نتيجةَ يأسِه من قومِه وتركِه لهم، فجاءَ التّعبُ على التّعبِ. ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً﴾. أي كانَ قومُه قد أَغْضَبُوه بسببِ عِنادِهم وإِصرَارِهم على الكُفرِ. فـ ﴿ذَّهَبَ﴾ عنهم وتركَهم وهو في حالةِ غضبٍ.

وكما أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى يرزقُ المولودَ بحليبٍ من ثَدْيَي أمّه فقد أنْبَتَ له في هذا العَرَاءِ شجرةَ يقطينٍ كي يأكلَ منها، أو كما لو أنَّه يرضعُ منها ريثما يقْوَى جسدُه ويُصبحَ قادراً على الانطلاقِ، ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ الصافات١٤٦ . فقد نالَ منه الإرهاقُ والجوعُ خلالَ ما يُقدَّر وفقَ المُعطَياتِ بنحو ثلاثةِ أيّامٍ والعلمُ عند الله. ولم يكنْ قد أكلَ أو شربَ شيئاً، وعلى الأرجحِ لم ينمْ، ولم يكنْ مُستقرَّاً، بل مُضطرِباً وفَزِعَاً دون أن يعلمَ ما الذي سَيَؤُول إليه في هذا الوَضِعِ الغريبِ الذي رأى نفسَه فيه.

وهذه الشَّجرَةُ التي أَنْبَتَها له اللهُ عزَّ وجلَّ فورَ وجودِه على الشَّاطِئِ، فعلاً كانَت له بمثابةِ الأُمِّ، فغدَا يستظِلُّ بظلِّها من حرارةِ الشَّمسِ، لأنَّه كانَ في عراءٍ حيث لا بناءَ، و كانتِ الشَّمسُ مُسلَّطَةً عليه كما أنَّها جنَّبَته من مجيءِ أفواجِ الذُّبابِ إليه نتيجةَ ما لصقَ به من آثارٍ في جوفِ الحوت، وكونه كان مُنهَكَاً وسَقِيماً، فكان بإمكانِ الذُّبابِ أن يُسبِّبَ له أذىً كبيراً، وإذا لم يكنْ قد أصاب

بدنَه أيُّ خدشٍ، فهذا لا يعني أنَّ ثيابَه لم تتعرَّضْ لبعضِ الخُدُوشِ، أو التّمَزّقاتِ سواءً عند اللَّقمِ، أو عند اللَّفظِ، وبذلك يتمكّنُ الذُّبابُ منه أكثر، وهو الّذي قد لا يملِكُ طاقةً كافية كي يُقاومَ.

فهذه الأمُّ حمَتْه وحَصَّنَته أيضاً من ذلك بفضلِ الله تَعَالَى، لأنَّ أوراقَ شجرةِ اليقطين، أو ما يُعرَف بشجرةِ القَرْعِ ينفُرُ منها الذُّبابُ، ولعلَّها الشجرةُ الوحيدةُ التي ينفرُ منها الذّبابُ. الأمرُ الآخرُ في هذه الشَّجرةِ، أن أوراقَها كثيفةٌ مما يجعلُها أكثرَ ظلّاً، كذلك فإنَّ هذه الأوراقَ ناعمةٌ وليست خَشِنةٌ. واليقطين، أو القرعُ، سريعُ النُّمو، ويمكن أن يُؤكَلَ من أوّلِ طُلوعِه، لا يحتاجُ الانتظارَ حَتَّى ينضجَ ليُؤكَلَ، بل يؤكَلُ من أول طلوعه ويجوز أن يؤكَلَ نيِّئاً، أويؤكَلَ مطبوخاً، وهو سريعُ الهَضْم ويمنعُ العطشَ. عن أنس: (دعا خياط النبي إلى طعامٍ فوضع له خبزاً من شعير ومرقاً به يقطين، فكان النبي يتتبع اليقطين في القصعة ويأكله).

واليقطينُ يغْتَنِي بفوَائدَ كثيرةٍ ومن ذلك ما يَخُصُّ الذَّاكرةَ حيث يُسْهِمُ في تحسينِ الذَّاكرةِ، ويَبُثُّ الحيويَّةَ والنَّشاطَ، وهذا شبيهٌ بِما يَغْتَني به حليبُ الأمِّ. وإذا نظَرْنا إلى الواقعِ الذي كانَ فيه سيِّدُنا يونس، نرَى أنَّه كانَ بأمسِّ الحَاجَة إلى كلِّ هذه المُقوِّمَاتِ، فهو الآنَ في مَوْضِعٍ غريبٍ مقطوعٍ، وعليهِ أنْ يركّزَ بذاكرته، ويشعرَ بحيويَّةٍ ونشاطٍ حَتَّى يعلمَ كيف يتّجِهُ لأنه لن يبقَى في هذا المَوْضِع، وهو فقط هنا كي يستردَّ عافيتَه من السَّقمِ الذي باتَ يُعانيه كما أخبرَتِ الآيَة الكَرِيْمَة ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ الصافات١٤٥.

وهنا أمرٌ غايةٌ في الأهمّيةِ وهو أن الإنسانَ إذا لجَأَ إلى اللهِ وسألَه العفوَ، فإنَّ اللهَ عَفُوٌّ كريمٌ، ولكن إذا أصرَّ وعاندَ على الخَطأ، سيلقَى العِقابَ:

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الصافات١٤٣، ١٤٤.

عن أبي هريرةَ عن النّبيِّ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ: "لَمَّا أَرَادَ اللهُ حَبْسَ يُونُسَ فِي بَطْنِ الحُوتِ، أَوْحَى اللهُ إِلَى الحُوتِ: أَنْ خُذْهُ وَلا تَخْدِشْ لَهُ لَحْما وَلا تَكْسِرْ عَظْما، فَأَخَذهُ، ثُمّ هَوَى بِهِ إلى مسْكَنِهِ مِنَ البَحْرِ، فَلَمَّا انْتَهَى بِهِ إلى أَسْفَلِ البَحْرِ، سَمِعَ يُونُسُ حِسًّا، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا هَذَا؟ قالَ: فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: إِنَّ هَذَا تَسْبِيحُ دَوَابِّ البَحْرِ، قَالَ: فَسَبَّحَ وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ، فَسَمِعَتِ المَلائِكَةُ تَسْبِيحَهُ، فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا إِنَّا نَسْمَعُ صَوْتا ضَعِيفا بِأَرْضٍ غَرِيبَةٍ؟ قَالَ: ذَاكَ عَبْدِي يُونُسُ، عَصَانِي فَحَبَسْتُه فِي بَطْنِ الحُوتِ فِي البَحْرِ، قَالُوا: العَبْد الصَالِحُ الَّذِي

كانَ يَصْعَدُ إِلَيْكَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَمَلٌ صَالِحٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَشَفَعُوا لَهُ عِنْدَ ذَلكَ، فَأَمَرَ الحُوتَ فَقَذَفَه فِي السَّاحِلِ، كما قالَ اللهُ تَبَارَك وَتَعالى: وَهُوَ سَقِيمٌ". [١]

وعَنْ سَعْد بن أبي وقاص، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ". [٢]

وإن كانَ اللهُ قد أنْجَى سيِّدَنا يونسَ عليه السَّلامُ وهو رجلٌ، فقد أنجَى أيضاً سيِّدَنا موسى عليه السَّلام وهو طفلٌ، وأيضاً من الغرقِ في البحرِ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ القصص٧.
﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ طه٣٩.

وسيِّدُنا يونس وفقَما يُرْوَى، كانَ في القَرْنِ الثَّامنِ قبلَ الميلادِ، أي قبلَ اليهوديَّةِ، والمَسِيحيَّةِ، والإسْلامِ. وقد ورَدَ ذِكْرُه في الكُتبِ السَّماويَّة الثَّلَاثِ، وفي التَّوْراة هناك سفرٌ باسمه هو سفرُ يونان، يَتكوَّنُ من أربعِ إصحَاحَاتٍ كلُّها عنه. ومن ذلك: (وأما الربُ فأعَدَّ حوتاً عظيمَاً ليبْتلِعَ يونانَ فكانَ يونانُ في جوفِ الحوتِ ثلاثةَ أيّامٍ وثلاثَ ليالٍ). ولذلك يصومُونَ ثلاثة أيام بِما يُعرَفُ بصومِ يونان. واليهودُ يَقْرَؤون سفرَ يونانَ كلَّ عامٍ باللّغةِ العِبريَّة وعلى الأخصِّ في اليومِ الذي يُسمَّى بيومِ الغُفْرانِ. ويُخصَّصُ هذا اليومُ عندَهم للصّلاةِ والصّومِ، ومن طقوسِ هذا اليومِ أنَّه يكونُ عُطلةً، ولا يتمُّ فيه إشعالُ نارٍ أو تشغيلُ سيّارةٍ، أو الكِتابةُ بقلمٍ، أو الاغْتِسالُ، أو العلاقَةُ الجَسَدِيَّةُ بين الرَّجلِ وزوجته، وذلك على مَدَارِ ٢٤ ساعة، من بدايةِ اللّيلِ، إلى بدايةِ ليلِ اليومِ التَّاليْ، بحسَبِ التّقويمِ العبِريِّ. ويُذْكَرُ سيِّدُنا يونسُ عليه السّلام بأسماءٍ عديدةٍ كلُّها تشيرُ إليه، في القُرآنِ: يونس، ذا النون، صاحبُ الحُوْتِ. ونون من أسماءِ الحوتِ. وورَدَ عن النّبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلّمَ أنه يونس بن متّى، ويُذْكَرُ عند أهلِ الكتابِ بـ: يونس بن أميتاي.

إذنْ، الأنبياءُ هم بشرٌ، لكنْ يَتميّزُون بأن اللهَ عزَّ وجلَّ يَصْطَفِيهم لمُهمّةِ النُّبوّة، وهذا يكونُ لخيرِ النَّاسِ، لأنَّهم يدْعُون إلى الصَّلَاح، وعلى الأغلبِ يكونُ ذلك عندما يَسْتَشْرِي الفَسَادُ وتتَّسِعُ رقعتُه في المجتمعِ، كما يبيِّنُ القرآنُ الكريمُ. فالأنبياءُ هم النُّخبَةُ الصَّالِحَةُ الّتي تدعُو

---

[١] رواه الطبري

[٢] رواه الترمذي، وأحمد

إلى الصَّلاحِ، ولذلك من المُهِمِّ للغايةِ أن نتعرَّفَ عليهِم، وعلى تصرُّفاتِهم، على أحاديثِهم، على ما كانَ يحصلُ معهم في سائرِ عَلَاقَاتِهم مع النّاسِ. والقرآنُ الكريمُ قد جعلَ حضُوراً لكلِّ هذه المعرفةِ بأنبياءِ الله عليهم صلواتُ اللهِ وسلامُه، من خلالِ الكثيرِ من السُّورِ والآياتِ القُرْآنيَّة. وقد ذكرَ عدداً منهم، وما ذكرَه القرآنُ هو غايةٌ في الأهمّيَّة عمّا جرَى معهم. فالأنبياءُ ولكونِهم بشرٌ، فإنَّهم عندما يتصرَّفُون دونَ وحيٍ، ليس بالضَّرورةِ أن يُصِيبُوا دائماً، والصَّوابُ الكاملُ يكونُ فقط عندما يتصرَّفُون بمُقتَضَى الوَحِي. وهذا أمرٌ بالغُ الأهمّيَّة، وهو أنَّ الإنسانَ لا يعلمُ أشياءَ كثيرةً، ولذلك ربمَّا يقعُ في أخطاءٍ، بحسنِ نيّةٍ، وقد صوّبَ اللهُ عز وجلَّ لأنبيائِه عندما لم يُصِيبُوا وفْقَ اجتهاداتٍ اجتَهَدُوا بها. فاسْتجابُوا لهذا التَّصْويبِ وتعلَّمُوا أكثرَ ممّا لم يعلمُوا، نضَجُوا أكثر. وهكذا يكونُ الإنسانُ، فعندما يُخطِئُ، يتعلّمُ من خطَئِه، لأنَّ الإنسانَ مهما كانَ عالِماً لا يمكنُ له أن يسْتغنيَ عن تصويبِ اللهِ عزَّ وجلَّ له.

وقد ورَدَ ذكْرُ ٢٥ نبيَّاً ورسولاً في القرآنِ الكَريمِ، منهم ١٨ في سورةِ الأنْعَامِ لوَحْدِها، والبَقيَّةُ في سُوَرٍ مُتَفَرّقَة. لكنَّ هؤلاء ليسُوا كلَّ أنبياءِ ورسُلِ الله على مَدَارِ التَّاريخِ البَشَرِيِّ، فهؤلاء فقطْ الذينَ ذُكِروا في القرآن الكريمِ.

﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ النساء ٢٤.

مع النَّبيِّ يونس نتعرَّفُ على أمرٍ بالغِ الأهمّيَّة، وهو أن اللهَ عزّ وجلَّ يمكن له أن يستغنيَ عن الأنبياءِ والرُّسلِ في هدايةِ النَّاسِ، فهي ليست حاجةَ الله إلى الأنبياءِ من أجلِ الهِدايةِ، وأن الهدايةَ لا يمكنُ لها أنْ تكونَ إلَّا من خلالِهم، كونهم من البشرِ، وهم أقربُ إليهم، بل هي حاجةُ البشرِ إلى اللهِ كي يصْطَفيَ لهم الأنبياءَ من أصْلَابِهم. ومع النَّبي يونسَ عليه السَّلامُ تتأكّدُ هذه الحَقِيْقَةُ، فقد اهتدَى قومُه عندما خرجَ عنهم، وهذا كمثالٍ بأنَّ اللهَ يمكنُ له أن يهديَ النَّاسَ بدون وجودِ أنبياءٍ ورُسُلٍ. وهنا ما يمكنُ اِسْتِنْتَاجُه، أنَّ الإنسانَ يمكنُ له أن يتَّعِظَ بما يجْرِي من حولِه، لأنَّ الأنبياءَ والرُسُلَ لن يلبثُوا على مدارِ التَّاريخِ البَشَرِيّ، بل سيأتي منْ يكونُ خَاتَمَاً لأنبياءِ اللهِ ورُسُلِه. وهذا ما حصلَ بعد كلِّ تلك القُرونِ الطّويلَة بين النّبي يونس عليه السَّلامُ، وبين محمّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. ولعلّنا الآن في أطولِ فترةٍ من الزَّمنِ خلَتْ من وجودِ الأنبياءِ، أي بما يزيدُ عن ألفٍ وأربعمائة سنةٍ لا نبيَّ ولا رسولَ فيها. ورغم ذلك بقيَ الدِّينُ،

بل إن أعدادَ المُؤمنين في زيادةٍ من قرنٍ إلى قرن. طبعاً بقيَ القرآنُ هو كِتاب الهِدايةِ الأوّل، لكنْ إلى جانبِه لبث قرآنُ الطَّبيعةِ مُستمرّاً تتجلّى فيه آياتُ الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾الرعد٣.

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد٤.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ النحل٧٩.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾ طه١٢٨.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم٢١.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الروم٢٤.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لقمان٣١.

فما يراهُ الإنسانُ من أحداثٍ تجري بشكلٍ مُستَمِرّ أمامَ عينَيه، سواء معَه أو مع غيرِه، يعزّزُ لديه الإيمانَ، في هذه العلاقةِ التَّكامُليَّة بين ما يقرأُ في كتابِ اللهِ المَقرُوءِ، وما يرَى في كتابِ اللهِ المَرئيّ في الطَّبيعَة، حيث يلْبَثُ القرآنُ مُتَفاعِلاً مع الواقعِ اليَومِيِّ، ويبقى الواقعُ اليومِيُّ متفاعلاً مع القُرآن.

سورةُ يونس، مكّيَّة تقعُ في ١٠٩ آية، وهي السُّورةُ الحاديةُ والخَمْسُون في ترتيبِ النّزُولِ، والعاشرةُ في ترتيبِ المُصْحَف.

الباب الأول
حروف القرآن

﴿١﴾
﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾

هذه هيَ السُّورةُ الرَّابعةُ التي تُسْتَهلُّ بحروفٍ، لكنَّ الخلافَ أنَّ الحُروفَ في السُّورِ الثَّلاثِ السَّابقةِ، كانت تُشكِّلُ آيةً في كلِّ سورةٍ: ﴿الم﴾. كآيةٍ أولَى مُسْتقلَّةٍ في البقرةِ، وكذلك كآيةٍ أُولَى مُسْتقلَّةٍ في آلِ عمران. و﴿المص﴾. كآيةٍ أُولَى مُسْتقلَّةٍ في الأعرافِ.

أمّا هنا، فـ ﴿الر﴾. لا تُشكِّلُ آيةً مُسْتقلَّةً، بلْ هي جزْءٌ من الآيةِ الأولَى. والحروفُ رغمَ أنَّها تُكتَبُ في المُصحَفِ بشكلٍ مُتَّصِلٍ، إلَّا أنها تُقرَأ بشكلٍ مُنفَصِلٍ. فـ: ﴿الر﴾. لا تُقرَأ ككلمةٍ واحدة، بل تُقرَأُ على شكلِ حروفٍ منفصلَةٍ: ألف، لام، راء. وقد أبلغَها النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كما تلقَّاها من جبريلَ عليه السَّلامُ، وهي كلمةٌ مُقدَّسَة بحروفِها المُقدَّسَة، أتَتْ من اللهِ تعالَى شأنُه، والإنسانُ يتعَبَّدُ بقراءَتِها، فيقرَؤُهَا قراءةَ عِبادةٍ. وقد قرَأَها النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ على شكلِ حروفٍ متقطّعةٍ. عن عبد اللهِ بن مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ"[1] . وهي حروفٌ من صُلْبِ الأبجديَّة العربيَّة، ولا بل ولا تشكيلٌ غيرُ عربيٍّ فيها.

وتُعَدُّ الحروفُ مَنْظُومَةً أساسيَّةً في التَّنْزيْلِ الحَكِيْمِ، وهي تَرِدُ في بداياتِ السُّوَر، فتكونُ أحياناً آيةً مُنْفَصِلَةً، وأحياناً جُزْءاً من الآيةِ. ولا علاقةَ لعددِ الحروفُ بذلك، ففي هذه السُّوْرَة نحن مع ثلاثةِ حروفٍ، دون أن تُشَكِّلَ آيةً، في حين أنَّنا مع ﴿طه﴾. في سورةِ طه، و﴿يس﴾. في سورةِ يس. مع آيتَين مُستقلَّتَين، وكلُّ آيةٍ تكوّنَتْ من حرفَين. بل قد تُشكِّلُ الحروفُ آيتَين مُتتاليتَين

[1] رواه الترمذي

في مُستَهَلِّ السُّورَة، مثلَ: ﴿حم* عسق﴾. في سورةِ الشُّورى. وقد ترَاوَحَت أعدادُ الحروفِ في السُّوَر القُرآنية من حرفٍ واحدٍ، مثل: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾. في سورة ص.

و: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾. في سورة ق.

و: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. في سورة القلم.

وحملَ حرفٌ واحدٌ هو ﴿ص﴾. اسمَ السُّورةِ الأُوْلى، كما حمَلَ حرفٌ واحدٌ هو ﴿ق﴾. اسمَ السُّورةِ الثّانيةِ. ورغمَ أن السُّورةَ الثَّالثةَ بدأَتْ أيضاً بحرفٍ هو ﴿ن﴾ إلَّا أنَّها لم تحملْ اسمَ الحرفِ، بل (القلم) الكلمةَ التي تلَتِ الحرفَ وعُطِفَت عليه. والسُّورُ الثَّلاثُ كان الحرفُ الواحدُ فيها جزءاً من آياتِها الأولَى، وكذلك كانتِ الكلماتُ التَّاليةُ لها معطوفةً على تلك الحروفِ.

وإذا كنَّا مع حرفَي ﴿طه﴾. في سورةِ طه، و حرفَي ﴿يس﴾. في سُورةِ يس. وحرفَي ﴿حم﴾. في سُورةِ غافر. مع ثلاث آياتٍ مستقلّةٍ، إلَّا أنَّنا مع حرْفَي ﴿طس﴾، في سورةِ النَّملِ، لا نكونُ مع آيةٍ مُستقلَّة، بل مع جزءٍ من الآيةِ الأُولَى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. وقد حملَ حرفَا ﴿طه﴾. اسم سورتِهما الّتي اِبْتَدَأت بهما كما حملَ حرفَا ﴿يس﴾. اسمَ سورتِهما التي اِبْتَدَأت بهما، لكنْ لم يحملْ حرْفَا ﴿حم﴾. اسمَ سورتهما رغم أنهما شكّلتا كذلك آيةً مُستقلَّة ابتُدِئَت بهما.

كذلك الأمرُ بالنِّسبةِ لـ: ﴿حم﴿١﴾تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴿٢﴾﴾. في سورةِ فصلت

﴿حم{١}عسق{٢}﴾. في سورة الشُّورى.

﴿حم {١}وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ{٢}﴾. في سورة الزُّخْرُف.

﴿حم {١}وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴿{٢}﴾. في سورة الدُّخان.

﴿حم {١}تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{٢}﴾. في سورةِ الجَاثِيَة.

﴿حم {١}تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{١}﴾. في سورة الأحْقَاف.

ونجد ﴿الم﴾. كآيةٍ مُستقلَّة في: البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.

ونجدُ ﴿الر﴾. في هذه السّورةِ كجزءٍ من الآيةِ. كذلك في سورةِ هودٍ: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ{١}﴾.

كذلك في سورةِ يوسف: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ{١}﴾.

وفي سُورةِ إبراهيم: ﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{١}﴾. وفي سورة الحِجْر: ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{١}﴾.

وفي سورةِ الأَعْرَاف أربعةُ حروفٍ كآيةٍ مُستقلَّة: ﴿المص﴿١}﴾.

في سورةِ الرَّعدِ، أربعةُ حروفٍ كجُزْءٍ من الآيةِ: ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ{١}﴾. وفي سُورةِ مريمَ، خمسةُ حروفٍ كآيةٍ مُستقلَّة: ﴿كهيعص{١}﴾.

ولعلّ في ذلك بياناً من اللهِ عزَّ وجلّ بأنَّ الإنسانَ، وكلَّ خَلق مِن خَلق اللهِ، لا يعلمُ كلَّ شيءٍ، ودوماً هناك الجديدُ يُعلِّمُه اللهُ لخَلقِه، وهذا الجديدُ لا ينفَدُ ما دامَ ثمّةَ خَلقٌ. فكل جيلٍ بشريٍّ جديدٍ يتعلَّمُ ما لم تكنْ تعلمُه أجيالٌ سابقةٌ، ويكتشِفُ ما لم تكنْ اكتشفَتْه أجيالٌ سابقةٌ. فهذه الحروفُ هي علامَاتُ أسرارِ اللهِ التي يعلمُها وحدَه تعاظَمَ شأنُه، ولا يعلمُها مخلوقٌ قطّ. وعلى هذا يتأسَّسُ الإيمانُ المُطلَق بالغيبِ، فدوماً ثمّةَ ما هو غائبٌ لا تعلمُه، ولا أحدَ يعلمُه إلّا الله.

وإذا دقَّقْتَ في الأمرِ سترَى بأنَّ ذلك أيضاً من باب العلمِ، وليس من باب اللّا علم، لأن اللهَ لم يُنْزِلِ القرآن ليكونَ غامضاً، بل ليكونَ واضحاً، لا ليكونَ غير مفهومٍ، بل ليكونَ مفهوماً. فهذه الحَقيْقَةُ بعلمِ اللهِ وحدَه بالغيبِ، هي بذاتِها علمٌ، وهي بذاتِها وضوحٌ. وقد ورَدَت هذه الحروفُ كاسْتِهلالٍ لسوَرِها، سواء أكانَت قد شكَّلَت آيةً، أو شكَّلَتْ جزءاً من آيةٍ. فتعطيكَ علامةً بالإمْعَانِ، وعدمِ التَّسرُّع في القِرَاءة، فتنظرُ إلى هذه الحُروفِ وتتفكَّرُ فيها، وهذا يكونُ كأساسٍ جيِّدٍ لتستمرَّ في القراءةِ وأنتَ تتفكَّرُ، لا أن تتعجَّلَ لتختمَ فحسْب. فلم يرد في التنزيل: (لتختمون). بل: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ البقرة٤٤. ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ البقرة٢٢١. ﴿أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ الأنعام٥٠.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ الأنعام٩٨. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد٢٤.

وما إلى ذلك، فليستْ قراءةُ القرآنِ لغاية القراءةِ فحسب، أو لغايةِ الإكْثارِ من أعدادِ الخِتَمِ القُرآنيَّة فحسب، بل لاستيعابِ ما تقرأُ، وبالتالي التَّفاعل مع ما تقرأُ. لأنَّ القرآنَ يُحيلُك إلى نفسِك، يحيلُكَ إلى مُقوِّمَاتِ الحياةِ التي تعيشُ فيها، يحيلُك إلى علاقتِك بالآخرين. وهكذا يُحسِّن لك القرآنُ حياتَك، يُحسِّنها على قدْرِ تفاعلِك مع آياتِه، على قدرِ ما يتركُ القرآنُ أثراً

عليك، بِما يمكن أن أسمّيها بالقراءةِ التَّفاعليَّة. من هنا فإن عددَ ختمِ القرآنِ لا يكونُ شرطاً للارتقاءِ في درجاتِ العِبادة، فكم مِن شخصٍ لعلَّه ختمَ القرآنَ مئاتِ المرات، لكنَّه ما زالَ في جمودِه العقليّ، ما زالَ يُؤْذِي نفسه، ويُؤْذِي مَن يتمكَّنُ منهم، ولعلَّ أقربَ النّاسِ إليه يرْوُون وقائعَ عن عدمِ استقامتِه، وعنْ بطشِه، من خلالِ أدلّةٍ وبراهينَ. فالقراءةُ هنا تُمْسِي له عادة، وليست عِبادة، وهذا يكون أيضاً بالنّسبةِ للصّلاة، والصّوم، والزَّكاةِ، وما إلى ذلك. فيؤدِّيْها بشكلٍ أوتوماتيكيٍّ، كما الأمرُ بالنِّسبةِ للآلةِ. فهو قد يذكرُ اللهَ كثيراً، لكنَّه لا يخشعُ بالذِّكْرِ، لأنه يتلفّظُ باسمَ اللهِ ويتلفّظُ بالآياتِ بشكل آلي. ولذلك: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت٤٥. فالصّلاةُ التي لا تنْهى عن الفحْشاءِ والمُنكَر لا تكون صلاةً مهما صلّى المرءُ، مثلَ صناعةِ شكلٍ يلتهبُ كالنَّارِ، لكنَّه لا يحرِقُ، فهو ليس ناراً مهما اتّخذَ شكلَ النَّارِ. كذلك فإن ذكرَ اللهِ الذي لا ينْهى الذاكرَ عن الفحشاءِ والمُنْكَر لا يكونُ ذكراً مهما تلفَّظ باسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ. لذلك: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾. لأن ذكرَ اللهِ يبقى معك أينما كنْت، وتستمدُّ استقامَتَك بقدرِ ما تتفاعلُ مع ذكرِ الله. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الأنفال٢.

إذن، هذه الحروفُ القرآنيَّةُ المُقدّسَة أتاحَت لنا مثْلَ هذا الحديثِ الّذي هو في صُلبِ العقيدةِ، في صُلب ما أُنزِلَ القرآنُ من أجلِه.

وعلى ذلك فإننا لو نظرْنَا إلى مضامينِ هذه السُّور التي تبدأُ بالحروفِ، نرى فيها أشياءً خارقةً، يَصْعُب على الإنسانِ أن يسْتوعبَها، إلَّا إذا آمنَ بقدرةِ اللهِ على كلِّ ما هو مستحيلٌ، أو غيرُ مستحيلٍ بالنّسبة للإنسانِ. وهنا نحن نرى كيف يُرمَى في البحر، ويبتلعُه حوتٌ دون أن يُصيبَه أيُّ خدشٍ، ثم يصولُ به ويجُوْلُ في جوفِ البحر، ثم يأمرُه اللهُ أن يضعَه على اليابسة، وكذلك يخرجُ دون أن يُصابَ بأي خدشٍ في بدنِه. وعلى الفور ينبِتُ له اللهُ شجرةَ يقطين تتميَّز بالمزايا التي يحتاجُها.

إذن: ﴿الر﴾. تعزيزٌ لقدرةٍ إلهيَّةٍ خارقةٍ لديك، وإيمانُكَ بهذه القُدرةِ الخَارِقَة، يُحقّقُ الطُّمَأنينةَ والأمانَ في نفسِك. لماذا؟ لأنَّك تعيشُ في عالمٍ كلُ شيءٍ فيه ممكنُ الحدوثِ بشكلٍ مُتَوَقَّع، أو غير مُتَوَقَّع. فلا تعلمُ بعدَ قليلٍ ما الذي يمكنُ له أن يحْصُلَ، فتسلِّمُ أمرَك لعنايةِ اللهِ، وهكذا تعيشُ في أمنٍ وطُمَأنينةٍ.

لذلك، بعد ﴿الر﴾، مباشرةً وكاستِئنَافٍ لهذه الحروفِ في ذات الآيةِ الافتِتَاحيَّة للسُّورة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

﴿تِلْكَ﴾ الوقائعُ والأسرارُ والغَيْبيّاتُ والخوارقُ وما تعلمُه وما لا تعلمُه، وما ترَاه ومَا لا تَراه: ﴿آيَاتُ﴾. براهينُ ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. القرآنُ الذي يتضمَّن كل ﴿تِلْكَ﴾ البراهينِ بحكمةٍ إلهيَّةٍ.

كلماتُ الآيةِ الكريمةِ الأربعِ التي تَلِي ﴿الر﴾، بالغةُ الدِّقَّةِ. فبعد أن تؤمِنَ بالغيب، سينشرِحُ صَدرُك لتُدركَ أنَّ كلَّ ما يحصُلُ لك أو لغيرِك في الواقعِ، يكونُ للهِ فيه حكْمةٌ، ولا يحصلُ قطّ دونَ علمِ اللهِ. هنا ستعملُ على تطويرِ نفسِك مُستَفِيداً من الأخطاءِ التي تقعُ فيها، أو يقعُ فيها غيرُك، وما هو مهمٌّ جدّاً أن ذلك يُزيح عنك أي فكرةٍ للقُنُوطِ واليأسِ. فأنتَ تُخطِئُ وتتعلَّمُ من أخطائِك، وتتعرَّفُ على اللهِ أكثرَ وأنتَ تتوبُ إليه.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. ﴿تِلْكَ﴾ الحياةُ التي تعيشُ وقائعَها يوماً بيومٍ، وساعةً بساعةٍ، هي ﴿آيَاتُ﴾. أدلّةٌ وبراهينُ تتجلّى في ﴿الْكِتَابِ﴾.

القرآن ﴿الْحَكِيمِ﴾. كذلك تتجلّى الحكمةُ منها في هذا ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

إذن، الآيةُ الأولى كاملةً مع الحروفِ الثَّلاثِ التي استُهِلَّت بها، تُرشِدُكَ إلى القرآنِ الذي ترَى فيه ما يزيحُ أيَّ يأسٍ أو اكتئابٍ قد يصيبُك، لأنه يُطَمْئِنُكَ بأن ما أنتَ فيه إنما يحمِلُ في طيّاتِه حكمةً بالغةً من اللهِ إليك، وعليكَ أن تغتنمَ هذه الحكمةَ التي أنعمَ بها اللهُ عليك كي تُحسِّنَ بها حياتَك وتُصلحَ من شأنِك، لأنَّ هذه الرّسائلَ أحياناً تكونُ إنذاريّةً أيضاً، بمثابةِ الخطرِ الكبيرِ الذي اقتربَ كثيراً منك. الأمرُ المهم هنا هو مدى استيعابِك وتفاعلِك مع هذه الحكمةِ من خلالِ ﴿الر﴾. أي عليكَ أن تُدقّقَ في بعضِ الأشياء، وتتوقّفَ عندها بإمعانٍ، فكم مِنْ شخصٍ لحقَ به الويلُ نتيجةَ غفلَةٍ، نتيجةَ تَسرُّعٍ، نتيجةَ عدمِ التَّأنِّي في اِتّخاذِ القرارِ. وكانَ يمكنُ له بنصفِ ساعةٍ فقط من التّأنِّي والتَّفكُّرِ أن يتجنَّبَ كلَّ ذاك الويلِ الذي لحِقَ به؟ إذن ستَتَيسَّر أمورُك بإذن اللهِ على قدرِ ما تُدرك الحكمةَ من هذه الآياتِ. ﴿آيَاتُ﴾ القرآنِ الذي تقرَؤُه، و﴿آيَاتُ﴾ الواقعِ الّذي تعيشُ في ظَهْرَانَيْه.

الباب الثاني
آفةُ المظاهر

﴿٢﴾

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾

تتحدَّثُ هذه الآيةُ الكَريمةُ عن المَظاهِرِ التي قد ينْغَرّ بها بعضُ النّاسِ، وعلى أساسِها يُقَيّمُون بعضَهم بعضاً، دون الالتفاتِ إلى الجواهرِ التي قد تكونُ نقيضَ تلك المَظاهرِ.

ولذلك: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾. والعجبُ هنا جاء لأنَّ اللهَ أوْحَى ﴿إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾. أي من صُلْبِهم، لكنْ ليس من ذَوِي الوَجَاهة والمالِ. ﴿إِلَى رَجُلٍ﴾. مُتواضِع بإمكاناتِه المَاليَّة، وكذلك في وَجَاهتِه ونُفُوذِه في قوْمِه.

﴿رَجُلٍ﴾. تربَّى يتيماً، وكانَ يرعى الأغنامَ، وإمكاناتُه محدودةٌ في قومِه. فهذا ما كانَ يتبدَّى لهم في ظاهرِه، ويبدُو أنَّ هذا ما كانَ مهمّاً بالنِّسبةِ إليهم، أي المظْهرُ الوَجَاهيُّ المَنْفُوشُ حتَّى لو كانَ على جوهرٍ مُتَناقِضٍ.

والآيةُ الكريمةُ تدعُوكَ إلى التعجّبِ من هذا التعجّبِ الذي تكونُ عليه طائفةٌ من النَّاسِ.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾. ولِمَ العَجَب.. الأمرُ لا يستدعِي العَجَب: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾. من غالبيّتهم المُتواضِعَة، وليس من نُخْبَتِهم، فعجبُكُم يستدعِي التعجُّبَ. ولذلك على النَّاسِ أن يعجَبُوا لعجبِكُم، وعليكُم أنتم أيضاً أن تعْجَبُوا لعجبِكم هذا.

إذن، النَّاسُ هنا، هم هؤلاءُ الذين عَجِبُوا لأمرِ اللهِ الذي أنزلَ الوحيَ على قلبِ ﴿رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾. هؤلاء ﴿النَّاسَ﴾ الذين عجِبُوا، وغيرهم. ﴿وَ﴾ – بعدَ الإنذارِ من مَغبَّةِ الشِّركِ–: ﴿بَشِّرِ الَّذِينَ﴾ بعدَ أن تلقُّوا الإنذارَ وتراجعُوا عن شرْكِهم و﴿آمَنُواْ﴾.

﴿بَشِّرِ﴾ هؤلاء يا مُحمَّد: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

القدمُ هنا إشارةٌ إلى الثّباتِ: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ النحل ٩٤. فقد ثبَتَت عند اللهِ خطواتُ أقدامِكُم التي خَطَوتُمُوها بـ﴿صِدْقٍ﴾، في سبيلِ اللهِ. فكلُّ خطوةٍ هي ﴿لَهُمْ﴾ خطوة ﴿صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. لأنَّها كانَت من ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾. وكلمةُ ﴿قَدَمَ﴾. أتَت بالغةَ الدّقّة ومُنْبَثِقة من عمقِ السِّيَاق، فهي أيضاً تُشيرُ إلى التقدّمِ بخطواتٍ واثقةٍ في درجاتِ الإيمانِ، وتركِ الشِّرْك خلفَهم.

والبِشَارةُ هنا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ بحفظِ هذه المَكانةِ الرَّفيعةِ لهؤلاءَ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾. بشّرْهم يا محمّدُ: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

نظيرَ هؤلاءِ ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾. لبثَ ﴿الْكَافِرُونَ﴾. في كفرِهم بعدمِ الإيمانِ بنُبُوَّة محمّدٍ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾. فرغمَ البيانِ الجَلِيِّ الّذي أتَى به إليهم من عندِ الله، اتّهمُوه بأنَّه ساحرٌ وأنَّ ما يأتِي به إنَّما هو من تَدَاعِياتِ السِّحرِ. ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾. نَاكِرُو نُبُوَّتِه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾. هكذا عن اِسْتعلاءٍ قالُوها: ﴿إِنَّ هَذَا﴾. إشارةً إلى محمّدٍ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ ﴿لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾. أي: سحرُه بائنٌ ولا يخْفَى عنّا، وبذلك فقد بيَّنوا مدى ترسُّخِ الكفْرِ لديْهِم.

الباب الثالث
منزلة الشفاعة

﴿٣﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾

تحملُ الآيةُ الكريمةُ الإجابةَ على ما ورَدَ في الآيةِ السَّابقةِ، فإذا عَجِبَ بعضُ النَّاسِ من نزُولِ الوَحْيِ على قلبِ ﴿رَجُلٍ﴾. فالأجدَرُ بهم أن يعْجَبُوا مما هو أكبرُ من ذلك، وهو أنَّ الرَّبَ قد ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾.

وهذا مِنْ شأنِه إزالةُ أي عجَبٍ يمكنُ أن يقْرَبَ النَّاسَ ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾. فيما إذا تركُوا العِنادَ والإستكْبَارَ جانِباً. ومع إزالةِ هذا العَجَب، يتمَخَّضُ إيمانٌ حَقيقيٌّ بأنَّ القرآنَ هو من عندِ اللهِ، وأنَّ هذا الرَّجلَ الّذي هو ﴿مِّنْهُمْ﴾، إنَّما هو رسولُ اللهِ.

فإذا رَاوَدَ أحداً شَكٌّ بأنَّ القرآنَ هو كِتابُ اللهِ المُقَدَّسِ الذي أنزلَه على رسولِه لهدايةِ النَّاسِ، فالآيةُ تُحيلُه إلى مَسْألةِ الخَلْق.

فليسَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾. وليس ﴿إِنَّ﴾ ﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾.

بل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾.

الرَّبُ هو الّذي يربِّي، ويوفِّر للمُربّى أسبابَ ومُقوّمَاتِ التَّربيةِ بدنيَّاً وفكْريَّاً، وهذا يمكنُ أن يقومَ به الإنسانُ، مثل الأبِ الذي يكونُ ربَّ بيتِه، أي يقومُ بتربيةِ أبنائه وزوجتِه. لكنَّ الأبَ هو مَخْلوقُ الله الذي يربِّيه ويُربِّي مَن يُربِّي، أي هو الّذي خلقَ الرِّزقَ الّذي يحصُلُ عليه، وخلقَ الطَّاقةَ التي يتحرَّكُ وينشَطُ بها، ولذلك وللتّذْكِير: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾.

فهو جلَّ شأْنُه لديه مُلكيَّة ﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ المُطْلَقَةُ. فالرُّبُوْبِيَّة مُقتَرِنَةٌ بالأُلُوْهِيَّة، ولذلك يبقى الإنسانُ على عبادةِ اللهِ حتَّى بعد أن يستجيبَ لمطالِبه. فالرَّبُ الّذي هو اللهُ، يعطِي ويعفُو، واللهُ الذي هو الرَّبُ، يُعبَدُ ويُشكَرُ على الفَضْلِ.

إذن: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي﴾. يوفّرُ لكم أسبابَ تربيتكُمْ من طعامٍ، وشرابٍ، وملبَسٍ، ومَسْكنٍ. وكذلك العلمُ، والمعرفةِ، والخِبرَةُ، والنُّضُوجُ في الحياةِ، هو الّذي يَتوجَّبُ عليكم عبادتُه، وطاعتُه، وشكْرُه على ما أنْعَمَ عليكم ممّا تَرْفلُون فيه منْ نَعيمٍ.

لذلك، ذُكِرَ الرَّبُ والإلهُ معاً، نظراً لتفرّعاتِ ما تتضمَّنُه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. فهذا هو ﴿رَبَّكُمُ اللّهُ﴾.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾. كذلك فإنه: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾. يتولّى تدبيرَ كل أمرٍ من أُمورِكم مهما كانَ كبيراً أو صغيراً، علِمْتُمُوه، أو لم تعلَمُوه.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾. ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾.

الآنَ، وبعدَ كلِّ هذا البيانِ: ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾. شُكْراً له على أفْضالِه عليكُم.

لذلك: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾المؤمنون١١٨.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ص٣٥.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾نوح٢٨.

فعندما تطلبُ شيئاً، تذكُرُ الرَّبَّ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾البقرة٢٠١.

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾البقرة٢٨٦.

﴿ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران١٤٧.

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾الكهف١٠.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾الحشر١٠.

والرَّبُّ من أسماءِ اللهِ الحُسنَى، وكلُّ اسمٍ من أسمَاءِ اللهِ الحُسنى له خاصّيَّتُه، وفي النِّهايةِ فإن كلَّ هذه الأسماءِ الحُسنَى، هي للهِ ربِّ العالَمين الذي يتّجهُ الإنسانُ إليه بالعِبادةِ.

لذلك جاءَ: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾. أي هو الذي يأذَنُ لهذا المَخلُوقِ كي يكونَ شفيعاً، ودون ذلك ليس بوسعِ مخلوقٍ مهما كانَ، أن يشْفعَ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ البقرة ٢٥٥.

الأمرُ الآخرُ فإنَّ هذا الشَّفيعَ أيضاً لا يشفعُ إلَّا لِمَن يأذنُ اللهُ بأن يشفعَ له:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾طه١٠٩

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾الأنبياء٢٨.

وهذا يشمَلُ كلَّ مَخْلوقٍ بِمَن فيهم الملائكةُ عليهم السَّلامُ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾النجم٢٦.

وهذا بيانٌ جَلِيٌّ بأنَّه لا شيء يمكنُ له أن يحصُلَ دونَ إذْنِ الله تعالَى ذكْرُه، وحّتى لا يَعتقِدَ مُعتَقِدٌ بأنه يُمكن أن يُشفَعَ له دونَ إذنِ الله. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾غافر١٨.

إذن، الشَّفاعَةُ هي توسّطٌ لنَيلِ مَرغوبٍ، أو دفعِ غيرِ مَرْغُوبٍ، والشَّفيعُ هو مَن قُبِلَت شفاعَتُه، والمَشْفُوعِ هو مَن قُبِلَت الشَّفَاعَةُ له، والمُستَشفِع هو مَن يطلبُ شيئاً من خلالِ الشَّفيعِ. فأوّلاً يكونُ الشَّفيع مُقدَّراً عند الله، ثم إنَّ المشفوعَ له يرضى اللهُ ليُشْفَعَ له.

والشَّفاعَةُ تكونُ أيضاً في الدُّنيا بين النَّاسِ، وعادةً يكونُ الشَّفيعُ شخصاً ذا قيْمَةٍ وقدْرٍ، ويحظَى بتقديرِ النَّاسِ له، فمن أجلِ خاطرِه يُعفَى عن هذا الشَّخصِ، كونه قد أتَى معَه وطلَبَ العفْوَ من صاحبِ الحَقِّ. والشَّفَاعةُ في الدُّنيا بين النَّاسِ تُعَدُّ عِبادَةً، لأنَّها عملُ خيْرٍ، وينجُمُ عنها الخيْرُ. وعلى الإنسانِ المُقتدِر أن يغتَنِمَ ما أنْعَمَ اللهُ عليه من مَنْزِلَةٍ رفيعةٍ بين النَّاسِ كي يكونَ شفيعاً حَسَناً، لأن بعضَ النَّاسِ يستغلُّ ذلك ليُلْحِق الأذى بالنَّاسِ، فيكون بذلك شفيعاً سيِّئاً، وهو أن يتدخَّلَ لإلحاقِ الأذى بشخصٍ ما من خلالِ ما متَّعَه الله من مَنْزِلةٍ سواء في المالِ، أو النُّفوذِ، أو الوَجَاهة: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾. فهذا هو الوجهُ الإيجابيُّ للشَّفاعةِ، ثمَّ اِسْتأْنَفَت الآيةُ لبيانِ الوجْه السَّلبِيِّ للشَّفَاعَة: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً﴾النساء٨٥. فكما أنَّ الشَّفيعَ الحَسَن ﴿يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ﴾ من شفاعتِه الحَسَنةِ، فإنَّ الشَّفيعَ السَّيِّئَ ﴿يَكُن لَّهُ كِفْلٌ﴾ من شفاعتِه السَّيّئة.

عَنْ أَبِي مُوسَى رضِيَ اللهُ عنه قالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ : "اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا")[1].

والأجرُ يكونُ من اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يجوزُ للشَّفيعِ أن يأخُذَ من أحدٍ شيئاً مُقَابلَ شفاعَتِه. وفي ذلك جاءَ عن أبي أُمامةَ عن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "مَنْ شَفَعَ لأَخِيهِ بِشَفَاعَةٍ، فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا، فَقَبِلَهَا: فَقَدْ أَتَى بَابًا عَظِيمًا مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا"[2]. وقد أتَتِ الهديَّةُ في الحديثِ، وأتى الرِّبا. لأنَّ البعضَ وإن كانَ لا يطلُبُ ثمَناً بشكلٍ مُباشَرٍ لهذه الوَساطَة، إلَّا أنه يُلمِّح بأنَّ على المُوَسِّطِ له أن يُقدّمَ له شيئاً من تلقاءِ نفسِه، والمُوَسِّط له يعِدُه بذلك أيضاً بطريقةٍ غير مُباشَرةٍ. وتفرّعاتُ هذه المَسْألةِ كثيرةٌ، ومنها على سبيلِ المِثالِ ما يحصلُ في بعضِ الدَّوائرِ، حيثُ يسْتَغِلُّ المُوظَّفُ وظيفتَه وعلاقتَه مع المُديرِ، فيأتِي بالمُوَافقَة لأحدِ المُراجِعِين على مطلبٍ ما، أو يُسهِّلُ له مطلباً ما في هذه الدَّائرةِ. والشَّفاعَةُ أيضاً يمكنُ لها أن تتفرَّع بين النَّاس، مثلَ أنَّ شخصاً يرفضُ أن يعطِيَ شخصاً آخرَ حقوَقه، فيأتي صاحِبُ الحقِّ إلى شخصٍ نافِذٍ ويطلبُ منه أن يذهَبَ معَه إلى ذاك الشَّخصِ كي يُعطيَه حقوقَه، ويُلمِّحُ له بأنه لن ينسَاه، هكذا بطريقةٍ غير مُباشَرةٍ، وأحياناً بطريقةٍ مُبَاشَرَةٍ يتَّفِقُ معه بأنَّه سيعطِيه مَبلَغاً يتم الاتفاقُ عليه في حالِ حصلَ على حقوقِه من ذاك النَّاكِرِ. هنا يأتي الوسيطُ إلى هذا النَّاكِرِ بصُحْبَة صاحبِ هذه الحقوقِ، فيُضَّطَرُ أن يعطيَه حقوقَه لأنه يعلمُ مدى ما يمكِنُ لهذا النَّافِذَ أنْ يُؤْذيَه في حالِ عدمِ الإستِجَابَة. ومثلُ هذه الأمورِ تكون شبيهةٌ بالسَمْسَرَة، فيُصبحُ الموظَّفُ سِمْسَاراً، والنَّافِذُ سِمْسَاراً، والقَوِيُّ سِمْسَاراً، وما إلى ذلك. وهذه حالاتٌ غيرُ إنسانيَّةٍ، يرفضُها الإسلامُ، لأنَّ الإسلامَ جاءَ لتعزيزِ الرَّوابِطِ الإنسَانيَّة والأخلَاقيَّة بين النَّاس. وقد بيَّن الحديثُ النَّبَويُّ الشَّريفُ أنَّ الحصولَ على مُقابِلٍ نظيرَ هذه الوسَاطَة يُعدّ "بَابًا عَظِيمًا مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا". وفي هذا بيانٌ من النَّبِيِّ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه بأنَّ الرِّبَا لا يقْتَصِرُ على ما هو معروفٌ بين النَّاسِ من إعطاءِ مبلغٍ لشخصٍ نظيرَ فائدة، بل له أبوابٌ تُفْضِي إليه.

والشَّفَاعةُ لها منزلتُها الطَّيِّبَةُ في الآخرةِ أيضاً، ومن ذلك شفاعةُ المَلَائِكَة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾الأنبياء٢٨.

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[2] رواه أبو داود

عن أبي هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: (قلت: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ: "لَقَدْ ظَنَنْتُ، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ")[1] .

وعن النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ". قالوا: سواك يا رسول الله. قال: "سواي".

وعن النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "يُقالُ للرَّجلِ: قم فاشفع، فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة".

وعن النَّبِيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "شفاعة رجلٍ في الصف الطيّب لآخرٍ في الصف الثاني سقاه أو قضى له حاجة".

عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ قال: "من قرأ القرآن فاستظهره وأحلَّ حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة، وشفَّعهُ في عشرة من أهل بيتهِ كلُّهم وجبت له النار" [2] .

﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ﴾– أي: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾– ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾. لأنَّ عبادَتَكم له تكونُ لصالِحِكُم، فاجعلُوا أنفسَكم قريبين منه مِن خلالِ صلَاحِ أَعْمالِكم. فـ ﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ﴾ القادِرُ على ما لا يَقدرُ عليه غيرُه، بل حتَّى لا يجْسُر أحدٌ أن يشْفعَ: ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾. وحِّدُوه، والجَؤوا إليه في اِحْتياجَاتِكم: ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾. تذكَّرُوا ذلك جيِّداً واسْتَوْعِبُوه حتَّى تَصْلُحَ عِبادَتُكُم.

---

[1] صحيح البخاري

[2] أخرجه الترمذي وابن ماجه

الباب الرابع
البُشرى والإنذار

﴿٤﴾

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾

سِياقٌ يُكمِل بَعضُه بَعضاً، ويعْضُد بَعضُه بَعضاً لإيصالِ دقّةِ البيانِ أكثرَ فأكثرَ. ففي مُستهَلّ السُّورةِ الكَرِيمة: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

وفي الآيةِ الثَّانيَةِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

وفي الآيةِ الثَّالثَة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾. وفيها بيانٌ أنَّ اللهَ عزَّ وجلّ له القُدْرَة على كلِّ شيءٍ.

الآنَ، وبعد كلِّ ذاك البيانِ التَّفْصِيْلِيِّ في الآياتِ الثَّلاثِ، ولتعزيزِ الإيمانِ أكثرَ وأكثرَ، استُهِلَّت الآيةُ الكَريمَةُ بما يمكنُ أن يكونَ خاتمةً للآياتِ الثَّلاثِ، وكذلك بدايةً للآيةِ الجَدِيْدة: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾. أي لا بدَّ أن تنْتَهُوا إليه، لأنّكم بدَأْتُم منه، فليكُنْ رجوعُكُم رجوعَاً صالِحاً إلى ربِّكم، رجوعاً مُحمَّلاً بأعمالٍ صالِحَةٍ، فليكنْ كلُّ واحدٍ منكُم بطلاً صالحَاً في حياتِه، يقفُ على تاريخٍ من الصَّلاحِ، فالصَّالِحُ في أيِّ زمانٍ ومكانٍ كانَ، يمكِنُ له أنْ يرتقِيَ بصلَاحِه إلى درجَاتِ الأنبياءِ في الجَنَّةِ، وفي الدُّنيا تكونُ له كَرَامَاتُ الأنبياءِ بفضْلِ اللهِ تعَالَى.

فأنتم تَتَقَدَّمُون إلى اللهِ بأعمَالِكم، وأعمَالُكم هي الّتي تُقدِّمُكم إلى الله. وهذا يكونُ لأبناءِ كلِّ زمانٍ ومكان ﴿جَمِيعاً﴾. دونَ اِسْتِثْنَاء، اعتباراً من أبيكُم آدمَ.

فـ: ﴿إِلَيْهِ﴾. إلى –﴿رَبَّكُمُ اللّهُ﴾:– ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾. فلا أحدَ قط لا يكون ﴿إِلَيْهِ﴾ مَرْجِعُه.

﴿وَعْدَ اللّهِ حَقّاً﴾. جاءَت هذه الجملةُ لزِيادَةِ ترْسيخِ الإيمانِ بهذه الحَقيْقَةِ، وكان يمكنُ لها ألّا تكونَ، لأن عِبارَةَ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾. كافيةٌ لبيانِ هذه الحَقِيْقَةِ. لكنْ أيضاً جاءَت هذه الحَقِيْقَةُ على شكلِ وعْدٍ قَاطِعٍ من اللهِ تعالَى شأْنُه، وكانَ يمكنُ كذلك الاكتِفاءُ بـ: ﴿وَعْدَ اللّهِ﴾. لكنَّه جلَّ شأنُه جعَلَ هذا الوعْدَ ﴿حَقّاً﴾ عليه أيضاً:

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ وقد حَصلَ ﴿إِنَّهُ﴾ أبدأَ ﴿الْخَلْقَ﴾. كما ترَوْن ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾. وسيحصُل أنْ ﴿يُعِيدُهُ﴾. وسترَوْن ذلك كما رأيتُم البَدْءَ.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾. وجاءَ القِسْطُ هنا للدِّقَّة، فهو قسْطُ اللهِ الذي لا شيءَ يضيْعُ عندَه مهما كانَ صغيراً أو كبيراً، مهما تذكَّرَه الإنسانُ، أو مهما نَسِيَه، بل مهما كان يعْلَمُه، أو لَمْ يكُنْ يعلَمُه البتَّة، فهذا هو قسطُ الله الذي يحْفَظُ ويوْصِل حَتَّى مِثْقَالَ الذَّرّة لصاحِبِه.

تسْتأنِفُ الآيَةُ الكَرِيْمَة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. لم يُؤْمنوا بأنَّ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. كما جاءَ في الآيةِ الأولى. و: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. كما جاءَ في الآيةِ الثَّانيةِ و: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾. كمَا جاءَ في الآيةِ الثَّالِثَة. و: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾. مما تقدَّمَ في هذه الآيةِ. الآنَ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾. سائلٌ بدرجةِ حرارةٍ مُرتَفِعَةٍ ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. مُوْجِعٌ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾. عِقاباً على كُفرِهم بآياتِ اللهِ وتمَادِيْهم على شرعِه. فكُلُّ ذلك: ﴿بِمَا﴾. أي بحَصِيلةِ ما اقترَفُوا من انتِهاكَاتٍ مُرَوِّعَةٍ ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ الأنعام ٧٠.

فكما أنَّ المُؤمِنَ يجنِي نِتَاجَ إيمانِه، فالكافرُ يجنِيْ نِتَاجَ كفْرِه، ولا يسْتَوِي المؤمنُ والكَافرُ في قسْطِ اللهِ تعالَى.

والآيـةُ الكريمةُ بمثابةِ البُشرَى، والإنْذارِ. بشُرى لـ ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾. كي يستمرُّوا ويرتَقُوا في درجاتِ إيمانِهم وأعمالِهم الصَّالِحَة.

وإنذارٌ لـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. كي يتراجَعُوا عن الكُفْر، ويَتُوبُوا إلى اللهِ ليدخلُوا مِلَّةَ المُؤمِنين الصَّالِحين. وهذا سَيَقيْهم أن يكونَ ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾البقرة١٦٠.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾النساء١٤٦.

فذلك مُرتَهنٌ بالاستمرارِ في الكُفر والإصرارِ عليه بعنادٍ شديد:

﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾.38

وعلى النَّقيضِ من ذلك، فأيضاً: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾. يمكنُ أن يَزِيغُوا عن الإيمانِ ويبطَرُوا، ويرتَدُّوا إلى الكُفْرِ، أحياناً يكونُ ذلك مظهراً وجَوْهَرَاً، وأحياناً يكونُ جوهراً فقط ويبقى في المَظْهَر مُؤْمِناً. والشَّيْطَانُ الرَّجيمُ كانَ صَالِحاً، لكنَّه فسدَ بعد صلَاحِه. واللهُ عزَّ وجلَّ كما أنه لا يمنعُ الفاسِدَ من الصَّلاحِ في أيِّ عمرٍ كانَ ومهما كانَت درجةُ فسادِه مُتقدِّمَة، كذلك لا يمنعُ الصَّالحَ من الفسادِ في أيِّ عمرٍ مهما كانت درجَةُ صلاحِه مُتقدِّمَةً. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾النساء١٣٧. فكم من تقيٍّ فسَدَ بعد عمرٍ من صلَاحٍ، وكم مِن فاسدٍ اتَّقى بعد عمرٍ من فسَاد. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾آل عمران١٣٥. حتَّى المَلَائكةُ يستَغْفِرُون للتَّائبين: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾غافر٧.

وهنا فإنَّ الكافِرَ التَّائبَ يكونُ عند اللهِ عزَّ وجلَّ، أفضلَ من المؤمنِ المُرتَدّ، وهنا ففي الوجهِ الآخرِ لقراءةِ الآية: ﴿لِيَجْزِيَ﴾. الكافرَ التَّائبَ ﴿بِالْقِسْطِ﴾. والمؤمنُ المُرتَدُّ يكونُ له ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا﴾ كان يكفرُ بعد إيمانِه. فواردٌ تماماً أن يحصلَ تبادلٌ بين أهلِ المَكانَين، فالمؤمنُ الذي له الجنَّةُ، يمكنُ له أن يفْسُقَ فيدخلَ النّارَ، والكافرُ الذي له جهنَّمُ، يمكنَ أن يتوبَ فتكونَ له الجَنَّة.

الباب الخامس
الخَلق الحق

﴿٥﴾

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

الآنَ، ورغمَ كلِّ ما ورَدَ من بيانٍ في الآياتِ الأربعِ السَّابِقَةِ، تأتِي هذه الآيةُ لتبيِّن أكثرَ فأكثر سبيلَ الإيمانِ بالله جلَّت قُدرتُه.

وكلُّ ذلك ليؤمِنَ المزيدُ من أهلِ الكُفْرِ بعد أن تَبْلُغَهم كلُّ هذه التَّفاصِيلِ الدّقيقةِ والبَرَاهينِ الجَلِيَّة، وبذات الوقتِ ليزدادَ المُؤمنون إيمَاناً، ويزْدَادُوا صَلاحَاً، وكذلك لِمَن يكونُ مُتأرجِحَاً بين الإيمانِ والكُفْر، سواء من الكافرين، أو مِنَ المُؤمِنينَ.

فاللهُ الذي تعبدُه بفضلِه علينا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً﴾.

الذي يصنعُ مصباحَاً كهربائياً، ينبهرُ له النَّاس، وهذا المِصْبَاح مهما كان قويَّاً، لا يُضِيءُ أكثرَ من مساحةٍ مُحدّدةٍ من الظَّلامِ.

لكَّن الشَّمْسَ تُقسّمُ الكرةَ الأرضيَّة كلَّها ما بينَ ضياءٍ وظَلامٍ، أمّا ذاك الظَّلامُ فيأتي القمرُ وينِيرُه.

فإمّا ضوءُ الشَّمسِ، وإمّا نورُ القمَرِ، ولضوْءِ الشَّمسِ مزايَاه الخاصّةُ التي يغْتَني بها، كما لنورِ القمر مزايَاه التي يغتنِي بها. ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾نوح١٦.

فالضَّوءُ تنبثقُ منه الحرارةُ وفْقَ درجاتٍ قد تبلغُ مرْحلَةً تُلهِب بعضَ المزْرُوعَات، أو تجعلُ الماءَ يغْلِي، والإنسانُ لا يحتَمِل البقاءَ تحتَ أشِعَّةِ ضوءِ الشَّمس، خاصَّةً في الصَّيف، وبعض مراحِلِ الخريفِ. وأحياناً تكونُ الأشعَّةُ خفيفةً، فيتعرَّضُ لها الإنسانُ ويمكنُ له أن يبقَى ساعاتٍ تحتَ أشعَّتِها الخفيفةِ هذه خاصَّةً في الشَّتاء، وبعضِ أوقاتِ الرّبيعِ. لكنَّ نورَ القمرِ لا يفعلُ هذا في أيِّ مرحلةٍ أو درجةٍ كانَ، فهو يمكنُ أنْ يكونَ ساطِعاً ومنيراً أكثر، أو أقلّ، في بعضِ مَنَازِلِه.

﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾.

قدّرَ القمرَ درجاتٍ ومراحلَ ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾. فمِن المَزايا المُختَلِفة بين الشّمسِ والقمرِ، أن الشّمسَ تطلُعُ كلَّ يومٍ من مَشْرِقِها وتسْتغرِقُ نحوَ ١٢ ساعةٍ ثم تغيبُ، لكنَّ القمرَ عندما يطْلُع، يستغرِق طُلوعُه ٣٠ يوماً كي يغيبَ ويُعاودَ الظُّهورَ من ذاتِ المَطْلَع. وهذا ما يُعرَفُ بالشَّهرِ، فبالشَّمسِ تُعَدُّ الأيَّامُ، وهي أيّامٌ قمرِيّةٌ وفقَ اليومِ الأوّلِ من التَّلْويحَة الأولَى للقمرِ في مَطْلَعِه، وبالقمرِ تُعَدّ الشُّهورُ، وتُعَدّ بهذه الشُّهورِ السَّنواتُ، وبهذه السَّنواتِ القُرُونُ. ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾يس٣٩،٣٨.

بذلك ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾. فتَترَتَّب لكم حِسَاباتُكم الزَّمنيَّة بدقَّة، حتَّى تحسُبُوا بالثَّانيةِ وليس باليومِ أو الشَّهرِ فقط. ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾الأنعام٩٦.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ﴾التوبة٣٦. فكلُّ شيءٍ جاءَ وفْق حِسَابٍ دَقِيْقٍ.

﴿مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾. والحقُّ هو ما ينتَفِعُ به النَّاسُ، بل وكلُّ مخلوقٍ. فالشَّمسُ تُفيدُ المَزْرُوعاتِ وأساسيّاتِ الحياةِ، فالخيرُ هنا يأتي منَ الحَقِّ، والشّمسُ، خيرٌ، كما أنَّ القمرَ خيرٌ. وجاءَت هنا ﴿إِلاَّ﴾ المُستثناة ﴿بِالْحَقِّ﴾. بالغةَ الدقّةِ، وكان يمكنُ القول: ﴿خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ﴾ ﴿بِالْحَقِّ﴾. لكن: ﴿مَا﴾ النّافية ﴿خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾. أي لولا الحقُّ ﴿مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ﴾. لبيانِ أكثر وأكثر أنَّ الحقَّ يتجلَّى في ﴿ذَلِكَ﴾.

والشَّمس والقَمَر يسجُدَان للهِ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾الحج١٨.

ثم اختُتِمَت الآيةُ الكريمةُ: ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

يبيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ البَرَاهينَ حتَّى يعلمَ النَّاسُ هذا الحقَّ ويعمَلُوا به في اسْتِخدامِ هذه المَنَافِع.

الباب السادس
بين آيات الطبيعة والتقوى

﴿٦﴾

﴿إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾

هذه الآيةُ الكريمةُ تُحيلك إلى آياتِ الله في الطَّبيعةِ الّتي تعيشُ فيها، إلى تلّقباتِ ما يحْصُلُ من خلالِ ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ . وأنتَ في سِيَاقٍ اِسْتئنافِيٍّ لِما جاءَ في الآيةِ السَّابقة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً﴾. فطبيعةُ اللَّيل تختلفُ عن طبيعةِ النَّهارِ، ففي اللَّيلِ كما لو أنَّك في عالمٍ آخرَ اعتباراً من أوّل اللّيلِ وإلى آخرِه. وعندما يطْلُع النَّهارُ، تشعرُ بأنك أصبحْتَ كذلك في عالمٍ جديدٍ. فطقوسُ النَّهارِ تختلِفُ عن طُقُوس اللَّيْل، وهذا يجعلُ الإنسانَ أيضاً في حالةِ تَغْيِيرٍ، فهو في اللَّيْلِ، ليس كما هُوَ في النَّهارِ، في الثَّانيةَ عشْرةَ ليلاً، ليس كما هوَ في الثّانيةَ عشْرةَ نهاراً.

وهناك أمورٌ يُساعِد اللَّيلُ على تحقيقها، وأمور يُساعد النهار على تحقيقِها، فأمورٌ تؤدِّيها في النَّهارِ بشكلٍ أفضلَ، وأمورٌ تؤدِّيها في اللَّيلِ بشكلٍ أفضل. بل حتّى بعضُ الأعراضِ الصِّحّيَّةِ التي يتعرَّضُ لها الإنسانُ، فوَتيْرَتُها في اللَّيلِ تختلِفُ عمّا تكونُ عليه في النَّهارِ.

لذلك هناك أمورٌ تفعَلُها في النَّهار، لو كنتَ في اللَّيلِ ما فعلتَها، وأمورٌ تفعلُها في اللَّيل، لو كنتَ في النّهارِ ما فعلتَها. لذلك فإنَّ الأمورَ الإيجابيَّة أقبِلْ عليها سواء أكنتَ في الليلِ، أو فيْ النَّهارِ، لأنَّ إمكانيَّةَ التَّراجُع عنها تكونُ وَارِدَةً إذا تغيَّر الوقت، كذلك فإن الأمورَ السَّلبيّة ترَدّدْ عنها، سواء أكنتَ في الليلِ أو النَّهارِ، لأن إمكانيّةَ التَّراجُعِ عنها كذلك تكونُ وَارِدَةً بتقلُّبِ الوقتِ.

تُخبرُك الآيةَ بأنَّ اللهَ سُبْحانَه وتعالَى أغْنَى حياتَك بهذه الخَاصّية، وتلفِتُ نظرَك للانتباهِ إليها، لأنَّ هذا الانتباهَ بذاتِه يُعَدّ عِبادةً، وعلى قدرِ ما تنتبهُ أكثرَ تتقدَّمُ في درجاتِ التَّقْوَى أكثر، تسبّحُ اللهَ أكثر، تُدرِك غِنَى اللهِ وعَظَمَته أكثر. لذلك اتَّخَذَت الآيةُ من اللَّيلِ والنَّهارِ مثالاً لكلِّ ما يحْصُلُ ليس في الأرضِ فقط بل ﴿وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ .

فكلُّ ما تراهُ وما تُدرِكُه هو آيةٌ من آياتِ الله، وما لا تعلمُه وما لا تُدركُه يفوقُ بكثيرٍ ما تعلمُه وما تُدرِكُه من آياتِ الله. وقد مكَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ الإنسانَ ليطّلِعَ على بعضِ خَصَائِصِ بعضِ الكَوَاكِب، فكانت هناك عجائبُ أذهلَتِ الإنسانَ، ورغمَ كلِّ هذا التَّقدُّم العِلْمِيِّ الذي بلَغَه الإنسانُ، فهو قليلٌ جدّاً قياساً بما لا يعلمُ من علمِ الله تعالَى شأنُه. ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾الإسراء٨٥. وهذا القليلُ ما يزالُ الإنسان يتقدَّمُ فيه، وما يزالُ يُذهِلُه من عقدٍ إلى عقدٍ، ومن قرنٍ إلى آخرَ، ولا ينتهي هذا القليلُ، فينهَلُ الإنسانُ القليلَ من القليلِ، وهو في ذروةِ كمَالِه يكون قد بلغَ ذروةَ قلّتِه.

على هذا النَّحْو تتَكامَلُ كلماتُ الآيةِ بعضُها ببعضٍ لتُشكّلَ وحدةً مُتعَاضِدَة مُتَنَاغِمَة:

﴿إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. ثم: ﴿وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. ما يمكنُكَ أن تراه رأْيَ العَين من خَلقِ الله، إضافةً إلى رؤيَتك ﴿اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. عند ذاك ستؤْمِنُ بِما لا تراه أيضاً رأْيَ العينِ، فتؤمِنُ به وتوْقِنُ به بالحَدْسِ دون أن تراه. فوضعَتْك الآيةُ أمامَ ما تراه بعينَيك، وأمامَ ما لا ترَاه، وهنا سوفَ تؤمِنُ بِما لا تراه عيناك حَدسَاً بمقدارِ ما تراهُ عينَاك رأْيَاً في عمليَّةٍ مُتَوَازِيَةٍ. فتؤمنُ بالملائكَةِ، بالجِنِّ، بالجَنَّة، بالنَّارِ، وما إلى ذلك على قاعدةِ إيمانِك حَدْسَاً بالله أولاً، ثم إيمانِك بِما تراه، وما لا ترَاه مِمّا أخبرَك اللهُ أنَّه حقٌّ. فالإيمانُ هو حَدْسٌ، يتحقّقُ من خلال ما هو مَرئي في هذه العلاقَةِ التَّكَامُليَّة بين ما هو مَرْئِيٌّ، وما هو غيرُ مَرْئِيٍّ، فتتجلَّى عظَمَةُ ما هو غيرُ مَرْئِيٍّ من خلالِ خَلْقِه المَرئِيِّ. فجاءَت كلمةُ الخلْق دقيقةً: ﴿وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. بعطفٍ على: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. فـ ﴿اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. هو مِـ ﴿مَا خَلَقَ اللّهُ﴾. و ﴿إِنَّ فِي﴾، ذلك كلّه: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾. أي ستتجلَّى لك هذه الآياتُ، وتتفاعَلُ مع هذه الحَقائقِ المَرئيّة وغيرِ المرئيّةِ على قدرِ ما تكونُ على تقوَى.

الباب السابع
متاهة الغفلة

﴿٧﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾

اختُتِمَت الآيةُ السَّابقَةُ بالمُتّقِين، وابتُدِئَتْ هذه الآيةُ بغير المُتّقِين. فإذا كان المُتّقُون يتّعظُون بآياتِ الله، فإن غير المُتّقِين لا يتّعظون بها، واستناداً إلى ذلك: ﴿لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا﴾ . أي ﴿لاَ﴾ يؤمِنُون بالآخرةِ ﴿وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا﴾. اقتصرَ رجَاؤُهم ﴿بِالْحَياةِ الدُّنْيَا﴾ فحسب. ﴿وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾. لبِثُوا على ما هُم عليه من الرِّضى ﴿بِهَا﴾. دون أي رجاءٍ بالآخرة. فهم بذلك لا يحْسبُون للقاءِ اللهِ حساباً، ولا يعِدُّون العمَلَ لهذا اللِّقاء. ﴿وَ﴾– من أرضيّةِ هذه الغفلة–: ﴿رَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾. طُمَأنينةَ الكُفر السَّلبيَّة. ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾البقرة١٧ .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾الفرقان٢١ .

فمُنْكِرو البعْثِ هؤلاء: دُنَيويّون، مادِّيّون، لا يؤمِنُون سوى ﴿بِالْحَياةِ الدُّنْيَا﴾. وما ذلك إلَّا لغَفْلَتِهم عن آياتِ اللهِ.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾الأعراف١٧٩ .

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾الأعراف١٩٨ .

الباب الثامن
كَسبُ السوء

﴿٨﴾

﴿أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾

﴿أُوْلَـئِكَ﴾ المَذكُورُون بأوصافِهم في الآيةِ السَّابقةِ، وهم: ﴿الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾. الآنَ ونتيجةَ ما كانُوا عليه من ضَلَالٍ وانْتهاكَاتٍ لحدودِ اللهِ: ﴿مَأْوَاهُمُ﴾. المَأْوَى هو المَوْضِع الذي يَأْوِي إليه الإنسانُ، ويُؤْويه، فيكونُ له مأوىً. فـ ﴿أُوْلَـئِكَ﴾ في الآخرة ﴿مَأْوَاهُمُ النُّارُ﴾. يَأْوون إليها وتأويهم وتُؤْويهم وتكونُ لهم مأوىً.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾. ﴿بِ﴾ حصيْلةَ أعمالِهم المُشِيْنةِ التي اِقتَرَفُوها في الدُّنيا، وهو يومُ الحصَائلِ الكُبرى حيث يجدُ كل امرِئٍ حصيلَتَه. فهم الذين أَوَوا بأنفسِهم إلى النَّارِ وجعلُوا النَّارَ لهم مأوىً ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ يُكثِرُون من كَسْبِ السَّيِّئاتِ.

وهذه الآيةُ الكريمةُ هي بمثابةِ الإنْذَارِ بِما سيحْصَل لمُكْتَسِبي الأعمالِ السَّيّئة حتّى يُقلِعُوا عنهم، ويستغفِرُوا اللهَ ويَتُوبُوا إليه، ويُصْلِحُوا من شأنِهم، ويُكثرُوا من العملِ الصَّالحِ، لأنَّ ذلك كلَّه لم يحصُلْ لهم بعدُ، ولكنَّه سيحصُلُ إذا أصرُّوا على الاسْتهزاءِ بآياتِ اللهِ واستمرُّوا في ذلك بعنادٍ شديدٍ.

الباب التاسع
ثمرات الإيمان

﴿٩﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ بآياتِ اللهِ في القِرْآن، وفي الطَّبيعَةِ. ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾. فَعَّلُوا إيمانَهم بأعمالٍ صالِحَة.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾. يُبارِكُ لهم إيمانَهم ويرشِدُهم لأبوابِ الإكْثَار من صالِحَاتِ الأعْمالِ.

جاءَ باءُ المؤمنينَ هنا ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾، نظيرَ باءِ الكَافِرِين في الآيَةِ السَّابقَة ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

وشتّانَ بين باءِ الإيمانِ، وباءِ الكُفر، باء الصَّلاحِ، وباء الفَسَاد.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ*مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ القلم٣٦، ٣٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾. هذا وعدٌ من اللهِ تعالَى ذكْرُه، واستئنافٌ جميلٌ لِما جاءَ في الآيةِ الرَّابعةِ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾. الآن وبوعدٍ على وعد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾. فالإيمانُ هو أساسُ صلاحِ الإنسَانِ، وأساسُ هدايةِ اللهِ سبحانَه وتعالَى للمؤمنِ كي تُصْبِحَ حياتُه غنيَّةً بأعمالٍ صالِحَة. وكما جاءَت حصيلَةُ الفاسِدِين في الآيةِ السَّابقة، الآنَ حَصِيلةُ الصَّالِحِين: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

جاءَت ﴿الأَنْهَارُ﴾ جَمْعَاً وفي ذلك بيانٌ بكثرةِ تنوُّعِ أصنافِ ما يسْتَمْتِع الإنسانُ ويَسْتلذُّ بشرْبِه، وليسَ الأمرُ كما يرِدُ الجَمعُ في أنهارِ الدُّنيا، فهو بيانٌ بالكثرَةِ عدداً، والحَقِيْقَةُ هي كلُّها نهرٌ واحدٌ لأنه صنفٌ واحدٌ وهو الماءُ، فكلُّ أنهارِ الدُّنيا هي أنهارُ ماءٍ فقط.

هنا الجَمعُ يشيرُ إلى تنوّعِ أصنافِ هذه ﴿الأَنْهَارُ﴾. ومن هذا التَّنوع: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾محمد١٥.

إذن: ﴿تَجْرِي مِن تحتِ مساكنِهم التي يَسْكُنُونَها ﴿الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. كذلك ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. جاءَت جَمعاً وفي ذلك بيانٌ بكثرةِ أصنافِ ﴿النَّعِيمِ﴾.

فهي ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. فكلُّ ما فيها نعيمٌ في نعيمٍ، ولا يلقَى فيها الإنسانُ لحظةَ شقاءٍ واحدةٍ، نعيمٌ خالِصٌ مُتكامِل أعدَّه اللهُ لعبادِه الصَّالِحين ﴿خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ﴾ آل عمران١٩٨. ﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾النساء٥٧.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾الرعد٣٥.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾الحج٢٣.

فلا يمكنُ للخَبِيثِ أن يكونَ كالطّيّبِ عندَ الله، ولا للطيّبِ أن يكون كالخَبيثِ: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾المائدة١٠٠.

عن النَّبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: " يلقى المؤمنُ عملَه في أحسنِ صورةٍ فيُؤنِسُه ويهديه، ويتلقَّى الكافرُ عملَه في أقبحِ صورةٍ فيُوْحشه ويضلُّه".

الباب العاشر
تعظيم اللّه عزَّ وجلَّ

﴿ ١٠ ﴾

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

بعدَ أن يرَوا هذا النَّعيمَ ويسْتَمتِعُوا به: ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ لسانُ حالِهم، عمّا يشعرُون به و ﴿هُمْ فِيهَا﴾ في نعيم الجنة: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾. تعظيمٌ للهِ عزَّ وجلَّ، وهم يرَوْن بأنه حقّقَ وعدَه لهم، وأعطَاهم زيادةً عن اِسْتِحْقَاقهم، وعفَاهم من عقوباتٍ عن ذنوبٍ كانُوا قد اِرْتكَبُوها، وليس هذا فحسْب، بل أحالَها لهم إلى حسناتٍ، لأنهم نَدِمُوا عن تلك الذُّنوبِ، وتابُوا وأصلَحُوا. فهنا، يُسبِّحُون اللهَ سبحانَه وتَعَالَى ويُمجِّدُونَه.

عن طلحة بن عبيدِ الله: (قلت يا رسول اللهِ ما معنى سبحان الله؟ فقال: "معناها تنزيهاً للهِ من السّوء").

إذن فهذا عدلُك ﴿اللَّهُمَّ﴾. فعندمَا ترى شيئاً يحصلُ بمُعجزَة، تقولُ: سبحان اللهِ. أي سبحانَ تحقيقِ عدلِ اللهِ الذي هو حقٌّ وعدل.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾. المكانُ الذي يكونُون فيه، يُحقّقُ لهم سلامَاً داخليَّاً، فأهلُ الجَنَّةِ هم إنْسٌ مُسالِمُون، يعيشُون حالةَ سلامٍ حَقِيقيّة، وهم يُحبّون بعضَهم بعضاً بهذه المَشاعرِ السِّلميّة الطَّيّبة، ولا يوجدُ لدى أحدٍ منهم أي غلٍّ تَجاه أحد.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ الأعراف ٤٣ .

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ الحجر ٤٧ .

فعدمُ الغِلِّ من نِعَم اللهِ الكُبرى على الإنسانِ، وعدم الغِلِّ عِبادةٌ. والإنسانُ من خلال عدمِ الغِلِّ في الدُّنيا، يرْتقِي في درجاتِ القُرب من اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يمكنُ له أن يسْتَوِيَ مع الإنسانِ الحقودِ الغَلُولِ.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الحشر ١٠.

وممّا يُرْوى عن رجلٍ صالحٍ بشَّرَه النبيُّ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّمَ أنه من أهلِ الجنة، قال هذا الرَّجُلُ للنَّاس: (والله إني لأصلّي كما تُصلّون، ولكني أبيت وما في قلبي غل لأحد). فالمسلمُ الحَقيقيُّ هو الذي يكونُ في حالة سِلميّة مُتَقدِّمَة بينَه وبين الآخرين، وهو كثيرُ العفوِ والتَّسامُحِ عمّا يبدر من الآخرين تجاهَه، فيكونُ مُسلِماً على قدر ما يرسِّخُ الإسلامُ حالةَ السِّلمِ لديه، وعلى قدرِ ارْتِقَائه في درجَاتِ السِّلم، يكونُ اِرْتقَاْؤه في درجاتِ الإسلامِ. والإسلامُ هنا ينقِّي المُسْلِم وينزِعُ من قلبِه شوكةَ سوءِ الظَّنِ ويستبدلُها له بوردةِ حُسن الظّن. وهنا حتّى لو أساءَ إليه شخصٌ، فإنَّه لا يحمِلُ غلاًّ تَجاهه، بل يعفو عنه، ويسألُ اللهَ له الهدايةَ. فهو إنسانٌ متسامحٌ بامتيازٍ على قدر حالة التَّسالُمِ الكُبرى التي يتمتَّعُ بها.

وهذا ما تبيّنه الآيةُ الكريمةُ لنا: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾. هؤلاء الذين كانُوا في الدُّنيا أيضاً أنقياءَ مُسالِمين، ولم يكونوا أهلَ غلٍّ أو حقدٍ أو ضَغِينة، وقد سنّوا سُنناً طيّبةً في حياتِهم، أخلَصُوا في مِهَنِهم، أوْفُوا بوعودِهم، صدَقُوا القولَ، كرَّمُوا ضُيوفَهم، أعانُوا على النَّوائبِ، أماطُوا الأذى عن الطُّرقاتِ، أحسَنُوا حَتَّى إلى الحَيوان، والنَّباتِ، والجمادِ. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾. فلا أحدَ يحقِدُ على أحدٍ، ولا أحدَ لا يحبُّ أحداً في الجنّةِ، و السَّلام من أسماءِ اللهِ الحُسنى، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. الحشر ٢٣. والسلام من أسماء الجنة ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. الأنعام١٢٧.

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾. ما تزالُ الآيةُ الكريمةُ تنقلُ لنا دقّةَ ما يشعرُ به المُؤمنُون وهم ينعمُون في نعيمِ الجنّة. مع هذه الجملة الأخيرةِ من الآيَةِ الكريمةِ، يسْتَشْعِرُون شعوراً نفسيّاً بأن ذلك كلَّه قد تحقَّقَ لهم بفضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وقد تفضّلَ عليهم بأن غفرَ لهم ذنوبَهم واستبدلَها لهم بحسناتٍ جزاءَ توبتِهم وصلاحِهم، ثم تفضَّلَ عليهم بأن أدخلَهم الجنّة، فهم في ذروةِ تمتّعهم بهذا النَّعيمِ يحمدُون اللهَ على ما تفضَّلَ به عليهم:

﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. حمدٌ حقيقيٌ نابعٌ مِن أعماقِهم: ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. على كلّ ما أكرَمَنا به وتفضَّلَ به علينا، ولولا فضلُه علينا لكُنّا من الضَّالّين. يعبِّرُون عن شكرِهم للهِ عزَّ وجلَّ ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

والتَّكريم الإلهيُّ للإنسانِ الصَّالحِ لا يقتصِرُ على الآخرةِ فحسب، بل يكون في الدُّنياً أيضاً:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ النحل٩٧.

الباب الحادي عشر
متاهة العَمَه

﴿ ١١ ﴾

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

وقعت هذه الآيةُ في شطرَين، وكل شطرٍ في جملتَين. الجملةُ الأولى من الشَّطر الأول: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾. والجملةُ الثَّانيةُ: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾. والجملةُ الأولى من الشَّطر الثّاني: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا﴾. والجملةُ الثانيةُ: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. هكذا تناغَمَت جُمَل الشطرَين مع بعضها بعضاً وتكامَلَ بعَضُها ببعضٍ.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾.

عندما يُريدُ الإنسانُ أن يفعلَ شرّاً بحق نفسِه، أو بحقِّ الآخرين، فإن اللهَ سبحانَه وتَعَالَى لا يأذنُ أن يحصلَ ذلك بعُجَالة، لعلّ هذا الإنسانَ يتراجَعُ عن القُدومِ إلى هذا الشَّرّ.

وفي ذلك نفعٌ للطرَفَين، للأوّل الذي وقاهُ اللهُ من ارتكابِ الشَّرِ، وللثَّانِي الذي وقاه اللهُ من وقوعِ فعلِ الشّرِّ عليه.

وفي ذلك إشارةٌ بأن اللهَ أنجاكَ من محاولاتٍ كثيرةٍ أُحِيكَت لإلحاقِ أفد الأضرارِ بك، لكنَّ اللهَ سبحانَه وتَعَالَى كان يُحبِطها. ومِن هذه المُحاولاتِ، ما علِمتها سواء في حينِها، أو بعدَ حينٍ، ومنها ما لمْ تعلَمْها.

الآيةُ هنا تنبيهيّةٌ وتحْذِيريّةٌ، تنبِّهُكَ بأن تكونَ يقِظاً لأنَّ ما لم يصِبْكَ لمراتٍ عديدةٍ، لعلّه يصيبُكَ في مرةٍ ما إذا لبثتَ في غفلَتِكَ.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾. بمعنى: لا: ﴿يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾. وهي لا عُجالة، وليسَت إلغاءً لوقوعِ الفعل إذا تكرَّر، فهي إتاحةٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ كي يتراجع مَن أقبلَ على الاعتداءِ، وكي يحذرَ مَن أنجاهُ اللهُ من وقوعِ الاعتداءِ عليه، وتكرارُ إحباطِ ذلك بالنِّسبَة

للطرفَين المرةَ تلوَ المرة، يكون لغاية الإصلاحِ للأولِ، والتَّنْبيه للثّاني. لكن إذا ما اتَعظَا، يكون الإمهالُ قد بلغَ نهايتَه بالنّسبة لكليهما، أو بالنِّسْبَةِ لأحدهما، فقد يتّعِظ أحدُهما سواء أكانَ الأوّلَ أو الثّاني، لكن الذي لا يتّعظُ يتحقُّق فعل الشرِّ سواء بالنِّسْبَة له، أو بالنِّسْبَةِ عليه. فدوماً للشرِّ إشاراتٌ، والآيةُ تنبّهكَ بألّا تكونَ مُغفّلاً في حياتِك، بل يَقِظاً ومُتَحسِّساً لِما يدورُ من حولِك.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾الحج ٤٦ .

فأي إنسانٍ شرّيرٍ توجدُ فيه علاماتٌ يمكنُ لك أن تكتشفَها بشيءٍ من اليَقظَة، وقد متّعَ اللهُ الإنسانَ بحدسٍ يمكنُ من خلاله أن يتحسّسَ الصَّوابَ من الخطأ، إذا تمعَّنَ في الأمرِ جيّداً.

عن وابصة بن معبدٍ رضيَ الله عنه أن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ قال له: "جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ نَعَمْ فَجَمَعَ أَنَامِلَهُ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِنَّ فِي صَدْرِي وَيَقُولُ يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ".[١]

عن أبي ثعلبةَ الخشني رضيَ اللهُ عنه قال : قال رسول الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ"[٢].

والمؤمنُ حتَّى لو أخطأَ نتيجةَ حُسن نيّة، أو غفلةٍ، فإنه يتّعظ، وفي ذلك جاء

عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه عن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "لا يُلدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرتَين".[٣] وهذا توافقٌ جميلٌ لِما جاء في الآية، فقد أنجاه الله من الأذى، لكن عليه ألّا يستمرَّ في غفلتِه، فقد لا ينجِيه إذا لبِثَ لا مُبالياً. وهذا يأتي على كلِّ شيء، فالخَطرُ الذي يكونُ في بيتك، ونجوتَ منه، عليك أن تُصلحَه، الشَّخصُ الذي رأيتَ منه غدراً، عليك أن تحتاطَ منه،

[١] رواه أحمد

[٢] رواه أحمد

[٣] صحيح البخاري

بل حَتَّى سلوكٌ سلبيٌّ تتّبعه في حياتِك، وتلقَى منه الأذى، عليك أن تُقلِعَ عنه لأنه بغتةً قد يودِي بك، ولم تعدْ تجدُ فرصةً للإمهال لأن الله أمهلَك إمهالاً على إمهالٍ ولم تتّعظْ.

ثم استأنفَ الشَّطر بجملته الأولى: ﴿اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾.

فإذا كان ذلك يحصلُ بالنِّسْبَة للشرّ، فإن عكسَه يحصلُ بالنِّسْبَةِ للخير. أي عندما يَقدِم الإنسانُ على فعل خيرٍ، فإن الله ييسّرُه له، فيكونُ النفعُ لفاعل الخَير، ولِمُتلّقي الخيرِ معاً. وعلى سبيل المِثال، فإذا دعَت أمٌّ على ولدِها بالشر، وأمٌ أخرى دعَت على ولدِها بالخيرِ في نفسِ الوقتِ، فإن دّعاء الخير يُقبَل قبل دُعاء الشَّرِّ، وقبول دُعاء الشَّرِّ لا يسبِقُ قبولَ دُعاء الخير.

لذلك: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ . أتَت الجملةُ الثّانيةُ للشطرِ غايةً في البيان: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾. أي: ﴿وَلَوْ﴾. حصلَ ذلك لَما بقي النَّاسُ على وجه الأرضِ.

فـ: ﴿وَلَوْ﴾ حصلَ ذلك لأفْنَى النَّاسُ بعضَهم بعضاً. ولذلك فإن الخيرَ في الأرضِ هو أكثرُ من الشَّرِّ، وأن الذين يُعمّرون الأرضَ هم أكثرُ من الذين يُدمِّرُونها، والأيدي التي تزرعُ الطَّعامَ للنَّاسِ هي أكثرُ من الأيدي التي تزرعُ الألغامَ في دروبِهم.

ثم جاءَ الشطرُ الثّاني بجملَتيه: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

ما عِلاقةُ هذا الكلامِ في هذا الشطرِ بِما وردَ في الشطر الأول بجملَتيه كذلك؟

العِلاقة هي تكامُليّة. فهؤلاء ﴿الَّذِينَ لاَ﴾ يتَّعِظون عند الاستعجالِ، و﴿لاَ﴾ يغتَنِمُونَه للتَّراجُعِ عَمّا هم فيه من طُغيانٍ على أساسِ أنّهم ﴿لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا﴾.

﴿لاَ﴾ أملَ لديهم بأنهم سيرجِعُون إلى الله يومَ الحِساب. ﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ الأنعام٢٩.

لذلك يزدادُون طُغياناً على أملِ اعتقادِهم بعدم الحِساب، وأن كلَّ شيء يكونُ فقط في الدُّنيا.

وهنا بيانٌ بأن الإنسانَ لا تصلُحُ حياتُه بأيّ حالٍ من الأحوال دون إيمانِه بيوم الحِساب، لأنه سيُصبِح كائناً دنيوياً جَلفَاً، لا تشغَلُه سوى حياتِه الدنيا، ويكون مُستعدَّاً لارتكابِ أيِّ انتهاكٍ في سبيل مآربِه الدنيويّة، لكن الإيمانَ بالثَّوابِ والعِقاب، يحثُّ الإنسانَ كي يكونَ صالِحاً، ويرتدعَ عن الفَساد.

إذن: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. وهذا تكاملٌ مع جملتَي الشَّطرِ الأول: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾. والذَر هنا بمعنى

التَّرك والإمهالِ ليرجِعَ مَن يَرجعُ، ويزدادَ طُغياناً مَن يزدادُ، لذلك فإننا نرى بأن اللهَ جلّ شأنه يتركُ الطغاةَ دون أن يعجِّل عِقابَهم، ومن خلال هذا التّركِ إمّا يتراجعُون، وإمّا يزدادُون طغياناً في فترة التّركِ هذه التي هي في حقيقتها إمهالٌ من الله عزَّ وجلَّ، وأن اللهَ عزَّ وجلَّ لا يرضَى بالطغيان، لكن النَّاس يطغَون، فيتيحُ لهم اللهُ هذه المسَاحةَ الزمنيّةَ لتظهرَ معادِنُ النَّاسِ على حَقَائِقها. وهذه حقائقُ بيّنَها القرآنُ، فرَأيْنا كيف أنَّ اللهَ أمهلَ فِرعَونَ على سبيلِ المثال، وكذلك سائرَ الطُّغاةِ والمُفْسِدين، سواء أفراداً أو جماعات، والعِقابُ لا يكون في الآخرة فقط، بل يلقى الظالمُ عِقابَه في الدنيا كذلك، وينتهي نهايةً ذَلِيْلَة، فلا تُتَوَّج حياةُ الظَّالمِ بالبطولةِ، بل بالخِزْيِ. وهذا أيضاً نراهُ في الواقعِ الذي نعيشُ فيه وفقَ مُختلَفِ مُستوياتِ النَّاس.

﴿فَنَذَرُ﴾. هنا تحذيرٌ، كقوله:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾ الأنعام ٣١.

فليسَت المُعْضلةُ أننا نُخطِئ، فجميعُنا نُخطِئ وفْقَ مُسْتوياتٍ ودرجاتْ، لكنَّ المُعْضلةَ تكْمنُ في الإصرارِ على الخطأ وعدمِ التراجُعِ عنه بعنادٍ شديد، عندها: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. تبيِّن الآيةُ الكريمة الوضعَ النَّفسيَّ للإنسانِ الذي ينحرِفُ عن حدودِ اللهِ، ويطْغَى، فهو يعيشُ تحت سطْوَة العَمَهِ، فيشعرِ بأنه دائمُ الرَّكْضِ دون أن ينعمَ بلحظاتِ الاستِقرارِ الاِسْترخَائيَّةِ حَتَّى وهو في فراشِ النوم، هذه النعمةُ التي يسْتكينُ المؤمنُ في دوحَتِها حَتَّى لو كان في واقعٍ مُضطَرِب. يكون محروماً من نعمةِ صفَاءِ الذِّهنِ، حَتَّى في لحظات نهوضِه صباحَاً من النَّوم، هذه النِّعْمةُ التي يَرْفلُ بها المؤمنُ حتَّى لو لم يكنْ قد نامَ ليومين نتيجةَ ظرفٍ ما.

فدوماً يكونُ الإمهالُ فرصةً ثمينةً للتَّراجُعِ عن الفسادِ فيُسْتثنَى المُذنبُ من العِقابِ سواء في الدُّنيا، أو الآخرة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران ١٣٥

وبذلك: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. فهؤلاء لم يغتنمُوا فرصَ الإمهالِ، واستكبرُوا، فيكونُ تركُهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. عِقاباً دُنيويَّاً لهم، لأنهم يعيشُون تحتَ سطوةِ الكوابيس، والفَزَعِ في أوقاتٍ متأخّرةٍ من الليل، والشَّتَات الذِّهْنيِّ، والاضطرابِ النَّفسيّ، فيتجرّعون عَلْقمَ طُغيانِهم، ثم ينْتَهون نهاياتٍ مُخزِيَة.

﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ البقرة ١٦١.

هذا كلُّه بمثابةِ التَّحذيرِ كي ينتبهَ الإنسانُ، ويتراجعَ عن الاِنتِهاكَاتِ سواء بحقِّ نفسِه، أو بحقِّ الآخرينَ، أن يقعدَ إلى القرآنِ ويقرَأه فينشرِحَ صدرُه بكلماتِ اللهِ، هذه الكلماتُ التي تنزع أيَّ طغيانٍ مهما كان مُترسِّخاً، تعيدُ صفاءَ الذهنِ، مهما كان مُضْطَرِباً، تفرِّج أي كربٍ مهما كانَ كبيراً، تنَفِّسُ أيّ همٍّ مهما كان مُسْتَفْحِلاً. فكم هو شقيٌّ ذاك الذي يكون بعيداً عن القرآنِ، لأن بُعدَه عن القُرآن هو بذاتِ الوقتِ بعدٌ له عن اللهِ سبحانَه وتَعَاْلَى، عن ربِّه الذي لديه كلُّ ما يحتاجُه، لديه كلُّ ما يراهُ مُسْتَحيلاً. فبين ليلةٍ وضُحاها يمكنُ لربِّ العالمين أن يَقلِبَ كلَّ شيءٍ على عقبٍ، يرى السّجينُ المُؤبَّد نفسَه حرّاً طلُيقاً، ويرى سجَّانه قد أُوْدِع السِّجنَ، بل يرى حاكمَ البلادِ قد أُوْدِع السِّجنَ. أجلْ حاكمُ البلادِ الذي كان لغاية البارحةِ يملكُ قصوراً يسْرَحُ ويمرَحُ بها، الآن أصبحَ في غرفة انْفِرَادِيَّة في السِّجنِ مساحتُها تكادُ تضيقُ على جسدِه. والذي كان يأمرُ شعباً بأكمله فيُستَجَاب له، صارَ يخبّطُ على بابِ زِنْزَانتِه كي يحصلَ على كأسِ ماء ساخنٍ في عزِّ الصَّيفِ. فهذا الشَّخصُ عندما كانَ في ذروة تَمَكُّنِه، كانَ في ذورةِ طغيانه وبطْشِه، وهذا هو وعدُ اللهِ لكلِّ طاغيةٍ، لكلِّ ظالمٍ، لكل مُنْتَهِكٍ. أجل فإن كلَّ شيءٍ يمكنُ له أن ينقلِبَ رأساً على عقبٍ، فلا يأسَ مع الإيمانِ مهما بدتِ الظُّرُوفُ قاسيةً، وقد عانى حَتَّى الرُسُلُ القسوةَ، بل ومنهم كانت القسوةُ التي تلقّاها أكثرَ شدّة، ولذلك سُمُّوا بأُولِي العزمِ ولكن لم يَيْئسُوا فنصرَهم اللهُ.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الأحقاف ٣٥. نعم، آمنَّا بوعدِ الله: لا ﴿يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

إذن هناك شرطٌ حَتَّى يحصلَ ذلك، وهذا الشَّرطُ موجودٌ في الشطرِ الأول من الآيةِ، وهو ألّا يتّعظَ هذا الشخص بِما يحصلُ معه، أو مع غيرِه، ويستمرّ في الطُّغيان.

الآن، جاءَت النتيجةُ في الشطرِ الثاني: ﴿فَنَذَرُ﴾. فندَعُ ﴿الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا﴾. بعد كلِّ فرصِ الإمهالِ تلك ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. ما داموا بكلِّ ذاك العِنادِ والإصرارِ على الطُّغيانِ. والكلمةُ الأخيرةُ من الآيةِ تُذكِّر أيضاً بالعمى، أي يتركُهم الله في عَمَى طغيانِهم، في ظلمةِ طغيانِهم، لأن الإنسانَ في الظلمة يكونُ أعمَى. وكما أن النورَ مُؤْنسٌ، فإن الظلامَ مُوْحشٌ، وهو نورُ الإيمانِ، وهو ظلامُ الكفرِ، وشتّانَ بين نورِ الإيمانِ، وظلام الكُفر، شتّانَ بين مَن يعيشُ في أُنسِ نور الإيمان، ومَن يعيشُ في وَحْشَة ظلامِ الكفرِ.

وقد وجِدتُ هذه الكلمةُ سبعَ مرات في القرآن، تم ذكرُها بدقّةٍ في الجُمَل القرآنيَّة السَّبْع: ﴿اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ البقرة١٥.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الأنعام١١٠.

﴿مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الأعراف١٨٦.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الحجر٧٢.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ المؤمنون٧٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ النمل٤.

بيَّنَت الآياتُ الغفْلةَ التي يعيشُها الإنسان الذي يكونُ في عَمَهٍ من أمره.

الآن: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. شقاءٌ ما بعده شقاءٌ عندما يبلُغُ الإنسانُ مَرْحلةً من العِنادِ يدعُه اللهُ فيها يعمَه في طُغيَانِه.

الباب الثاني عشر
الإسراف المُزيَّن

﴿١٢﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

كلمةُ المَسِّ، تُذكِّر بالحِسِّ، أي تحسَّسَ وقْعَ ﴿الضُّرُّ﴾ عليه، يَلْبَثُ مُتَوَسِّلاً إلى اللهِ في مُخْتَلَفِ حالاتِه، إن كان مُسْتلقِياً ﴿لِجَنبِهِ﴾ اليمينِ أو ﴿لِجَنبِهِ﴾ اليسارِ ﴿أَوْ قَاعِداً﴾ بأي شكلٍ من أشكال القُعُودِ، ﴿أَوْ قَآئِماً﴾، بأي شكلٍ من أشكالِ الوقوفِ على قدَمَيه.

إذن، المسُّ هو الاحتِكاكُ المُباشَر الذي يترك أثرَه على الفوْرِ، ومن ذلك ما يحصُلُ في الحوادثِ، أو الكَوَارِث، حيثُ يتَعَرَّضُ الإنسانُ للأذى البَدَنِيِّ بشكلٍ فوريٍّ، وبمُسْتويات مُختَلِفةٍ أو عندما يدْهَمُه مرضٌ فيطرَحُه أرضاً. ويمكنُ أن يكونَ ﴿الضُّرُّ﴾ مُقتصِراً على المُمْتَلكاتِ، فيُصابُ الإنسانُ بخسائرَ فادِحةٍ في عملِه، أو تحترقُ مُمْتلكاتُه، أو يتعَرَّضُ للسَّرِقةِ، وما إلى ذلك من أشْكالٍ وألْوَانٍ وتفرُّعَاتِ ﴿الضُّرُّ﴾ الّتي يمكنُ لها أن تمَسَّه بشكلٍ مُفاجِئٍ.

هنا، أوّلُ ما يفعلُه هو أن يلجَأَ إلى اللهِ القادرِ على كشْفِ هذا ﴿الضُّرُّ﴾ عنه.

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ﴾، على الفَورِ وبشكلٍ مُباشَرٍ: ﴿دَعَانَا﴾.

وكلمةُ ﴿دَعَانَا﴾. تتضمَّنُ تَبِعاتِها المُضْمَرَةَ، بمعنى اِسْتنجَدَ بنا، واسْتَغاثَ بنا لنكشِفَ عنه ما تَسبَّبَ به لنفسِه من ﴿الضُّرُّ﴾. وهو مُؤمنٌ بأنَّنا قادِرُون على ذلك.

ثمَّ ذكَرَ الحقُّ سبحانَه وتعالَى ثلاثةَ مَوَاضِع في هذا السِّيَاقِ، بدأ بالأصعَبِ ﴿لِجَنبِهِ﴾. أي لم يعُدْ قادراً لا على القيامِ، ولا حتَّى على القُعُودِ. فقد أصبحَ طَرِيحَ الفِرَاشِ تحتَ وَطْأَةِ ﴿الضُّرُّ﴾. الّذي أصابَه وأنْهَكَ قُوَاهُ، سواء نتيجةَ مرَضٍ، أو عمَلٍ جِرَاحِيٍّ، أو حادِثٍ، أو كَارِثَةٍ. كما لو أنَّه لم يكُنْ ذلك الشَّخصَ الذي كانَ يَصُولُ ويَجُولُ ويجرِي كالحِصَانِ، يُؤذِي هذا ويُلحِق الأَذَى

بذاك، ويعتدي على أموَالِ هذا، وعلى أعرَاضِ ذاك. فالآنَ عندما يقعُ ﴿الضُّرُّ﴾. تَتَداعَى كلُّ تلك الصُّورِ في مُخيِّلَتِك، وفي مُخَيّلاتِ النَّاسِ من حولِك. فتُذكّرُكَ الآيةُ وتُحذِّرُك قبلَ أن يقعَ ﴿الضُّرُّ﴾ عليك، وأنتَ في كاملِ لَيَاقتِك وحَيَويَتِك ونشاطِك، بأنْ تَغْتَنمَ كلَّ طاقةٍ فيك وتُسخِّرَها لطاعةِ اللهِ، تُقْبِل على أعمالِ الخيْرِ لوجْهِ اللهِ تعالَى، فكلُّ خُطوَاتِك كانَتْ خطوَاتِ خيرٍ، كلُّ سَاعَاتِك كانت ساعاتِ نفْعٍ، كلُّ أيَّامِك كانَت أيَّامَ صَلاحٍ، كلُّ طاقتِك الّتي أنعَمَ بها اللهُ عليكَ كنْتَ تَغْتَنمُها في سبيْلِ إرْضَاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، كنتَ في حالةِ خوفٍ وتحسُّبٍ ليومٍ كهذا، لمصيبةٍ كهذه، فلم تُبْطِرْكَ لَيَاقَةُ البَدَنِ، لم تُبْطِرْكَ الإمْكاناتُ المَادِّيَّة والمَعْنَويّة التي أتَاحَها اللهُ لك، فكنْتَ وقَّافاً عندَ حُدُودِه، تخْشَاهُ، تحْسِبُ له حَسَاباً، وقد جنَّبَكَ ذلك كلُّه الطُّغيانَ والبَطْشَ والتَّمَادِي.

الآنَ، وقعتِ المُصِيبَةُ، ومهما كانتْ درجتُها، فإنَّ اللهَ يُكرِمُك، يعِزُّك حتّى وأنتَ في ذُرْوَةِ مُصِيْبَتِك، الآن ينظُرُ اللهُ إلى كل ما كنتَ عليه مِنْ صلَاحٍ، من اِسْتقَامَةٍ، من سُنَنٍ طيّبةٍ سَنَنْتَها. الآن تنظرُ إلى تاريخِك، وينظرُ مَن حولك إلى تاريخِك، وقد مسَّك ﴿الضُّرُّ﴾. هنا يُزِيدُكَ ﴿الضُّرُّ﴾ صلاحَاً على صلاحٍ، اسْتِقامَةً على اسْتِقامَةٍ. الآيةُ هنا تَتَنَاوَلُ هذه المَسْألةَ في الإنسانِ، سَوَاء أكانَ صالِحَاً، أو كانَ فاسِدَاً، فحتَّى لو كانَ فاسِدَاً، فيمكنُ له أن يتَّعِظَ ويُصْلَحَ عندما يصيبُه ﴿الضُّرُّ﴾، بمُخْتَلَفِ أشكالِه وتفرُّعَاتِه ومُسْتَوياتِه. لكنَّ الطَّامَةَ تكمُنُ عندما لا يتَّعِظُ، ويعودُ إلى ما كانَ عليه من فُجُوْرٍ بعدَ أنْ يسْتجِيبَ اللهُ لدعائِه ويكشِفَ عنه ﴿الضُّرُّ﴾.

﴿أَوْ قَاعِداً﴾. وهو ﴿الضُّرُّ﴾ المتوَسِّطُ الذي يجعَلُ الإنسانَ قادراً على القُعُودِ سواء على الأرضِ بشكلٍ طبيعيٍّ، أو مُتَّكِئاً بعضَ الشَّيءِ، أو على كُرْسِيٍّ، أو سريرٍ، بسببِ عدمِ قدرتِه على الجلوسِ الطَّبيعيِّ على الأرضِ. والقعودُ هنا يجوزُ أن يكونَ نفسيَّاً أيضاً، ويكونُ سليمَ البدنِ، فيُصابُ بداءٍ نفسيٍّ يجعلُه قاعِداً في البيتِ، ومُتقاعِداً عن عملِه ونشاطِه.

﴿أَوْ قَآئِماً﴾. هنا قد يكونُ ﴿الضُّرُّ﴾ أخفَّ وطْأَةً، فيجْسُرُ على الوقوفِ، أو المَشْيِ سواء بنفسِه، أو بمساعدةِ أحدٍ، أو بالاتِّكاءِ على عَصَاً. ويجوزُ أيضاً أن يكونَ مُعافَىً تماماً بجسَدِه، ويكونُ ﴿الضُّرُّ﴾ قد أُلْحِقَ بأموالِه، ويبقى ﴿قَآئِماً﴾ على قدَمَيه يقومُ بإدارَةِ أعمالِه وشؤونِه من المَشْيِ، والحَرَاكِ، والذَّهابِ، والإيَابِ، وهو بكامِلِ لَيَاقتِه البَدَنيَّة، ولعلَّ ﴿الضُّرُّ﴾ هنا أيضاً مُسْتَوَيَاتٌ، فقد يكتفِي بِما يملِكُ، وقد يتجاوَزُ ذلك فيُصبحُ مَدْيوناً يُلاحِقُه الدَّائِنُون، ويُصبحُون

مَصْدَرَ إزعَاجٍ له يُعكِّرُون عليه حياتَه حيثُ يطْرُقُون عليه بابَ بيتِه أو يُهَاتِفُونَه في مُخْتلَفِ الأوْقَاتِ، أو يُرْسِلُون إليه النَّاسَ، أو يَسْتَدْعُونَه إلى القَضَاءِ، أو يُوْدِعُونَه في السِّجنِ، وهو الّذي كانَ في أوْجِ غِنَاه وبَحْبُوْحَتِه المَادِّيَّة، هو الذي كان يرْكَبُ سيَّارةً حديثَةً، ويسكُنُ بيتاً فخْماً، في حيٍّ رَاقٍ، فلم يعُدْ يجِدُ درَّاجَةً ليركَبَها، وقد أخذَ الدَّائِنونَ حتَّى بيتَه، والمقتنياتِ الثَّمينةَ من بيتِه، ولم يترُكُوا له سوى بعضِ المُسْتلزَمَاتِ المَنْزليَّة البسيطةِ، وقد انتهَى بالسَّكنِ في بيْتٍ مُتَواضِعٍ بالأُجرَة، في ضاحِيَةٍ مُتَواضِعَةٍ بخدَماتِها. فهذا قد أصَابَه ﴿الضُّرُّ﴾ لكنَّه ما يزالُ بعافيتِه ﴿قَآئِماً﴾ على قدَمَيه.

فالإنسانُ من خلالِ هذه النَّماذِجِ الثَّلاثةِ الّتي ذكَرَتْها الآيةُ الكريمةُ، يتضرَّعُ إلى اللهِ حَتَّى يُغِيْثَه، وتُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ بأنَّ الله سُبْحَانَه وَتَعَالَى يسْتجيبُ للإنسانِ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾. أي أمسَى ﴿الضُّرُّ﴾ في خبرِ كانَ، كما لو أنَّه لم يكُنْ بفضلِ الله تَعَالَى.

الآن ما الذي يحصُلُ لهذا الإنسانِ؟

تقولُ الآيةُ: ﴿مَرَّ﴾. كلمةُ ﴿مَرَّ﴾، هنا وإنْ كانَت بحرفَين فقط، إلّا أنَّها تغْتَنِي وتطْفَحُ بسَعَةِ المَعَانِي. فهي عبورُ الشَّيءِ وتركُه، وهي الابتعادُ عمّا تم العبُورُ عنه، وهي نسيانُ ما تمَّ العبُورُ عنه، و﴿مَرَّ﴾، أي مضَى مُسْرِعَاً، وتطلبُ من شخصٍ أن يمرَّ عليك، أي يأتيك ولو مُروراً عابرَاً بشكلٍ سريْعٍ.

إذن: ﴿مَرَّ﴾. نسِيَ كلَّ شيءٍ، و﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾. ﴿مَرّ﴾ كما لو أنَّه لم يكن ذاك المُتضَرِّر الذي دعَانا ﴿إِلَى﴾ بشأنِ ﴿ضُرٍّ﴾ أذىً ﴿مَّسَّهُ﴾. غدا على مِسَاسٍ مُباشَرٍ به. أي كما لو أنَّه هو الذي كشَفَ عن نفسِه هذا ﴿الضُّرُّ﴾. ولا يذكُرُ بأنه توسَّلَ إلى اللهِ، وأنَّ اللهَ هو الذي كشفَ ﴿عَنْهُ ضُرَّهُ﴾.

فهذا هو الجُحُودُ، حيثُ يجْحَدُ الإنسانُ فضلَ اللهِ عليه، فيذكُرُه في الضِّيْقِ، ولا يشكُرُه في الفَرَجِ. عن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْه عن النّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "تعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة"[1].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْه عن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرَبِ، فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ"[1].

---

[1] رواه أحمد

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَّمَهَا هَذَا الدُّعَاءَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا"[٢].

وعن أمِّ سَلمَة عن النَّبيّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "صَنائِعُ المعروفِ تَقِي مَصارِعَ السُّوءِ، والصَّدقةُ خُفيًا تُطفِئُ غضَبَ الرَّبِّ، وصِلةُ الرَّحِمِ زيادةٌ في العُمُرِ، وكلُّ مَعروفٍ صَدَقةٌ، وأهلُ المعروفِ في الدُّنيا هُمْ أهلُ المعروفِ في الآخِرَةِ، وأهْلُ المُنكَرِ في الدُّنيا هُمْ أهلُ المُنكَرِ في الآخِرَةِ"[٣].

ثم أتَت خَاتمَةُ الآيةِ الكريمةِ كبيانٍ توضِيحِيٍّ، وكتنبيهٍ في الآنِ ذاتِه: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. فالمقصودُ بالإنسانِ، هو الإنسانُ الذي ينْحَرِف من عن عمومِ النَّاسِ إلى الإسرَافِ، لأنَّ الآيةَ في مبْدَئِها لم توضِّحْ، بل بدا الخِطابُ عامَّاً وشامِلاً: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ﴾. إذن أيُّ إنسانٍ، لكن هل فعلاً أن الإنسانَ يكونُ ناكِراً بهذا النَّحْو: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾. لم تنتَهِ الآيةُ هنا، بل تكلَّلَت بخَاتمَةٍ بالغةِ الدِّقّةِ: ﴿كَذَلِكَ﴾. أي على النَّحوِ الذي ذكَرَتْه الآيةُ: ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾. فقط ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾. من بنِيْ الإنسانِ، فهمُ الذين لديهم أرضِيّةٌ لهذا الإنكَارِ، فهؤلاءُ هم المَقْصُودُون بـ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾.

ثم ببيانٍ أكثرَ وبالكلمةِ الأُولَى من جملةِ التَّخصيصِ: ﴿كَذَلِكَ﴾. على هذا النحو المُبيَّنِ في الآية: زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. فالإنكارُ هو منهجٌ ينْتَهِجه البعضُ، وهو منهجٌ مُزيَّنٌ، يُقبِلُ عليه الذين وصَفَتْهم الآيةُ بالإسرافِ. والإسرافُ هو إفراطٌ من جهةٍ، ومُبالغَةٌ منْ جهةٍ أخرى. أي يُسرِفُ المُذنِبُ ويُبالِغ في ارتكابِ الذُّنوْبِ دون رادِعٍ.

---

[١] رواه الترمذي

[٢] رواه أحمد

[٣] أخرجه الطبراني

﴿زُيِّنَ﴾. أي وفْق ﴿كَذَلِكَ﴾: ﴿زُيِّنَ﴾. فالاسْتِمرارُ في مُمَارسَةِ الأخطاءِ، يجعلُها تُصبِحُ مُزيَّنَةً بالنِّسبةِ لمُرتَكِبِها، فتُصبح تُغْوِيه، حتَّى يبلُغَ هذا الإنسانُ مرحلةً لا يسْتمتِعُ فيها بالحَلالِ، بل بالحَرَامِ، لا يجِدُ نكهةً في الحَلَال، بل في الحَرَامْ، وهذا يمكنُ له أن يُقاسَ على كلِّ شيءٍ، مثلَ العَلاقةِ الجِنْسيَّة التي يجْنَحُ فيها هذا الشَّخصُ إلى الزِّنَى، فهناك تكونُ العمليَّةُ مُزيَّنَةً له، وبالنّسبةِ لزوجتِه تكونُ العمليّةُ باردةً. فيتركُ عُشَّه الآمنَ الهادِئَ الطَّيِّب، ويُخاطِرُ بنفسِه ذاهباً إلى عُشٍّ مُضْطرِبٍ خبيثٍ. فيخرُج من القصرِ الآمنِ، ذاهبَاً إلى الوكْرِ المَحْفُوفِ بالمَخَاطِر، وما ذلك إلَّا لأنّه من كُثْر دابه دَأبِه إلى على الوكْرِ، أصبحَ الوِكْرُ مُزيَّناً له، من كُثرِ دَأبه على الزِّنَى، أمسَت المرأةُ الزَّانيَةُ مُزيَّنَةً له. ويكونُ الأمرُ أيضاً بالنِّسْبَة للكَسْبِ الحَلَالِ والكسْبِ الحَرامِ، فهو لا يَسْتَلِذُّ بالكسْبِ الحلالِ، وعلى قدْرِ ما يكسِبُ بالحرامِ أكثرَ، يشعرُ بالظَّفَرِ أكثر، فيغشُّ في كل ما يمْكنُ أن يغشَّ فيه حَتَّى يُحصِّلَ المالَ الحرامَ، مثل أن يحْتَكِرَ، يحلِفَ كذباً، يُرَابِي، يُوْشِي، يُقدِّم عملاً رَدِيئاً، يبيعَ بِضَاعَةً فاسِدَةً، فأينما وجَدَ كسْباً حراماً، تركَ الحلالَ وهرَعَ إليه. وهكذا فإنَّ الآيةَ الكريمةَ تُقدِّم شرحَاً نفسيَّاً بالغَ الدِّقّةِ لتفاصيلِ شخصيَّةِ هذا الإنسانِ المُتهَزة، من خلالِ كلماتِها الدَّقيقةِ، المُكَثَّفةِ المعاني.

الآن لننظرْ إلى جمالِ هذه الآيةِ مَظهَراً وجَوْهَرَاً، ونتذوّقْ عسلَ قراءَتها مرةً أخرى بفضلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. فعلى النَّقِيضِ من ذلك تماماً تكونُ شخصيّةُ الإنسانِ غيرِ المُسرِفِ الذي لا يُنمِّي الانحرَافَ في سُلوكِه، فيشْمَئِزُّ من مجرَّدِ نظرةِ حرامٍ إلى امرأةٍ، بل يغُضُّ الطَّرْفَ، ينفُرُ من أيِّ مالٍ حرامٍ يقرَبُه مهما كانَ كبيراً أو صغيراً، فيُسرِع ويُعيدُه إلى صاحبِه إن كانَ قد وصلَه نتيجةَ خطأٍ ما. فيبتعِدُ عن مَوَاطِنِ الانتهاكاتِ لحدودِ اللهِ، ويحرِصُ أن يكونَ بعيداً عنها ما أمْكَنْ. عن النُّعمان بن بشير قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ يَقُولُ، وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ: "إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً،

إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"[١]. وهكذا يكونُ الحلالُ مُزيَّناً له، يسعَى إلى علاقةٍ شرعِيَّةٍ مع المرأةِ، يسعَى إلى الكسْبِ الحَلَال، وما إلى ذلك. فإذا كانَ الجُحُودُ يُؤَدِّي بالإنسانِ إلى الإسرافِ، فإن الإقْرَارَ بفضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ يفعلُ العكسَ، فيتراجَعُ مِن الإسرافِ، إلى الاِعتِدالِ، من الجُحُودِ إلى الشُّكْر. الآيةُ الكريمةُ في هذا المقامِ، هي بمثابة الإِتَاحَة لهذا التَّراجُعِ الجَمِيلِ.

---

[١] صحيح مسلم

الباب الثالث عشر
جزاء الإصرار على الظلم

﴿١٣﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾

في الآيةِ السَّابقَة، بيَّنَ اللهُ الحالةَ، وفي هذه الآيةِ يبيِّنُ العِقابَ المُترَتِّبَ على الحالةِ، وذلك للحثِّ على التراجع وعدم الإصرار عليها.

جاءَت هنا كلمةُ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾. لتؤكّدَ بأن الهدايةَ مُبيَّنَةٌ، والضَّلالَ مُبَيَّنٌ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾. أي بالبراهينِ والثُّبُوتيَّات على أرضِ الواقعِ.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. عندما عانَدَ الظَّالِمُونَ في ﴿الْقُرُونَ﴾ الماضيةِ التي كانَت ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾. واسْتَكْبرُوا ولم يَتُوبُوا، لم نتركْهم دون عِقابٍ، بل عاقبْنَاهم ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾. أنفسَهم بالكُفْر، وظَلمُوا غيرَهم. فاللهُ عزَّ وجلَّ لا يُعاقِبُ إلَّا إذا أقدَمَ الإنسانُ على الظُّلْمِ، وأصرَّ عليه. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. متى؟ ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾. فكانَ الهلاكُ نتيجةَ العِنادِ والإصرارِ على الظُّلْمِ، وليسَ نتيجةَ الظُّلْمِ ذاتِه، فقد يظلِمُ الإنسانُ، لكنَّه يمكنُ أن يتراجَعَ. وهؤلاءِ كانُوا ظالمِين، ولم يعاقبْهم اللهُ، بل أَرْسَل لهم الرُّسُلَ، كي يتركُوا الظُّلمَ، والدَّليلُ أن الذين تركُوا الظُّلمَ بالفعلِ من هؤلاء، وآمنُوا بالرُّسُل، اِسْتَثْناهُم اللهُ من العِقابِ العامِّ الذي وقعَ. وكلمةُ ﴿الْقُرُونَ﴾ تشيرُ إلى سعَةِ رُقْعَةِ العِقَابِ وعُمُوميَّته، والنَّاجُون يكونُون قلَّةً.

﴿وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾. لكنْ قبلَ أن نُعاقِبَهم، أرْسَلْنا إليهم رُسُلاً منهم حملُوا إليهم البراهينَ والأدِلّةَ التي بيّنَتْ لهم الظُّلمَ من العدلِ، الخيرَ من الشَّرِّ، ودَعُوهم إلى التَّراجُعِ عمّا هم فيه من ضَلالٍ. ﴿وَ﴾ لكنْ ﴿مَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾. أصرُّوا بعِنادٍ على ظلْمِهم، واسْتَهْزَؤوا برُسُلِهم وأنكَرُوا البيِّناتِ التي ﴿جَاءتْهُمْ﴾ بها ﴿رُسُلُهُم﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾. مثل أولئك الذين ﴿أَهْلَكْنَا﴾. من ظالِمِي ﴿الْقُرُونَ﴾ السَّابقَة لكم: ﴿نَجْزِي﴾ نهْلِكُ ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

جاءَت كلمةُ الهلاكِ دقيقةً جدَّاً، فالإنسانُ عندما يجرِي كثيراً، فإنَّه يُصابُ بالهلاكِ وتتقطَّعُ أنفاسُه.

من هنا يتبيَّنُ لنا بأن المُجْرِم يكونُ في هلاكٍ دائمٍ في حياتِه، والمُجْرِمُ في الآيةِ الكريمةِ هو الذي لا يكونُ وقَّافاً عند حدودِ اللهِ، بل يكون مُتجاوِزاً لها. وتبيِّن الآيةُ بأنَّ الظُّلمَ هو نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لعدمِ الإيمانِ. فهؤلاء كما أخبَرَتِ الآيةُ: ظَلَمُواْ﴾. أي كانوا في ظلمٍ نتيجةَ عدم الإيمانِ، كذلك وحَتَّى بعد أن ثم ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾. حَتَّى بعد أن ﴿جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾. حيثُ أصَرُّوا على ضلالِهم، فكانَ العِقابُ. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾. في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

الباب الرابع عشر
خلاصة العمل

﴿١٤﴾

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

﴿ثُمَّ﴾ بعدَ هلاكِ الظَّالِمين: ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ أنتم أبناءُ كلِّ حاضرٍ في كلِّ حاضرٍ
﴿خَلاَئِفَ﴾ لأولئك من بعدِهم ﴿فِي الأَرْضِ﴾. ﴿مِن بَعْدِ﴾ هلاك ﴿هِم﴾.
الآن وقد ملَّكْنَاكُمُوها وأصبحتُم ملّاكِيها ﴿مِن بَعْدِهِم﴾ فهل ستتَّبعُون منهجَ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾. الهالِكين، وتَحْذُونَ حَذْوَهم في الظُّلمِ والبَطْشِ؟ أم أنَّكم ستتَّعِظُون ممَّا أصابَهم من هلاكٍ وتصلِحُون لتكونُوا أفضلَ منهم، وتكونُون جَدِيرين بِنِعَمِ اللهِ عليكم؟
فجاءَت خاتمةُ الآيةِ الكريمةِ مفتوحةً لأبناءِ كلِّ زمانٍ ومكانٍ: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.
فهنا يكونُ عملُكَ هو الفاصِلَ، وعملكَ هو أنتَ، وهو الذي يُقدِّمك إلى اللهِ. فليس: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. بل إلى ما ﴿تَعْمَلُونَ﴾. فإذنْ، خلقَكَ اللهُ للعملِ، وهو ينظرُ إليك كيفَ تعملُ، هل تُحسِن العملَ، هل تسِيْء العملَ، هل أنتَ عاطلٌ عن العملِ ومُتَكَاسِلٌ ومُتَخَاذِلٌ، هل أنتَ نَشِطٌ؟ ثمَّ ما هي مُستَوَياتُ جُوْدةِ عملِك؟ هل هي رديئةٌ، أو لا بأسَ بها، أم جيّدةٌ، أم مُمْتازة؟ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ هود٧.
فدوماً عليكَ أن تُدرِكَ بأنَّ اللهَ تباركَ وتَعَالَى دائمُ النَّظرِ إلى ما تعملُ، إلى مُستوَى عملِك، إلى مَدَى إخلاصِك وجُهْدِك في العملِ. وهذا يشمَلُ كلَّ أصْنافِ العملِ التي ينْتَفِعُ بها النَّاسُ. ففي كل عملٍ تقومُ به تذكَّرْ نظرَ اللهِ إليك، وهذا ما يُصلِحُك، فتتجنَّبُ الغِشَّ، تتجنَّبُ الاحتكارَ، تتجنَّبُ الرِّيَاءَ، تتجنَّبُ التَّسرُّعَ، وتكونُ شديدَ الحِرْصِ على جودَةِ عملِك لأنه يحصلُ تحت نظَرِ اللهِ، فأنتَ تُتقدَّمُ بهذا العملِ إلى اللهِ، وهو رصيدُك عندَ اللهِ. وفي الآخرةِ يُعرَفُ النَّاس بأعمالِهم، ودرجاتُ الجنة تكونُ وفْقَ درجاتِ أعمالِ النَّاس، وهناك أبوابٌ في الجَنَّة مخصّصَةٌ لأُناسٍ دون غيرِهم، فلا يدْخُلُها غيرُهم، ولا يظْفَرُ بالنَّعِيمِ الذي أعدَّه اللهُ خلفَ تلك الأبوابِ إلَّا هذه الفئةُ

التي عُرِفَت بهذه الأعمالِ، وتقدَّمَت في درجاتِ هذه الأعمالِ: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾النساء ١١٤

﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التوبة١٠٥ . والعملُ مفتوحٌ لا يقتصِرُ على لونٍ واحدٍ، فكلُّ إخلاصٍ في العملِ في سبيلِ اللهِ هو عِبادةٌ. والقرآنُ الكريمُ في غالبيَّته يدعو إلى هذه الأعمالِ، مثلَ: الصِّدْقِ، والأمَانَةِ، والعَفَاف، والعَدْل، وبِرِّ الوالدَين، والعملِ، والإنْفَاق، والعلمِ، والتَّسَامُح، وما إلى ذلك.

عن النّبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أولها شهادة ألا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق". عن عائشة رَضِيَ اللّهُ عَنْها عن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُم عَمَلًا أَن يُتقِنَهُ"[1].

عن جابرٍ عن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "مِن أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقرَبِكُم مِنِّي مَجلِسًا يَوْمَ الْقِيامَةِ: أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبعَدَكُمْ مِنِّي مَجلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيهِقُونَ"[2].

وعنه: "حَتَّى اللقمةُ يضعُها الرَّجلُ في فِيْ زوجته يكسبُ بها أجراً".

وعنه: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم".

وعنه: " ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق".

وعنه: " إنما بعثت لأتممة مكارم الأخلاق".

جاء عن علي رضي الله عنه وهو يصف النبي صلى الله عليه وسلم (كان أجود الناس كفاً، وأرحب الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه).

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. أي يرى اللهُ عزَّ وجلَّ، كلَّ عملٍ تعمَلُونَه صغيراً كان أم كبيراً، طَيّباً كان أم خبيثاً، في جميعِ الأوقاتِ، وحيثُما كنتُم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

---

[1] أخرجه أبو يعلى

[2] رواه الترمذي

الباب الخامس عشر
المعصيةُ تعاقِب مُقترفها

﴿١٥﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

ما تزالُ الآياتُ تَتعاضَدُ مع بعضِها البعضِ لترسِيْخِ مَضْمونِ السِّيَاقِ أكثرَ وأكثر، فيبقى بمثابةِ العَمُود الفقريِّ للسُّورة، هذا المضمونُ الذي يتناوَلُ أهمّيةَ حاجةِ الإنسانِ إلى التَّشريْعِ الإلهيِّ، وأنَّ اللهَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى قد لبَّى هذه الحاجةَ لتحسينِ حياةِ الإنسانِ.

والإنسانُ الذي يتجاهَلُ هذا التَّشريعَ، فإنَّه يحرِمُ نفسَه من خيرٍ كثيرٍ أَوّلاً، ثم إنَّه يتجاوَزُ على حُقُوقِ نفسِه عليه، وحقوقِ الآخرينَ عليه. وهنا يأتي العِقَاب الإلهيُّ ردّاً على الإصرارِ على انتهاكِ حُدوْدِ اللهِ بعنادْ دونَ تَرَاجُعٍ، وردعاً له.

والعِقابُ يكونُ في الدُّنيا قبلَ الآخِرةِ، والإنسانُ المُتَجَاوِزُ المُصرُّ على تَجَاوُزِه، لا بدَّ له أن يلقَى العِقابَ قبلَ أنْ يموتَ. وعلى الأغلبِ فإن العِقابَ يكونُ من جنْسِ التَّجاوُزِ، وهذا ما يتجلَّى لنا إذا نظرْنَا إلى أشكالِ العِقابِ التي كانَتْ من جنْسِ أشكالِ المَعَاصِي، فلم يكُنْ هناك شكلٌ واحِدٌ من العِقابِ، بل أشكالٌ، نظِيرَ أجْنَاسِ المَعاصِي. ويبقَى هذا مُستَمِرّاً بشكلٍ فرديٍّ كانَ، أو جمَاعِيٍّ. فعلى سبيلِ المِثالِ ترَى التَّاجرَ الذي يرفَعُ أسعارَه دونَ وجهِ حقٍّ، أو يحْتكِرُ فيحرِمُ فئاتٍ كثيرةً من الشّراءِ نتيجةَ الغلاءِ، أو الاِحْتكَارِ، يُعاقِبُه اللهُ بحِرْمَانِه كذلك من أصنافٍ كثيرةٍ من الطَّعامِ، ليس لأنَّه لا يملِكُها، بل لمنعِه طِيِّبَاً منها، وعلى الأغلبِ تكونِ الأصنافَ التي يحبُّها، مثلاً يحرِمُه من تنَاوُلِ الحَلْوى، أو اللَّحمِ، أو المُكَسَّرَاتِ، أو الفاكهةِ، وما إلى ذلك.

لكنَّ الأمرَ الهام في الآيةِ الكريمةِ، هو أنَّ التَّوبةَ تبقَى من حقِّ الإنسانِ، وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أتاحَ له التَّوبةَ وجعلَها حقّاً له مهما بلغَتْ به الذُّنوبُ. والنَّبيُّ يونُس عليه السَّلامُ الذي سُمّيَت هذه السُّورة

باسمِه، رغمَ أنَّه نبيُّ اللهِ، إلّا أنه تصرَّفَ تصرُّفاً شخصيّاً دون إذنٍ من اللهِ، عندما تخلَّى عن مُهمَّة النُّبوّةِ التي كلّفَه اللهُ بها نتيجةَ يأسِه من صلاحِ قومه الذين أرْسَلَه اللهُ لهدايَتِهم، وقد ترسَّخُوا في الآثَامِ. لكنْ هلْ هذا كلُّ شيءٍ، وهل لمجرّدِ أن يُخطِئَ الإنسانُ في موقفٍ ما، أو بردِّ فعلٍ ما، يحسِمُ اللهُ الأمرَ معه ولا يتقبَّلُ منه أيَّ رجوعٍ؟ والنَّبيُّ يونس هنا لم يخرجْ عن الإيمانِ، بل لَبثَ في صلاحِه، وقد تابَ إلى اللهِ عمّا قد بدرَ منه، وقد تقبَّلَ منه اللهُ كما لو أنَّ شيئاً لم يكُنْ، وقد أكْرمَه اللهُ دون أن يُخرِجَه من النّبوّةِ.

وكما أنَّ اللهَ قد غَفرَ له، فقد غفرَ لقومِه أيضاً عندما تابُوا بعد تركِه لهم، ورغمَ كلِّ ما كانُوا عليه مِنْ كَبَائرَ.

وتبقى التَّوبةُ مُتاحَةً لجميعِ النَّاسِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وبمُخْتَلَفِ مُسْتَويَاتِهم وأعمارِهم، ومُختلَفِ أشكالِ وألوانِ المَعَاصِي. فما هو مهم ألّا يُصرَّ الإنسانُ على المَعَاصِي، أو الاسْتهزَاءِ بآياتِ اللهِ، بل ينتبِهَ ويُنِيْبَ إلى اللهِ، ويعترِفَ بأنه كاَن على خطأٍ فادحٍ، وأنَّه ندِمَ كلَّ النَّدَمِ، ويسْأل اللهَ العفوَ والمغْفِرةَ، وكانَ من أَعْمِدة صحابَةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ كفّارٌ، وقد حارَبُوه، بل منهم مَن كانُوا في جيوش حارَبَته صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ. لكنَّ ذلك لم يكُنْ كلَّ شيءٍ، وتركَ اللهُ التَّوبةَ حَقّاً لهم، فتابُوا وقَبِلَهم النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ. وبذلك فإنَّ الإنسانَ هو ابنُ يومِه، سواء أكان كافراً وتابَ، أو مُؤمِناً وكَفرَ. وقد حصلَتِ الخَطِيئةُ حَتَّى من أبِ البشَرِ، ومن أمِّهم، لكنهما لم يُصرَّا على الخَطِيئةِ، بل نَدِمَا، وأصْلَحَا.

فالتُّوبةُ ترفعُ عن كاهلِ الإنسانِ كلَّ دَوَاعِي القُنُوطِ واليْأسِ، وتجعَلُه مُمْتلِئاً بالأملِ، وليس المُهِمُّ أنه أخْطَأَ، بل المُهِمُّ أنه لم يُعانِد ولم يُصرَّ على الخَطأ. فمهما تراكَمَت عليه الأخطاءُ، فإنَّ اللهَ عزّ وجلَّ لا يحْرِمُه من فرصةِ التَّوبةِ والرُّجُوعِ إلى الحَقِّ.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر ٥٣.

على هذه الإشْرَاقَاتِ الإيمَانيَّة، تستمِرُّ سورةُ يونس آيةً فآية، وكلُّ آيةٍ تشرقُ بالجديدِ الذي لم يكُنْ في غيرِها، وتُدْهِشُكَ بما لم تُدهِشْكَ غيرُها، تشمُّ منها عطراً لم تشمَّه من غيرِها.

وهكذا تسْتأنِفُ القراءةَ بتشويقٍ، وأنتَ ترى كيف أنَّ هذه الآياتِ تتّسعُ لتشملَ سائرَ مُقوِّماتِ حياتِك، وعَلاقاتِك، وتفكيرِك، وأُمْنياتِك.

فتبثُّ إشْرَاقَةَ الأملِ إلى صدرِك، وهي تضعُ لك منْهجَ حياةٍ جديدةٍ بَهيَّةٍ كنتَ غافِلاً عنها. فتمضِي في حديقةِ السُّورةِ لتتحوّلَ كلُّ آيةٍ إلى شجرةٍ يانعَةٍ تقطِفُ منها ثماراً لم تذُقْها ولم تعرِفْها من قبلُ.

إذن، فهي تمتلِكُ مقدرةً لتجعلَ الحياةَ أكثرَ جمالاً وأكثرَ رَوْنقاً أمامَ بصرِك، وبصيْرَتِك، وتجعَلك تُقْبِلُ عليها بنشاطٍ أكثر، بحيويَّةٍ أكثر. ومهما بلغَ بك اليأسُ، فهي ترفَعُ من مَعنويَّاتِك، وتسْتبدِلُ يأسكَ أملاً. لذلك، تركِّزُ السُّورةُ بدقَّةٍ على المَحرُومين من هذا الجمالِ، فتبيِّنُ لهم آيةً تلْوَ آيةٍ، حقوقَهم المَشْروعَة حَتَّى يخرجُوا من ظُلُماتِ أرْواحِهم، ويظْفَرُوا بها.

وإلى جانبِ ذلك تكشِفُ السُّورةُ عن نفسيَّاتِ ومَعادِنِ المُسْتَكْبِرِيْن، المُتَعَجْرِفين، المُسْتَهْزِئين، فلا تملكُ إلَّا أن تُشْفِقَ بهم، رغم كلِّ ما يبْدُرُ منهم من طغيانٍ وفْقَ مُسْتويَاتِ تَمَكُّنِهم، ومَقْدرتِهم. فلا يتركُون مُوْبِقَةً إلَّا ويَرْتَكِبُونَها في فلتانٍ أخلاقيٍّ وقيَمِيٍّ، و ينْتَهكُون حَتَّى مُحرَّمَاتِهم، وينتَهُون نهاياتٍ مُذلَّة. هكذا عندما يعيشُ الإنسانُ بلا إيمانٍ، أو بإيمانٍ مُزدَوَج، ينْفَلِتُ من كلِّ خُصْلَةٍ إنسانيَّةٍ فيه، فيُعاقِبُه اِنْفِلاتُه.

تبدأُ آيةُ اللهِ الكريمةِ هذه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾. هذا هو العِنادُ الشَّديد المُتَرسِّخ لدى البعضِ، وهو عينُ الاِسْتِكْبَارِ الشَّديدِ. وهذا ما كان يُوَاجَهُ به رسولُ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ وجهاً لوجهٍ. ورغمَ ذلك لبِثَ يدعُوهم إلى جمالِ الإيمان، ليُخرجَهم من قبحِ الكُفرِ. ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا﴾. دعْكَ من هذا القرآنِ، وأَخْفِه، و ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ﴾ آخرَ مُختلِفٍ عنه. ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾. هذا خيارُنا الثَّاني لك، بأن تُبدِّل فيه وفقَما نتّفقُ معك على مواضِعِ التَّبديلِ. لننظرْ كيفَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ يرشِدُ رسولَه بجوابٍ طيّبٍ ليّنٍ وواقعيٍّ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء يا محمّد ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي﴾ . لستُ أنا الذي أتيتُ به حَتَّى أمتلكَ صلاحيّةَ تبديلِه.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾. أنا ناقلُ الوحْيِ فقط، أنقلُ لكم ما أتلقَّاهُ مِنَ اللهِ، ولا كلِمَة وَاحِدَة لي في هذا الوَحْي حَتَّى أُبدّلَها.

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾. واسْتجبْتُ لكم وبدّلتُ كلماتِه وجعلتُها وفقمَا تُريدُون: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. بسببِ عدمِ صَوْنِي للوَحْيِ. فلا تطلبُوا مني شيئاً ليسَ ﴿لِي أَنْ﴾ أتصرَّفَ به ﴿مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾.

الباب السادس عشر
الاحتكام إلى العقل

﴿١٦﴾

﴿قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

اِسْتئنافاً لسياقِ الآيةِ السَّابقة، الآن: ﴿قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾. فليس فقط: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. بل حَتَّى تلاوتُه عليكُم ليسَت ﴿مِن تِلْقَاء نَفْسِي﴾. وهذا الكلامُ الذي أردُّ به عليكُم هو ليس منّي، بل هو منَ اللهِ إليكُم على لسانِي، ولا كلمة واحدة فيه مني. فهذه مَشِيْئةُ اللهِ، وأنا أنفّذُ ما يأمرُني به اللهُ. والحَقِيْقَةُ: ﴿لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾. ما أنزلَ هذا القرآن، وما جعلَني رسولاً لتحسينِ حياتِكم نحوَ الأفضل، وإنقاذِكم من ظلمةِ الكُفْر، إلى منارةِ الإيمانِ. فهذه أيضاً مشيئةُ اللهِ وليس لي أن أتلوَه ﴿مِن تِلْقَاء نَفْسِي﴾. حَتَّى وقد أنزلَ عليَّ، فقد أُمِرتُ بتلاوتِه ﴿عَلَيْكُمْ﴾. لأنَّه رسالةُ الله إليكم وأنا أتلُوْ هذه الرِّسالةَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾. فـ: ﴿لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ﴾. هنا يبيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ فضلَه الكبيرَ على النَّاسِ من خلالِ هذا القرآنِ العظيمِ، فلنتصوّرْ حياةً دون قرآنٍ، ولنتصوّرْ حياةً خاليةً من كلِّ ما رسّخَه القرآنُ من قِيَمٍ، ومَبَادِئَ، وعدلٍ، وفَضِيلةٍ، وتوْحيدٍ، حياةٌ ما كانَ فيها محمّد صلى الله عليه وسلّم، وما كان فيها كلُّ أولئك الصَّحابة الكِرام. فهل لو تركَ اللهُ النَّاسَ في جاهليَّتهم، وشرْكِهم، وعبوديَّتهم، ووَأْدِهم للبناتِ، وانْتهَاكَاتِهم بحقوقِ بعضِهم البعضِ، أفضل، أمْ كلُّ هذه المَنْظُومَة الحَيَاتيَّة الجديدةِ التي أرْسَاها القرآنُ، انقلاباً على المَنْظُومَة الجاهليَّةِ التي كانَ يعيشُ الإنسانُ وفقَها. هل الإنسانُ الّذي يؤمِنُ بوجودِ اللهِ، سعيدٌ وفاضلٌ، أم الإنسانُ المُنكِرُ، هل الإنسانُ الذي يؤمِنُ بوَحْدَانيَّةِ اللهِ سعيدٌ وفاضلٌ، أم الذي يجعلُ له شُرَكَاءَ في الأُلُوهيَّة. وهذه من الأسئلةُ الكُبرى التي تُتِيحُها هذه الآيةُ الكريمةِ، والتي تمسُّ تفاصيلَ وَقائعِ حياتِنا يوماً وبيومٍ، وساعةً بساعةٍ.

لنقرأْ بغصَّةٍ: ﴿لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ﴾. هذا الكلامُ موجَّه إلينا جميعاً، إلى أبناءِ كلِّ زمانٍ ومكانٍ. فرغمَ وجود النّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ في الحياةِ إلَّا أنه كانَ يمكنُ أن يكونَ رجلاً عاديَّاً مثلُه مثلُ أيِّ رَجلٍ عاديٍّ في قُرَيش ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً﴾. ﴿فَقَدْ﴾ أمضيتُ في ظَهْرَانِيكُم أربعين سنَةً كنتُ رجلاً عادياً، ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾. ﴿مِّن﴾ قبلِ اليومِ الأوَّلِ الذي أُنزِل فيه القرآنُ عليَّ، وكان يمكنُ أن أبقى على ذاكَ النَّحْوِ لولا أن شرَّفَني ربُّ العالَمِينَ بالنُّبُوّةِ. الآن: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾. وكلمةُ العقْلِ هنا ترْشِدُ الإنسانَ كي يسْتشِيرَ عقلَه دون أن يتأثَّرَ بِما يُقالُ، أو بِما يكونُ عليه البعضُ، أو يتَّبعُ بعض الاتّجَاهاتِ. فلديْكَ عقْلُك، وفكّرْ بكُلِّ هذه التَّفاصِيلِ بينَك وبينَ نفسِك، فعقلُك هو دلِيلُك إلى الإيمانِ.

الباب السابع عشر
ظلم الافتراء

﴿١٧﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾

بعدَ البيانِ الّذي جاءَ في الآيتَين السَّابقتَين، الآن: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾. كلامٌ في غايةِ الدِّقّة، فقد جعلَ الذي يدَّعِي النُّبوّةَ وينسِبُ كلاماً إلى ﴿اللّهِ كَذِباً﴾، يتَساوَى مع من ﴿كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾. أنكرَ بأنَّ القُرآنَ من عندِ الله. والكلامُ يخصُّ الطَّرفَين معاً، الطُّرفُ الأوَّلُ الرَّسُول صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ المُتّهَم بأنه اِفترَى القرآنَ، فيُوحِي إليْهِ اللهُ بأنْ يردَّ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً﴾. فكيف أفْتِري على اللهِ كذباً وأنا أعلمُ عاقِبَةَ ذلك؟ وهذا كقولِه:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ﴾ هود ٣٥.

و: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ الأحقاف.

فعبارةُ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾. هي بيانٌ للطَّرفِ الآخر الذي ﴿كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾. وأنَّه لا يوجَدُ مَن هو أشَدُّ ظلماً منهم، ومن جهةٍ أخرى، يبْقَى هذا البيانُ مفتوحاً لأبناءِ كلِّ زمانٍ ومكَانٍ، فليسَ هناك مَن يكونُ أكثرَ ظلماً ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً﴾ بأن ادَّعَى النُّبوّةَ بعد محمّدٍ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، بأنْ أنْكرَ بأنَّ القرآنَ من عندِ الله عزَّ وجلَّ.

﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾. ففي الحالتَين يكونُ الفاعِلُ مُجرِماً، سواء ادّعَى النبوّة، أو كذَّبَ بالقرآنِ. ﴿لاَ يُفْلِحُ﴾. أيْ ﴿لاَ﴾ يوفَّقُ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾.

الباب الثامن عشر
العِبادة المُنحرفة

﴿١٨﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

تبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ بأنَّ الإيمانَ باللهِ، لا يكفِي حَتَّى يكونَ الإنسانُ مُؤمِناً، فقد يؤمِنُ الإنسانُ، ولكنَّه إلى جَانِبِ إيمانِهِ، يؤمِنُ بِما يمكنُ له أن ينفعَه، أو يضرَّه، أو يجعلَه قريباً من اللهِ، أو حَتَّى يحظَى من خلالِه على بمَكْرُمَاتٍ من اللهِ. وهذا هو عينُ الشِّرْك، فيَعْقِدُ هذا الشَّخصُ على هذه الأشكالِ الشِّرْكيّة التي جمعَتْها الآيةُ بتسميةِ ﴿هَؤُلاء﴾. آمالَه، فلا يطلُبُ من اللهِ ما يُريدُ، بل يتوَسَّلُ إليهم كي يرفعُوا طلبَه إلى اللهِ لاعتقادِه بإمكانيَّةِ الإسْتِجَابةِ من خلالِ ﴿هَؤُلاء﴾. سواء أكانُوا من البشَرِ، أو الجِنِّ، أو الحيوانِ، أو النَّباتِ، أو الجمادِ، أو الكَوَاكبِ، وما إلى ذلكَ.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ﴾. رغمَ إيمانِهم بوجودِ اللهِ-: ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُمْ﴾. إذا أعرَضُوا عنه. ﴿وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾. مهما عبَدُوه. لأنَّ هذا الّذي هو ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ﴾. لا يملِكُ زِمَامَ الضُّرِّ والنَّفْعِ، إضافةً أنَّه لا يملِكُ عدمَ الخضوعِ للضُّرِّ إذا أوقَعَه اللهُ عليهِ، ولا يملِكُ أنْ ينفعَ نفسَه إلَّا أنْ ينفعَه اللهُ. فمهما كانَ هذا الّذي ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ﴾.فإنَّه ﴿لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾. ووجودُه كعدم وجودِه بالنِّسْبَة للنَّفْعِ والضُّرِّ، لأنَّ ذلك كلَّه بيدِ الله، يفعلُ ما يشَاءُ سواء بوجودِ هؤلاء أو عدمِ وجودِهم وهم كذلك يخضَعُون لمَشيْئَةِ اللهِ الذي خلَقَهم.

فالإنسانُ يتقَرَّبُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، من خلالِ عِبادته بشكلٍ مُباشَر، وليسَ من خلال وُسَطَاء. الأمرُ الآخرُ فحَتَّى لو فعلَ هذا الشَّخصُ ذلك، فإنَّ ما يقولُه للوسيطِ، يصلُ إلى اللهِ قبلَ أنْ يصلَ إلى الوَسيطِ، حَتَّى لو وضعَ فمَه على أُذنِ الوَسيطِ، فلا أحدَ يمكنُ له أن يسبِقَ اللهَ بعلمِ أيِّ شيءٍ يحصُلُ في السَّمَوَاتِ والأرضِ. واللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى علمُه سابقٌ لكلِّ علمٍ، وسمْعُه سابقٌ لكلِّ سمعٍ، نظَرُه سابقٌ لكلِّ نظرٍ.

لذلك جاءَ البيانُ جَليّاً: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾. وكلمةُ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هنا بمعنى: يتَكَهَّنُوْن، ويتَوَهَّمُون بأن: هَؤُلاء شفَعَاؤُهم ﴿عِندَ اللّهِ﴾. وهذا متَّصلٌ بالآيةِ الثّالثة: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾. فكيف تجعلُه شريكاً للهِ، ويأذنُ اللهُ له كي يشفعَ لك؟ ثمَّ إنَّه إذا كان عاجزاً عن الشَّفاعَةِ ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ . فهو غيرُ جديرٍ بالْعِبَادَة. وهذا بيانٌ بأنَّ اللهَ يأْذَنُ للصَّالِحِينَ من عبادِه بالشَّفاعَةِ، لكنْ على ألّا يجعَلَهم النَّاسُ شُرَكاءَ للهِ، ودون أن يعبُدوهم. فطاعةُ الصَّالِحِينَ وَاجِبةٌ، وتقديرُهم واجبٌ، لكنْ على ألّا يُنْسَبُوا بأنهم أبناءُ اللّهِ، أو يُعبَدُوا. والعِبادةُ هنا لا تقْتصِرُ على شكلٍ أو لونٍ من العِبادةِ، بل هي مُتفرِّعَة. فهناكَ أناسٌ يذْكُرُون أشخاصاً أكثرَ من ذكرِهم للهِ، وهم يعتقدُون بأنَّ ذنُوبَهم ستُغفَر على قدْرِ ذكرِهم لهؤلاء الأشخاصِ وتمجيدِهم، وهم سيتدَخَّلُون يومَ القِيَامةِ لإنقاذِ مُرِيْدِيهم وأتبَاعِهم. فهنا مفهومُ الشَّفاعةِ بالنِّسْبَة لهؤلاء هو مفهومٌ مُلتَبِس. ولذلك فإن المَنهَجَ الإسْلاميَّ قد أزاحَ هذا الاِلْتباسَ عن مَفْهومِ الشَّفاعةِ، واستبدلَه بمفهومٍ سليمٍ على أساسِ العِبادةِ الخالِصَة للهِ عزَّ وجلَّ، فالمسلمُ يؤمِنُ بالشَّفَاعَة، لكن لا يمكنُ له أن يعبُدَ أحداً من دونِ اللهِ، ولا أنْ يتَّخِذَ آلهةً، فهو مُؤمنٌ بأنَّه لا إله إلَّا اللهُ. وينكِرُ ما يتَّخذُ المُشْرِكُون من آلهةٍ من دونِ اللهِ. وعلى هذا الأساسِ جاءَ في الآيةِ الثالثةِ: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾. وهنا: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾. فالالتباسُ يكمُنُ في العِبادَة، وليس في مُعتقَدِ الشَّفَاعةِ، فاللهُ عزَّ وجلَّ يأذَنُ بالشَّفَاعةِ، لكنَّ النَّهيَ أن تبْلُغَ علاقتُك بالشَّفِيع درجةَ العِبادةِ حَتَّى لو كانَ هذا الشَّفيعُ نبيَّاً، أو أيَّ خلقٍ من خلقِ اللهِ. فرغمَ ما هم عليه من إيمانٍ باللهِ بدليلِ قولهِم ﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾. فإنَّ هذا الاعتقادَ السَّلبيَ بالشَّفِيع قد أفسَدَ عليهم إيمانَهم، حيثُ جعلَه إيماناً مُزدَوَجاً، فانحرَفَ هذا الإيمانُ عن التَّوحيدِ، وشَابَهُ شَرْخٌ. وبالتّالي باتَ هذا الشَّخصُ يعيشُ بإيمانٍ به آفةُ الشِّرْكِ. هنا يأتي بيانُ اللهِ تباركَ وتعَالَى: ﴿قُلْ﴾ أجبْهم يا محمَّد ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾. كلمةُ ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾ هنا جاءَت بالغةَ الدِّقّة، فليس: أتُخبِرُون مثلاً، أو أتُعلِمُون، وما إلى ذلك. لكن: ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾.

والكلمةُ من التَّنبُّؤ ومَن الذي يُنبِّؤون؟ يُنبّؤون اللهَ! وأيضاً: ﴿بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾. هذه كلُّها من تفاعُلاتِ حرفِ الألفِ في ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾.

ثم أُختُتِمَت الآيةُ الكريمةُ بخاتمةٍ أيضاً بالغةِ الدقّةِ لا تقلُّ عن دقّةِ حرفِ الألف في ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾. الآن: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. والجملَةُ غَنِيَّةٌ بتفرُّعَاتِ المعاني، فبأيِّ وجهٍ، بأيِّ قلبٍ، بأيِّ عقلٍ، بأيِّ مَنْطِقٍ، بعدَ هذا البيانِ يأتي إنسانٌ ويعبُدُ مَن لم يخْلُقْه، يعبُدُ مَنْ لا يملكُ شيئاً، يعبُدُ مخلوقاً مهما بَدَا قويّاً، فهو ضعيفٌ أمامَ اللهِ. ﴿سُبْحَانَهُ﴾. هكذا ببقاءِ الاِسْتفْهَامِ وبقاءِ العَجَب: ﴿سُبْحَانَهُ﴾. فإنّ اللهَ تنزَّهَ ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. من خلالِ عبادتِهم الضَّالَّةِ هذه ﴿مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾.

الباب التاسع عشر
زهور الاختلاف وأشواكه

﴿١٩﴾

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

تبيِّنُ هذه الآيةُ الكريمةُ جوْهَرَ العلاقةِ بين الإنسانِ، وبين نزْعَةِ الإخْتِلافِ، فتعرِّفُنا الآيةُ على كَينُونَةِ الإنسانِ، وعلى مَدَى تفاعُلِ نزْعَةِ الإخْتِلافِ في كَينُونَتِه. فهو كائنٌ خِلافِيٌّ بامْتِيازٍ، ودائمُ الجُنُوْحِ شَطْرَ الإخْتِلافِ.

وتبيِّنُ الآيةُ بأنَّ اللهَ تَعَالَى ذكرُه، قد تركَ الإنسانَ في خِلافِه، فمن خلالِ هذا الإخْتِلافِ يُظهِرُ الإنسانُ معدَنَه الحَقِيقيَّ. وهنا أمرٌ مهم تعلّمُك إيّاه الآيةُ الكريمةُ، وهو أنَّك لا يمكنُ لك أَنْ تتعرَّفَ على معدنِ الشَّخصِ إلَّا إذا منحْتَه الحُريّة في التَّصَرُّفِ، حريّةَ أن يختلِفَ معك. فمن خلالِ هذا التَّصَرُّفِ يُقدِّم نفسَه لك، سواء سلباً أمْ إيْجَاباً، وتكونُ لديكَ الحُجّةُ سواء في سلبيَّتِه، أو إيجابيَّتِه.

من هنا: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ﴾. أي لمْ يخلُقِ اللهُ النَّاسَ مُختلِفِين، بل خلقَهم جميعاً على فِطْرةِ الإيمانِ، ولا يوجَد إنسانٌ قط خلقَه اللهُ على فِطْرةِ الكُفرِ، لكنَّ الإنسانَ عندما يكْبرُ إمّا أن يستَمِرَّ على الإيمانِ، ويجعلَ الإيمانَ مِنهَاجَاً لحياتِه، أو يجنحَ إلى الكفرِ، فيجعلَ الكُفرَ منهاجاً لحياتِه.

والآيةُ هنا تُحيلُنا إلى ما ورَدَ في القرآنِ لتوضيحِ شيءٍ من جوْهَرِ حساسيَّة هذه العلاقةِ بين فطْرةِ الإنسانِ ونزعَةِ الاختِلاْفِ، وإن شاءَ اللهُ سأعودُ الآن إلى بعضِ هذه الآياتِ في القرآنِ وفق تَسَلْسُلِ وُرُوْدِها في المُصْحَفِ:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ البقرة٢١٣.

ثم جاءَ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. أي ما أذِنَ لكم بالجنوحِ عن الفطرة:

﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ المائدة٤٨.

فإذن يحصُلُ هذا الاختلافِ بمَشِيئَة اللهِ: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ هود١١٨.

﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي لتركَكُم على فطْرةِ الإيمانِ التي خلقكم عليها وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ أي عندما يُظهِرُ هذا الضَّالَ من خلالِ هذا الاختلافِ ما بداخلِه من كُفر، ويصرّ عليه بِعناد، فيتركُه اللهُ في ضلالِه.

وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ عندما يُحافِظُ المُهْتدِي على فطْرةِ الإيمانِ وينَمِّيها ويتفاعَلُ معها بالعملِ الصَّالِحِ ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾النحل٩٣. وفقَ حريّةِ ومَسْؤوليَّة الخِلاف، لأنَّ الطرَفَينِ يُصبحان مُختلِفَين مع بعْضِهما، فالمؤمِنُ يُصبحُ مُختلِفاً مع الكافِرِ، والكافرُ يُصبحُ مُختلِفاً مع المُؤمِنِ. هنا يتركُ اللهَ الكافِرَ في خلافِه الكُفريِّ والتفَاعُل مع كفرِه، كما أنَّه سُبْحَانَه وَتَعَالَى يتركُ المؤمنَ يتفاعَلُ مع إيمانِه، واختلافِه مع الكافِرِ:

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: ﴿لَوْلَا أَن﴾ يجنَحُوا من الإيمانِ إلى الكفرِ: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ الزخرف٣٣.

وهنا يتبيَّنُ بأنَّ اللهَ من خلالِ ترْكِ النَّاسِ في الخلَافِ، يدعُوْ إلى الإيمَانِ، فيُتِيحُ حَتَّى للكافرِ الذي توغَّلَ كثيراً كثيراً في مَسالِكِ الكُفرِ، أنْ يتُوبَ. لماذا؟ لأنَّه خلَقَه على فِطْرةِ الإيمَانِ، وهو الذي جَنَحَ: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ آل عمران٨٠.

فإذنْ هو خِلافٌ سلبيٌّ وخلَافٌ إيجابيٌّ، بحيثُ يصبحُ الإنسانُ مع مُمَارَسَةِ الخلَافِ إنساناً سلبيّاً، أو إنساناً إيجَابيّاً. وكذلك إمكانيّة تحوُّلِه من إنسانٍ مُخْتَلِفٍ سَلبيّاً إلى إنسانٍ مُخْتَلِفٍ إيجابيّاً، أو من إنسانٍ مُخْتَلِفٍ إيجابيّاً إلى إنسانٍ مُخْتَلِفٍ سلبيّاً.

الآيةُ قصيرةٌ بكلماتِها، ولكنَّها مُتّسِعَة بمَدْلُولاتِها، ويمكنُ تقسِيمُها إلى ثلاثِ جُمَلٍ، الأُولَى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ﴾.

الثَّانيةُ: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

الثَّالثةُ: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

ففي الجُملةِ الأولى: تحوَّلَ ﴿النَّاسُ﴾ من خلالِ الخِلافِ من ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. إلى مَجْمُوعَة أُمَمٍ.

وفي الجُملةِ الثَّانيةِ: ثمّةَ ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾. تتركُ هذا الخلافَ شائعاً بين ﴿النَّاسُ﴾.

وفي الجُملةِ الثَّالثةِ: دون تلكَ الكلمَةِ التي ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. وزالَ الخِلافُ من جَذْرِه.

وهكذا جاءتِ الجملةُ الثَّالثةُ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. مُبَيّنَةً الغايةَ من الجُملَةِ الأولى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ﴾.

وهكذا اِسْتَنَارَت الجُمْلَتَانِ الثَّالثةُ والأولَى من مَنَارةِ الجملةِ الثَّانيةِ التي توسَّطَتْهُما: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾. واسْتَقْوَتَا بها.

فالآنَ تعزَّزَ الخِلافُ وترسَّخَ في كَيْنُونَةِ الإنسانِ، والخِلافُ هما مُتَّسِعٌ ومُنْفتِحٌ على كلِّ الآفاقِ، فهو خِلافُ العَقيدَةِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف ١٧٢.

وقد خالَفَ الإنسانُ ذلك.

وخِلافُ الذُّنوبِ، وكلُّ ذنبٍ هو مُخالَفَةٌ تُسَجَّلُ على الإنسانِ، لكن المُهمَّ أنَّ التَّوبةَ تمحُوْ هذه المُخالفَاتِ من سِجلِّ الإنسانِ مهما تراكَمت وعَظُمَت. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران ١٣٥. والتَّوبةُ بذاتِها هي مُخالَفَةٌ للمَعاصِي. فأنتَ عندما تتوبُ، تُصبحُ على خِلافٍ مع المَعاصِي التي تكونُ عليها. والكافِرُ عندما يؤمِنُ ويتوبُ، فإنه يُخالِفُ ما يكونُ عليه من كُفْرٍ، وهذا هو الخِلَافُ الإيْجَابِيُّ.

ونظيرَ ذلك يكونُ الخِلَافُ السَّلبيُّ عندما يتحوَّلُ الإنسانُ من التَّوبةِ إلى المعصِيةِ، ومن الإيمانِ إلى الرِّدَّةِ. ولذلك فإن كلَّ شيءٍ لا ينتهي إذا ارتكبَ الإنسانُ معصيةً مهما كانَتْ كبيرةً، حَتَّى لو كانَت شرْكاً باللهِ التي هي من أعظم المعاصِي: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ النساء ٤ . وهي عظمة إثم الشرك. كذلك: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ النساء١١٦ . وهو ضلالُ عظمة الشرك.

وليسَ المَعْنى أن اللهَ تَعَالَى شأنُه: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ﴾ للمُشركِ حَتَّى لو تابَ، أو أنَّ اللهَ قد حرَمَه من التَّوبةِ بمجرَّد أنه أشرَكَ. بل إذا أصَرَّ على شرْكِه، فبعضُ صحابَةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ كانوا مُشْرِكِين، ليس قبلَ نزولِ القرآنِ فحسْب، بل في فتراتٍ مُتقدِّمَةٍ من الدَّعوةِ حَتَّى بعدَ الهجرَةِ، ومنهم مَن لم يكتفِ بالشِّركِ فقط، بل كان يُحَارِبُ النَّبيَّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، ويُحارِبُ صحابتَه الكِرَامَ رِضْوانُ اللهِ عليهم. لكنَّ ذلك لم يكُنْ كلَّ شيءٍ، ورغمَ كل ما فعلُوه، فإنَّ اللهَ تركَ التَّوبةَ مُتاحَةً لهم. وبالفعلِ تابُوا وندِمُوا عمّا قد بدَرَ منهم، وأصبحُوا من دَعائِمِ الدَّعوةِ إلى اللّه عزَّ وجلَّ.

ولَبِث ذلك مُستمِرَّاً في كلِّ زمانٍ ومكان، فنرى في أيّامِنا بعضَ المُشْرِكِين يتراجَعُون عن شرْكِهم، ويُشْهَرُون إسْلَامَهم على أملِ أنَّ اللهَ يغفِرُ لهم ما قد سَلَفَ من شرْكِهم، وإلَّا لَما تابُوا، ولما اعْتَنقُوا الإسلامَ. وهذا يكونُ حَتَّى للمُرتَدّ الذي يترُكُ الإسلامَ في ظرفٍ ما حيثُ يمكنُ أن تَلْتَبسَ عليه الأمورُ كما هو حاصِلٌ في زمَانِنا، حيث أصبحَ بعضُ المُسلمِين يرْتَكِبُون الإنتهاكَاتِ المُرَوِّعَةَ بحقِّ المُسلمِين أنفسِهم ويُقحِمُون على انْتِهاكاتِهم هذه أسْماءَ سُوَرٍ قُرْآنِيَّة، أو بعضَ الأسماءِ في التُّراثِ الإسْلامِيِّ، وما إلى ذلك ويَقْتَتِلُونَ فيما بينَهم في فلتانٍ أمنيٍّ تسبَّبُوا به. الأمرُ الذي أدّى إلى ارْتِدَادِ البعضِ وخاصّةً من فئاتِ الشَّبابِ عن الإسلامِ كردِّ فعلٍ على هذه الإنتهاكَاتِ التي لَقُوهَا، وليسَ هذا فحسْب، بل باتُوا يُحابُون كلَّ ما هو إسلاميٌّ، ويَسْتَهْزِئون بالقرآنِ، وأيضاً بكلِّ ما يمُتُّ إلى الإسلامِ بصِلَةٍ. لكنْ رغمَ ذلك لم يحرِمْهم اللهُ منَ التَّوبَةِ، برحمتِه الوَاسعَة التي وسِعَتْ كلَّ شيءٍ، ومنهم مَن راجَعَ نفسَه بعد شيءٍ من الوقتِ، فرأى بأنَّ ذلك قد حصَلَ معه نتيجةَ ردِّ فعلٍ، وأنه تسرَّعَ، وأنَّ ما حَصَلَ لا علاقةَ له بالإسلامِ، بل بأشخاصِ هؤلاءِ حَتَّى لو رفعُوا ألفَ رَايَةٍ إسْلَامِيَّة، حَتَّى لو أقْحَمُوا ألفَ اسمٍ إسلاميٍّ إلى اِنتِهاكَاتِهم.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة٢١٧ . فهذا الذي ارتدَّ تراجَعَ ولم يصرَّ على ارتدَادِه، وأتاحَ له اللهُ أن يعودَ، كما لو أن شيئاً لم يكُنْ، وليس هذا فحسب، بل يمكنُ أن يُبَدِّلُ اللهُ سيّئاته في ارتدادِه، إلى حَسَناتٍ في توبتِه. ذلكَ أنَّه قد ندِمَ بحرقَةٍ على ما بدَرَ منه، فيحوِّلُ له الاسْتِهزاءَ إلى ذكْرٍ على سبيلِ المثال، وما إلى ذلك. لماذا؟ لأنّه يَسْتنكِرُ بشدَّةٍ ما قد بدرَ منه، ويَسْتغفِرُ اللهَ. ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ﴾ من أبناءِ كلِّ زمانٍ، وفي أيِّ وقتٍ من الأوْقَاتِ ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ النساء٦٩ .

إذنْ، لم يمْنعِ الله تَعَالَى ذكْرُه، النَّاسَ من كلِّ هذه التَّحوُّلاتِ العَقِيديَّة، بل تركَهم: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. وبذاتِ الوقتِ لم يدَعْهم في شَتَاتٍ، وهنا أرْسَلَ لهم الأنبياءَ والرُّسُل ليُبيّنوا لهم الخِلافَ السَّلبيَّ من الخِلافَ الإيجابِيِّ حَتَّى يُمَيِّزُوا بين الخِلافَين.

عن النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: " كانَ بين آدمَ ونوحٍ عشرةُ قرونٍ كلّهم على الإسلامِ، ثم وقعَ الاختلافُ بين النَّاس وعُبدَت الأصنام".

وعنه صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ عَرْضَ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ سَوداءُ ، وأيُّ قلبٍ أنْكَرَها نُكِتَتْ فيه نُكتةٌ بيضاءُ ، حتى يصِيرَ القلبُ أبيضَ مثلَ الصَّفا ، لا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ ، والآخَرُ أسودَ مُربَدًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا ، لا يَعرِفُ مَعروفًا ، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا ، إلا ما أُشْرِبَ من هَواه".

إذن: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ﴾. هم الذين فَاخْتَلَفُواْ﴾. واللهُ قادرٌ أن يحْسِمَ بيْنَهم الخِلَافَ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. فقدْ تركَهم اللهُ في خلافِهم حَتَّى يكتشِفوا بأنفسِهمُ الهُدى من الضَّلالِ، ويُجاهِدُوا من خلالِ هذا الخِلَافِ الذي ينشِبُ بينَهم، كي يبلغُوا درجاتٍ مُتقدِّمةٍ من الإيمانِ.

الباب العشرون
إشراقة الانتظار

﴿٢٠﴾

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾

يتضمَّنُ هذا المَطْلبُ إنكارَهم بأن القرآنَ هو من عندِ اللهِ، فلو آمنُوا، لَما طلبُوا مثلَ هذا المَطْلبِ.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾. كما لو أنَّ القرآنَ الذي كانَ طَوْرَ النُّزُولِ، ليس آياتٍ بَيِّنَاتْ، فهم يُريدُون أن يجعلَه اللهُ يُقدِّم مُعْجِزةً خارِقَة يُقدِّمُها أمامَ أعْينِهم، مثل ناقةِ صالح، أو عصا موسى عليهما السَّلامُ، وما إلى ذلك.

كلمةُ ﴿لَوْلاَ﴾ هنا أتَتْ بدقّةٍ بالغَةٍ، بمعنى: ﴿لَوْلاَ﴾ عدم وجود ﴿آيَةٌ﴾ مُعجزَةٍ حسّيةٍ مَلمُوسَة ومنْظُورَة ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾. لنظرِنا في أمرِ الإيمانِ بنُبُوّته. ف ﴿لَوْلاَ﴾ هذه تمنعُنا.

﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾. لكانَ الإيمانُ مُمْكناً. ومثلُ هذه المَطَالِبِ لها وجودٌ في القرآنِ:

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً﴾ الإسراء ٩٠.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً﴾ الفرقان ٢١.

يوجِّه اللهُ عزَّ وجلَّ، رسولَه بالرَّدِّ عليهم: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ﴾. لا أعلَمُ ما الذي يشاؤُه اللهُ لي ولكم، و﴿الْغَيْبُ﴾. لا يعلَمُه أحدٌ غيره. لذلك: ﴿فَانْتَظِرُواْ﴾. ما الّذي سيأتِي من اللَّه؟ ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

إذا نظَرْنَا إلى عُمُومِ القرآنِ، نرى مثلَ هؤلاءِ الذينَ يطْلُبُون مطالِبَ تفوقُ قُدرَاتِ البشَرِ، ونرى بأنَّ اللهَ ليس فقط اسْتَجَابَ لبعضِ هذه المَطَالِبِ، بل جعلَ بعضَ المُعجِزَات دون مَطَالبَ أيضاً. لكن تبيَّنَ بأنَّهم لم يكونُوا صَادِقِين في مَطَالِبِهم هذه، فلبِثُوا في كفْرِهم، ولم يُؤمِنُوا.

ومن ذلكَ على سبيلِ المثالِ: ما جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ الحديدَ يلينُ، ويُصبحُ كالعَجِينِ من كثرِ اللُّيُونَةِ في يَدَي النَّبيِّ داودَ عليه السَّلامُ. وجعلَ النَّبيَّ سليمان عليه السَّلامُ يتحدَّثُ مع الجِنِّ والحَيَوَان. وناقةُ النّبيِّ صالحٍ عليه السَّلامُ، وعصَا النبيِّ مُوسى عليه السَّلامُ التي فلَقَ بها البحرَ، أو عندَ نُزُولِ مائدةِ طعامٍ من السَّماءِ على بَنِي إسْرَائِيْل.

وممّا حصلَ على سبيلِ المثالِ: ﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأعراف٧٧.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ الأعراف١٣٢.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ البقرة٨٨.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ إبراهيم٩.

ولذلك تَكاثَرَت مثْلُ هذه المَطَالبِ في القرآنِ، مثل: ﴿وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾ الأنعام٨.

﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلِ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام٣٧.

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً﴾ الإسراء٩٠ – ٩٣.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً* أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾ الفرقان٨،٧.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ طه١٣٣.

ولعلَّ البعضَ يرى أنَّ حياةَ النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ كانَت بِلَا مُعجِزَاتٍ حِسِّيَّة مثلَ المُعجِزَاتِ التي كانتْ للأنبياءِ والرُّسُل من قبلُ. والحَقِيْقَةُ أنَّ حياةَ النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ كانَت مَلِيئةً بالمُعْجزَاتِ الحِسّيَّة المَلمُوسَة، ومنها: الإسْراءُ والمِعْراجُ. و حفْنَةُ التُّرابِ التي قالَ فيها اللهُ تباركَ وتَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً﴾ الأنفال١٧. ودعاؤه لبعضِ المَرْضَى وشفاؤُهم، وإشباعُ عَددٍ كبيرٍ من النَّاسِ من طعامٍ قليْلٍ. وجعْلُ المطرِ ينْزِلُ عندَ انقطَاعِ المَاءِ عن المُسْلمِينَ في بدرٍ. ومثلُ هذه المُعْجزَاتِ الحِسّيَّةِ المَلمُوسَة كثيرةٌ، لكنَّ النَّبيَّ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ لم يجعَلْها كأدلّةٍ للإيمانِ، كما حصلَ مع بقيَّة الأنبياءِ والرُّسُلِ. بل كانَت تحصُلُ في بعضِ المَوَاقِفِ بمَشِيْئةِ اللهِ. ولعلَّ السَّببَ حَتَّى لا يبقى النَّاسُ ينشغلُون بمثلِ هذه المُعجِزاتِ كون النبوّةِ اختُتِمَت، وبذلك يكونُ التُّركيزُ على القُرْآن. ومَن يريدُ أن يتأكّدَ من المُعجِزَاتِ الحِسّيَّةِ، فهي موجودَةٌ ومُوثّقَةٌ. وهذا أمرٌ بالغُ الأهمّيَّةِ في مَسْألةِ العَقيْدةِ، فما يقولُه اللهُ في القرآنِ، يتحوَّلُ إلى واقعٍ سواء تكْرِيم أهلِ الصَّلَاحِ، أو إذْلَال أهلِ الفَسَاد، في الدُّنيا قبلِ الآخِرَةِ.

إذن، يبقَى القرآنُ هو سَبِيل الإيمانِ الأَقْوى بعدَ كلِّ تلكَ المَرَاحِلِ والتَّحوُّلاتِ الانتِقَاليَّةِ فيْ حياةِ البشَرِ عبرَ العُصورِ البشَريَّة السَّالِفَة، حيثُ بلَغَتْ رسالةُ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى الإنسانِ ذروةَ درجاتِ الكَمَالِ من خلالِ القُرآنِ. ولذلك وإنْ كانَ اللهُ قد أذِنَ حَتَّى بتحْريفِ كتبِه السَّابقةِ، إلَّا أنه لم يأذَنْ بتحْريفِ القرآنِ مهما كانَ حجمُ هذا التَّحريمِ صغيراً أو كبيراً. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر٩. قد يقولُ قائلٌ بأنّ الله أيضاً هو الذي نزَّلَ ما سَبقَ من كتبٍ سَمَاويَّة. وهذا صحيحٌ، لكن أذِنَ بتحريفها، ولولا الإذنُ لما اسْتطاعَ أحدٌ أن يُحرِّف حرْفَاً واحِدَاً منها. لذلك لم يتعَهّدْ بحفظُ تلك الكتُبِ. ولكن بالنِّسْبَة للقرآنِ، حصلَ هذا التَّعهّدُ غيرُ الموجودِ فيما سبقَ: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. وجملة: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. لم تأتِ على شكلِ تعَهّدٍ فحسب بل على شكْلِ قَسَم، فاللهُ جلَّتْ قدرتُه يقْسِم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

عن النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "ما من نبيٍّ إلا وقد أعطَى من الآياتِ ما مثله آمن عليه البشر، وإنَّما كان الذي أوْتِيتُه وحياً أوحَاه اللهُ إليَّ فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامة".

يتبيَّنُ من ذلك بأنَّ أصحابَ مثلَ هذه المَطَالِبِ لن يُؤْمِنُوا مهما اسْتُجيبَ له، وليسَ لأنَّ اللهَ غير قادرٍ على جعلِهم يؤمنُون، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ البقرة١١٧.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ النحل٤٠. لكنَّ اللهَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى شاءَ ألّا يُكْرِهَ أحداً على الإيمانِ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة٢٥٦.

إذن، تُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ الإنسانَ إلى التَّواضعِ، وألّا يترك لمُخَيّلتِه الزّمامَ لتشْطَحَ به بعيداً فالذي يعتقِدُ بأنَّ القرآنَ ليسَ من عِنْد اللهِ، وأنَّ مُحَمَّداً صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ ليسَ رسولَ الله، تكونُ مُخَيّلتُه قد شطَحَتْ به بعيداً عن الإيمان مهما رأى من مُعجِزَاتٍ، والحقيقَةُ، هو يرى كيفَ أن الواقعَ اليومِيَّ يتفاعَلُ مع الآياتِ القُرآنيَّةِ، حيث يتحوَّل ما تقولُه هذه الآياتُ إلى واقعٍ مَلمُوسٍ. فالإيمانُ بالقرآنِ، وبنبوَّةِ مُحَمَّدٍ عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ، من أساسيّاتِ أركانِ الإيمانِ. وعلى هذا الأساسِ يرتقِيْ الإنسانُ في درجَاتِ إيمانِه من خلالِ تفَاعُلِه مع آياتِ القُرآنِ الكَريم، والسَّنّةِ النَّبويّة المُطهَّرَة.

ودومَاً: ﴿فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾. الانتظارُ الذي يلْبَث مفتوحَاً لأبناء كل زمانٍ ومكان. وهذا ما يجعَلُ المؤمنَ صَبوراً في إيمانِه وهو ينتظِرُ حِكْمَةَ اللهِ فيما يحصُلُ، كما انتظرَ رسُولُ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ. وألّا يكونَ الإنسانُ في عُجالَةٍ من أمرِه، أو تارِكَاً نفسَه تحتَ سَطْوَةِ ردّاتِ الفعلِ الآنِيَّةِ، لأنّه لا يعلمُ ما في الغَيْبِ الذي أَكْرمَه به اللهُ، وجعلَه اللهُ منْ نصيبِه. وسوفَ يأتي في أوانِه. كما أنَّ مُوَاجَهةَ المُكَذِّبين لا تكونُ بردّاتِ الأفعالِ، بل بالكلمةِ الطَّيّبةِ. وهذا إرْشَادُ اللهُ لرسولِه، وإرْشَادُ اللهِ لعامَّةِ المُؤمنينَ به، وبرَسولِه. ﴿فَقُلْ﴾ – لا تسكُتْ عَمّا يقولونَه حَتَّى لا يعتقدِوا أنَّك توافقُهم، أجبْهم-: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ﴾ أمرَ اللهِ على ما أقولُ، وعلى ما تقولُونَ

﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

الباب الواحد والعشرون
المكر السلبي والمكر الإيجابي

﴿٢١﴾

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾

وردَتْ في الجُملةِ الأُوْلَى من الآيةِ الكريمةِ، أربعُ كلماتٍ هي: ﴿أَذَقْنَا﴾، ﴿رَحْمَةً﴾، ﴿ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ﴾.

الكلمتانُ الأولَى والثَّانيَةُ، هما للهِ تَعَالَى ذكرُه. الأولى وردَت بنوْنِ العَظَمَةِ ﴿أَذَقْنَا﴾. والثَّانيَةُ: ﴿رَحْمَةً﴾. أي رحمةٌ من اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ. وجاءَت كلمةُ ﴿أَذَقْنَا﴾. دقيقَةً نعلَمُ منها مسْألةً غايةً في الأهمِيَّة، وهي أنَّ السَّعَةَ التي تكونُ بعد ضيْقٍ، تكونُ لها نكهةٌ خاصَّةٌ لا يتذَوَّقُها، ولا يسْتمْتِع بها سوى الذي عانَى تداعيَاتِ الضِّيقِ. وبذلك فإنَّ الذي يُوْلَدُ في النَّعيمِ، ويعيشُ حياتَه نعيْمَاً في نعيمٍ، لا يمكِنُ له أن يَتذوَّقَ تلك النَّكْهةَ المُبارَكةَ التي يتَذَوَّقُها ذاك الّذي عانَى وشَقَى حَتَّى، وهذا ما يمكنُ أن أُسمّيَه بالحِرْمانِ في وجهِه الآخر، الحِرْمانُ من المُعَاناةِ، من الشِّدَّةِ، من الضِّيقِ، من بعضِ المُنغّصات. ولذلك يكونُ رخْوَاً، هشَّاً، رَكِيْكَاً، خَانِعَاً، مُسْتَسْلِمَاً، لا مَقْدِرةَ لديه على المُوَاجهَةِ. بل حَتَّى النَّعِيمُ يمْسِيْ عاديَّاً بالنِّسْبَة لهذا الكَائنِ المُدلَّل الذي يرْفلُ في دَوْحةِ نعيمٍ مُذْ أن فَتَحَ عينَيه على الحياةِ حَتَّى إنَّه يفْقِدُ طعمَ هذا النَّعيمَ، يفقدُ قيْمتَه، يفقِدُ لحظاتِ الاستِمْتَاعِ المَجيدَةَ الحَقيقيّةَ به. لماذا؟ لأنَّه فاقدٌ لمشاعِرِ الظَّفَرِ الحَقيقيَّةِ، فهو لم يظْفَرْ بهذا النَّعيمِ الذي يتقَلَّبُ فيه بشكلٍ آليٍ وأُوتُومَاتِيكيٍّ، بل أتَاه جاهزاً، وهو ليس نتيجةَ كدِّه وتعبِه، بل نتيجةَ كدِّ وتعَبِ الآخَرين. فلم يبْذُلِ فيه جهدَاً يومَاً من الأيَّامِ.

وهنا تأتِي مرحَلَةُ العِقابِ، عِقابُ النِّعمَة ذاتِها لهذا المُتَطَفِّلِ الهَشِّ، فتُتِيحُ له بعضُ المَسَالِكِ المُنحَرِفَةِ، وتَسْتَدْرِجُه أهوَاؤُه إلى مُنْعَرَجَاتِها. وهنا تتَحوَّلُ النِّعمةُ إلى نقمةٍ، وعلى الأغلبِ لا يكتَفِي بمُعاقَبةِ نفسِه فقط، بل بمُعاقَبةِ أبيه أيضاً، كما لو أنَّه يقولُ له: أنتَ الذي أوديتَ بي إلى

هذه النِّهايةِ المَأْسَاويَّة، لولا أمْوالُك لكنْت إنساناً عاديَّاً وكانَت لي عائلةٌ. أموالُك حرمَتْنِي من الحياةِ الحَقيقيَّة التي كانَت من حقِّي أنْ أعيشَها. أنتَ حرَمْتَنِي من كلِّ شيءٍ، وكنتَ تظُنُّ بأنَّك أَعْطَيتَني كلَّ شيءٍ. والحَقيقَةُ إن مجرَّدَ نهايةِ هذا الابنِ المُدلَّةِ نتيجةَ انْحَرَافاته، هي عِقابٌ للأبِ أيضاً.

لذلك فإنَّ اللهَ لا يعطِي للإنسانِ كلَّ شيءٍ، لأنَّه يحبُّه، ولولا هذا الحُبُّ، لأعطاه كل شيء. بل أحياناً عندما يكونُ الإنسانُ جائِرَاً يُعاقِبُه اللهُ من خلالِ إتَاحَةِ الأموَالِ والنُّفوذِ والإمْكاناتِ له، وبعدَ شيءٍ من الوقْتِ يتَّضِح بأنّ ذلك كلَّه كان اسْتدْرَاجاً لِما آلَ إليه من مَأْسَاة مُرِيعَة يسْتَحِقُّها نتيجةَ إسرافِه في البَطْشِ والطُّغيَانِ.

عن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "إن الله يملي للظالمِ حَتَّى إذا أخذه لا يفلتُه". فليسَ كلُّ نعمةٍ، نعْمَةً، بل وبعضُ النِّعمةِ نقْمَةٌ.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾.

مِن الذَّوْقِ، إذا يتذوَّقُ الإنسانُ النِّعَم بمختَلَفِ تَفَرُّعَاتِها. وجاءَت كلمَةُ ﴿رَحْمَةً﴾. لتُنبِّهَ الإنسانَ بأنَّ كلَّ ما يرْفَلُ فيه مِن أشكالِ وألوانِ النِّعَم، إنّما هيَ برحْمَةِ الله. لماذا برحْمَةِ اللهِ؟ لأنَّ الإنسانَ لا يسْتَحقُّها بعمَلِه، كما أنَّ ذُنُوبَه لا تجعلُه مُؤَهَّلاً لها. فانظُرْ إلى ذُنُوبِك، ثمَّ لو أنَّ اللهَ عاقَبَك بها ما الذي كانَ سيحِلُّ بك؟ لو كانت كلُّ تلك الذُّنوبِ مُخالَفاتٍ بحقِّ القانونِ، والقانونُ ضبَطَكَ بها، ما الذِي كانَ سيَحّلُ بكَ؟

هنا جاءَت كلمةُ ﴿رَحْمَةً﴾. لتبيِّنَ لك هذه الحَقِيقَةَ، وكذلك حَتَّى لا ييئس الإنسانُ إذا كانَ على ذنُوبٍ كثيرةٍ، لأنَّ الرَّحْمَةَ الإلهيَّةَ وسِعَتْ كلَّ ذنبٍ أذنبْتَه عندما تسْتغْفِرُ وتَتُوبُ، ولكنْ عندما تُعانِدُ وتصِرُّ على الفُجُورِ، فإنَّك تجعَلُ نفسَك عُرْضَةً للحِرْمَانِ من هذه الرَّحمَةِ، لأنَّك أنت لمْ تطلُبْها، ولم تكُنْ مُعترِفاً بها، بل حَتَّى كنت تنكِرُ وجودَ اللهِ، وتسْتَهْزِئ بالقُرآنِ، وبكلِّ أركانِ الإيمانِ، ولَبِثْتَ في ذلك دونَ أن تتَرَاجَعَ قيْدَ أُنمُلَة. لكنَّ هذا ليسَ كلَّ شيءٍ، فمهما بالغْتَ في الذُّنوبِ والعِصْيَانِ، فإنَّ كلمةَ ﴿رَحْمَةً﴾. تُطَهِّرك وتُنَقِّيك من كلِّ ما أنتَ عليه من وِزْرٍ، وتجعَلُكُ في صفحةٍ إيمَانيّةٍ مُشْرِقَةٍ في حياتكَ الجَدِيدةِ، إذا اِسْتغفَرْتَ رَبَّك وتبْتَ إليه، وأصلَحْتَ مِن شأنِ نفسِك.

إذن: ﴿رَحْمَةً﴾. تُعطِيْ الإنسانَ ما لا يسْتحِقّ، وبمُوْجِبِها يُصبحُ مُسْتَحِقّاً لها، وهذا اسْتِحقاقٌ جعلَه اللهُ لكَ ﴿رَحْمَةً﴾ منه.

الأمرُ الآخرُ: ﴿مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ﴾. وليس: مَسَسْنَاهُم بها.

تبيِّنُ الآيةُ الكريمَةُ بأنَّ النِّعمةَ تكونُ ﴿رَحْمَةً﴾ مِنَ اللهِ، لكنَّ الضُّرَّ يجْلِبُه الإنسانُ لنفْسِه. ولا يمكنُ بأيِّ حالٍ من الأحْوَالِ أن يَلْقَى الإنسانُ ظلماً من اللهِ، فالإنسانُ هو الذي يظْلِمُ نفسَه، وما يُصِيبُه منْ ضُرٍّ، يكونُ هوَ الذي جلَبَه إلى نفسِه. لكنْ هناك شيءٌ آخر، وهو أنَّ اللهَ يمكِنُ أنْ يأخُذَ النِّعْمَةَ من إنسانٍ لحكمةٍ منه، وهذهِ النِّعمَةُ لم تكنْ من حَقِّه بَيْدَ أنَّ اللهَ قد تفضَّلَ بها عليه، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾ هود٩. النُّزُوعُ هنا للرَّحْمَةِ، أي للزِّيَادَةِ التي منحَها اللهُ للإنسانِ. وهنا لا يكونُ اللهُ قد ضَرَّ الإنسانَ. ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ الروم٣٦.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ الشورى٤٨.

فكلُّ ما ينْعَمُ به الإنسانُ هو من فضْلِ اللهِ عليهِ:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ النحل٥٣.

لكنْ هلْ إذا تسبَّبَ الإنسانُ لنفسِه بالضُّرِّ انحَرَمَ مِنَ النِّعْمَةِ؟

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ هود١٠.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الروم٣٣.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ الزمر٨.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ﴾ فصلت٥١.

هذا بيان لكي يعلمَ الإنسانُ بأنَّ اللهَ قد أنعَمَ عليه ﴿رَحْمَةً﴾ منه. رغمَ ما سبَّبه لنفسِه من ضُرٍّ.

عن النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّمَ: "اللهم إن الخير بيدك والشر ليس إليك".

فاللهُ عزَّ وجلَّ يرْشِدُ الإنسانَ إلى النَّفْعِ، يرْشِدُه كي يتعَرَّضَ لرحمةِ اللهِ، وينْهَاه عمّا يسبِّبُ له الضُّرَّ. لكنَّ الإنسانَ يُخالِفُ اللهَ، ويجْنَحُ إلى الضُّرِّ، فيمَسُّه هذا الضُّرُّ.

إذن: ﴿مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ﴾. المسُّ من التَّمَاسِ، أي يُصبحُ الضُّرُّ على تماسٍ مُباشَرٍ به سواء مادّيّاً أو بَدَنِيّاً.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾.

المَكْرُ هنا هو عن فئةٍ من النَّاسِ، يكونُ المَكْرُ دَيْدَنُهم، فيعيشُونَ على التَّحايُلِ، ويتَّخِذُون من التَّحايُلِ مِنْهاجاً لحياتِهم.

على هذا النَّحْوِ، تسَلِّطُ الآيةُ الكريمةُ الضَّوءَ على هذه الفِئَةِ، وتكشِفُ عن تَرْكِيْبَتِها النَّفْسِيَّة، وكيفَ يبلُغُ بها الأمرُ إلى التَّكهّنِ بأنَّها على صَوَابٍ فيْ ذلك.

إذن، تكشِفُ الآيةُ الكريمةُ النِّقَابَ عن هؤلاء، وكيفَ أنَّهم يكونون بين سائر ﴿النَّاسَ﴾ بصفةٍ عامّة. وهذا أمرٌ غايةٌ في الأهمّية، فهم يكونون في صُفُوفِ المُسْلِمين كما يكونون في صفُوْفِ غيرِهم.

فجاءَت كلمةُ ﴿النَّاسَ﴾. بشكلٍ عامٍّ دوْنَ تخْصيصِ أحدٍ، مثلَ: اليهودِ، أو النَّصَارَى، أو المُسْلِمين، أو الكُفَّار، وما إلى ذلك. فلا تَتَفَاجَأْ، ولا تُصْدَمَ عندما يَمكُرِ بك ماكرٌ سواء أكانَ مُسْلِماً أو غيرَه، سواء أكان مقرَّباً منك، أو لا مَعرِفَةَ لك به، والآيةُ تُطْلِعُك بأنَّ ذلك وَارِدٌ.

فهَؤُلاءِ الذينَ ينْتَمُون إلى عُمُوْمِ ﴿النَّاسَ﴾: ﴿لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾. توجَدُ في قلوبِهِم نزْعَةُ المَكْرِ حَتَّى في آياتِ اللهِ. وهذا اِسْتِئْنَافٌ لسيَاْقِ الآية ١٢: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

فالمكْرُ في حقيقتِه هوَ تَحايُلٌ، لكِنَّه ليس نِفاقاً، لأنَّ المُسلِمَ بالفعلِ يكوْنُ مُسْلِمَاً دونَ نفاقٍ، لكنَّ هذا لا يعنِي أنَّه بمُجَرّدِ إسلامِه لن يقرَبَه المكْرُ، بل مُمْكِنٌ أن يحْتلَّه المكْرُ، ويمْسِي مَاكِراً بامتيازٍ أكثرَ منْ أيِّ كافِرٍ.

والآيةُ الكريمةُ هنا قسَّمَتِ المَكرَ إلى قسْمَين، قسمٌ سلْبِيٌّ، وقسْمٌ إيْجَابِيٌّ. وقد نسَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ المكْرَ الإيجابِيَّ إلى ذاتِه الكريمةِ، فبمُوَازَاةِ المكْرِ السَّلبِيِّ، ثمَّةُ مكْرٌ إيْجَابِيٌّ. والمَكْرُ

الإيجابِيَّ في الآيَةِ يكونُ من كَرَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ورحمَتِه بالإنسانِ الماكِرِ حصرِيَّاً، لأنَّ هذا المكْرَ الإيجابِيَّ يأتِيْ كردٍّ على المكْرِ السَّلبِيِّ الذي يَبْدُرُ من الإنسانِ. مَكْراً إيجابيَّاً ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ آل عمران ٥٤.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ الأنفال ٣٠. فيكمُنُ العدْلُ في ثَنايَا هذا المَكْر الإيجابِيِّ، ولا ينجُمُ عنه سوى العدْلِ. ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ النمل ٥٠. بمعنى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً﴾ سلبيَّاً، فردَدْنا عليْهِم ﴿وَمَكَرْنَا مَكْراً﴾ إيْجَابيَّاً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فما دامَ الله ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ كما يُخبِرُنا، فإن الخيرَ يأتِي من الخَيرِ، ولا ذرّة شرٍ واحدةٍ تكمُنُ في الخَيرِ. طبعاً بعضُ التَّفاسِيرِ يبدُو عليها شيءٌ من التَّسرُّعِ، وبعضُها يتضمَّنُ ترْديْدَاً لِما قد قِيْلَ في ذاك التَّسَرّعِ، المُفْتَقِرِ إلى عمْقِ التَّحليلِ. كما لو أنَّ ما قد قيلَ في ذاك التَّسرُّعِ، أغلَقَ بابَ أيِّ تفسِيرٍ غيرِه، وحسَمَ المَعْنَى الإلهيَّ في هذه الآيةِ أو تلك. وهذا بالتَّأكيدِ لا يكونُ دقيقَاً مهما أُوْتِيَ المُفسِّر من عِلمٍ وحُجَّة، بل ومهما عَمِلَ في تفسيرِه بتأنٍّ ورَوِيَّة، ناهيكَ عن التَّسرّعِ. لأنَّ القرآنَ كما هوَ كِتابُ الحَاضِرِ في كلِّ حَاضِرٍ، فهو كذلك كتابُ المُستَقبَلِ في كلِّ مُستَقبَلٍ. ودوماً يحتَوِيْ على الجَديدِ لكلِّ جيلٍ جديْدٍ، وبذلك يُتيحُ لكلِّ جيْلٍ قراءةً جَدِيدَةً، تتمخَّضُ عنها مكتَشَفَاتٌ جديدةٌ ما عرفَها جيلٌ سبَقَه. لماذا؟ لأنَّ هذه المُنْجَزَاتِ الجَدِيدةَ التي تحقَّقَتْ، لم تكنْ مُحَقَّقةً في جيلٍ سابِقٍ، وبالتّالي كانتْ قراءَتُه وفقَ المُستَجِدَّات التي كانَتْ في عصرِه.

وهذا يؤكِّدُ بأنَّ أيَّ مُفَسِّرٍ مهما برَعَ في تأْوِيْلٍ أو شرْحٍ، فإنَّ كلامَ اللهِ تَعَالَى شَأْنُه، يبقَى يغْتَنِي بالمَزِيدِ الذي لا ينْضُبُ. ولكلِّ جيلٍ حِصَّةٌ من اكتِشَافِ هذا الجديدِ وفْقَ المُنجَزَاتِ الحديثةِ التي يبْلُغُها. ولذلك فإنَّ بعضَ التَّفاسيرِ تكونُ فادِحَة مثلَ أنْ تقوْلَ بأنَّ مكْرَ اللهِ يكمُنُ وهو يسْتَدْرِجُ المَاكِرِين إلى مزيدٍ من المَكْر حَتَّى يُوقِعَ عليهم العِقابَ وقد بلغُوا أوْجَ مكْرِهم. وهذه من التَّفَاسيرِ غيرِ الدَّقيقةِ، فكيفَ يكون ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. وبذاتِ الوقتِ يستدرِجُ الماكِرَ إلى مزيدٍ من مكرٍ ليُضاعِفَ عليه العِقابَ؟ والحَقِيْقَةُ، هو إمهالُ خَيرٍ لعلَّ الماكِرَ يتَراجَعُ، فاللهُ عزَّ وجلَّ يتيْحُ له أن يستمرَّ ولا يُعاجِلُه. فلو كانَ اسْتِدْراجاً للمزيدِ، لَما تركَ بابَ التَّوْبةِ مَفْتُوْحَاً له، فما دامَ قدْ أتاحَ له التَّوبةَ، وأَمْهلَه، فهذا الإمهَالُ يكوْنُ لإتاحَةِ المزيْدِ من فُرَصِ التَّوبَةِ له. لكنَّه إذا عاندَ واسْتكْبَرَ، سَيُسِيءُ استخدامَ هذا الإمهالِ، ليَسْتَفْحِلَ في الانْتهاكَاتِ أكثرَ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ

مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الرعد٣٣. ﴿زُيِّنَ﴾. جاءَت للمجْهُولِ، لأنَّ الزِّينةَ هنا يمكنُ أن تكونَ للأَهْواءِ، لرفقَةِ السُّوْءِ، للشَّيْطَانِ، وما إلى ذلك. لكنْ إلى جانبِه يكونُ مَن أحسنَ استخدامَ هذا الإمْهَال واغْتَنَمَه للتَّراجُعِ والإصْلَاحِ.

بل إنَّ اللهَ ينْهَى المَاكرَ عن الاسْتِمرارِ في مكْرِه، لأنَّه يسْتدْرِجُه إلى مزيدٍ من المَكْرِ، وذلك عندما يحذِّرُه من مغبّةِ الاسْتمرارِ في المَكْرِ، وبذاتِ الوقتِ يمهِلُه، ولا يُعاجِلُه في العِقابِ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ فاطر٤٣. بل إنَّ هناك تحذيراً شديداً بأن الإمهالَ هو للتَّراجُعِ، وإذا استمرَّ المَاكِرُ في مكْرِه بعد فُرَصِ الإمهالِ: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ النمل٥١.

إذن، مكرُ اللهِ هو مكْرٌ طيِّبٌ فيه النَّفْعُ والحَثُّ على الإصْلَاحِ والصَّلَاحِ، لأنَّ اللهَ ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. يتيْحُ لهم الفُرَصَ حَتَّى يتراجَعُوا، رغمَ أنَّهم لا يسْتَحِقُّون، فمكْرُهُم يجلِبُ لهمُ الضَرّاءَ التي ﴿مَسَّتْهُمْ﴾. لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُذِيقُهم: ﴿رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ﴾. وهنا لعلَّهم يعتقِدُون بأنَّ اللهَ يدعُهم ولا يُعاقِبُهم، وهو يتيحُ لهم المزيدَ من النِّعْمَةِ والتَّمْكِينِ، ﴿لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾. ينظُرُون إلى آياتِ اللهِ بشيءٍ من الاِسْتِهزَاءِ، فها هُم يرْتَكِبُون الأَوْزَارَ العظِيمَةَ، ولا يجدُون العِقَابَ، بل يزْدَادُون نعيمَاً. وحَتَّى إذا ﴿ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ﴾. فإنَّ اللهَ يكْشِفُها عنهُم، ويعِيْدُهم إلى ما كانُوا عليهِ من نعِيْمٍ. وهنا بدَلَ أن يشكُرُوا اللهَ ويصلِحَوا، يُصبحُ ﴿لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾.

هنا وأيضاً من المكْرِ الإيجَابيِّ في الآيةِ الكريمةِ، يأتي تحذيرُ اللهِ، بأنه قادرٌ أن يوقِعَ عليهمُ العِقابَ بشكْلٍ ﴿أَسْرَعُ﴾ ممّا يتوقَّعُونَ، وهم فِي أوْجِ مكْرِهم واسْتهْزَائِهم: ﴿قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾. عندما يحِيْنُ وقتُ عِقابِ اللهِ، وتكُونُون قد أخَذْتُم وقتَكُم الكافِيَ، وأمهلَكم اللهُ إمهالاً تلو إمهال، يكونُ العِقابُ سريعَاً عليكم.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾. فكلُّ هذا المكرِ يتراكَمُ بعضُه على بعضٍ في صَحَائفِكُم، والملائكةُ الحافظون ﴿يَكْتُبُونَ﴾. كلّ هذا المكرِ عليكُم، وأنتم تُصِرّون عليه. وقبلَ حصوْلِ ذلك، يُتيحُ اللهُ لكم فرَصَ التَّراجُعِ والتَّوْبَةِ.

الباب الثاني والعشرون
الإنسان بين الأمان والخطر

﴿٢٢﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

أحياناً يكونُ الإنسانُ في مَأمَنٍ، يسْتَمْتِع بحياتِه، وبغتةً ينقلِبُ كلُّ شيءٍ عليهِ رأساً على عَقِبٍ، ويرى نفسَه في قلْبِ خطَرٍ يعجَزُ عن مواجَهَتِهِ والنَّجاةِ منه، لكونِه يكونُ أكبرَ من إمكَانَاتِه في المُوَاجَهَةِ.

هنا يمْتَلِئُ ذعْراً وهوَ يرَى نهايتَه الحَتميَّة بهذه الكَارِثةِ التي وقعَتْ عليه بغتةً، وفي ذُرْوةِ هذا الخطرِ المُحْدِقِ، يتضرَّعُ إلى اللهِ كي ينْجِيَه، وهو موقنٌ بأنه لن ينجوَ إلَّا بمُعجِزةٍ إلهيَّةٍ.

الآيةُ الكريمةُ تتَّخِذُ من حوادِثِ البحرِ مِثالاً لهذا الخطرِ.

﴿هُوَ﴾ اللهُ وحدَه ﴿الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ يمدُّكُم بالطَّاقةِ كي تكونُوا قادِرِين على المَسيْرِ ﴿فِي الْبَرِّ﴾ من خلالِ وَسَائِطِ التَّنقُلِ البرّيَّةِ ﴿وَالْبَحْرِ﴾. من خلالِ وَسَائِطِ التَّنقُلِ البحريّةِ.

﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾. ركبْتُم السُّفُنَ واسْتقْرَرتُم فيها، وهنا جاءَت كلمةُ ﴿الْفُلْكِ﴾. هنا بصِيغةِ الجمْعِ لأنَّ الكلامَ مفتُوحٌ لجميعِ النَّاسِ. وكلمةُ ﴿الْفُلْكِ﴾. تَرِدُ أيضاً في القرآنِ بصيغة المُفرَد، لكنْ إذا كانَ المُخاطَبُ شخصاً واحداً، مثل: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ هود٣٧. أي ﴿وَاصْنَعِ﴾ يا نوحُ سفينةً واحدةً.

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ جرَتِ السُّفنُ بركَّابِها الذين سيَّرهم اللهُ ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾. بأنسامِ هواءٍ عليلةٍ تتسنَّم تتنَسَّمُ عليهم وهم في البحرِ داخلَ سفُنِهم. ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾. انتعَشُوا بهذه الأنْسامِ، وهم يمضُونَ في فُسْحةِ البحرِ.

وطبعاً أنسامُ هواءِ البحرِ تختلِفُ عن أنسامِ هواءِ البرِّ، لأنَّها تحْتَوي على شيءٍ من الرُّطُوبَة. والإنسانُ عندما يرُشُّ الماءَ في فُسْحَةٍ حولَه، تغتَنِي الأنسامُ التي تهبُّ عليه برطوبةٍ مُنعِشَةٍ. ومِن ذلك كانَت فكرةُ المُكيّفاتِ المَائيَّةِ التي باتَ النَّاسُ يسْتخْدِمُونَها عندما تشتدُّ عليهم الحرارةُ خاصَّةً في الصَّيْفِ، لأنَّ الهواءَ الذي يأتي من الماءِ، تكونُ له خصَائِصُه الرَّطِبَة التي تخفِّفُ الحرارةَ، وتضْفِي برودةً على المكانِ. كما أن النَّاسَ يلجَؤون في الصَّيفِ إلى البحارِ والأنهارِ للاسْتِمْتَاعِ بأنسامِ المياهِ، والسِّبَاحةِ فيها، وركُوبِ القَوارِب، وما إلى ذلك.

إذن: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾. وهذا بيانٌ بأنَّ ذلك يجلِبُ الفرَحَ للإنسانِ. ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾. أي: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾. يتطَيَّبُونَ بها.

لكنْ، بغتةً وفي ذروةِ هذه الأجواءِ الطَّيِّبةِ الجميلةِ المُمْتِعَة: ﴿جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾. دَهَمَتْها، وهبَّتْ عليها عاصِفَةٌ شديدةٌ لتسْتبدِلَ فرحَهم بالفزعِ، واسْتِقْرَارَهم بالهَلَعِ. أي تُعكِّرُ عليهم طِيْبَهم الذي كانُوا يَرْفلُونَ فيه قبل قليل.

﴿وَ﴾ إضافةً إلى ذلك كلِّه ﴿وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾. ﴿الْمَوْجُ﴾ هو تقلُّبَاتُ الماءِ بشدَّة بينَ المَدِّ والجَزْرِ، وهو يبُثُّ الرُّعْبَ في الإنسانِ الذي يكونُ على السُّفُنِ في البَحْرِ، لأن ذلك يُحْدِثُ اضطراباً ليس في السَّفِينَةِ فقط، بلْ في كُلِّ رُكَّابِها، حيثُ يفقِدُونَ التَّوَازُنَ ويمُوجُون ببعضِهم البَعْض، لأنَّ السَّفِيْنةَ تكونُ قد هَاجَتْ ومَاجَتْ وفقَدَتْ التَّوَازُنَ نتيجَةَ مجِيْء ﴿الْمَوْجُ﴾ فجْأَةً.

والسَّائِقُ يكونُ حالُه كحالِ الرُّكَّابِ، حيثُ لم يعُدْ قادراً على التَّحكُّمِ بقِيَادَةِ السَّفيْنةِ، وباتَ ﴿الْمَوْجُ﴾، يتولَّى السَّيطَرَةَ على السَّفينةِ ومَنْ فيها. ولذلك جمعَتْهم الآيةُ مع السَّفنِ بكلمةٍ واحدةٍ: ﴿وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ﴾. وليسَ من ﴿مَكَانٍ﴾ واحِدٍ، بل: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾. ولعلّها إشارَةٌ إلى شدَّةٍ وقوَّةِ تدافُعِ ﴿الْمَوْجُ﴾. الذي ﴿جَاءهُمُ﴾ بغتَةٍ، فبُوْغِتُوا بالموْجِ الذي باغتَهم. وكلمةُ ﴿جَاءهُمُ﴾ أقْوَى من باغتَهم، لأنها تعنِي أيضاً: باغتَهم. لكن ﴿وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ﴾. عبارَةٌ لها تداعيَاتُها التَّصْوِيرِيَّة، أكثرَ من: وباغتَهم، أو وفَاجَأَهُم، أو دَهَمَهَم، وغيرُ ذلك. وهو كلُّه واردٌ، ويعبِّرُ عن حُصُولِ المَوْجِ. لكن: ﴿وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ﴾. تغْتنِي بكلِّ ذلك، إضافَةً إلى أنَّها تُتِيْحُ للمُخَيِّلَةِ تخيُّلَ وتصُوّرَ الواقِعِ الذي يكُونُون عليه في تلك اللَّحظاتِ المُرَوِّعَة:

﴿وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ﴾. ثم أردفَتِ الآيةُ لإدخالِ القارئِ أكثرَ إلى دِقّةِ الأجْواءِ: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾. أي ﴿مِن كُلِّ﴾ حدبٍ وصَوْبٍ.

فالإنسانُ يستمِدُّ شُعورَه بالأمانِ عندما يتحَكَّمُ بالمكانِ الذي يكونُ فيه، ويمتلِكُ حريَّةَ الخُرُوجِ من المَكَان، أو البقاءِ فيه بأمَانٍ. لكنْ فجأةً إذا فقَدَ هذه المِيزَةَ، سيْعتَرِيهِ هَلَعٌ، مثلَ نُشُوْب النِّيْرَانِ من حولِه على سبيلِ المِثَالِ، أو عندما يكونُ في حَافَلةٍ سريعَةٍ وفجأةً يفقِدُ السَّائقُ السَّيْطرةَ على المِقْوَدِ نتيجةَ عُطْلٍ ما، وتَتَأرْجَحُ الحَافلَةُ يُمْنةً ويُسْرَةً، فيفقِدُ جميعُ الرُّكَّابِ السَّيْطرةَ على أنفسِهم، ويتخبَّطُونَ ببعضِهم البعضِ، أو عندما يحْصُلُ فَلَتانٌ أمْنِيٌّ نتيجَةَ حرُوبٍ داخِليَّةٍ، وما إلى ذلك. هنا يفقِدُ الإنسانُ أيَّ شعورٍ بالأمَانِ وهو في قلْبِ الخَطَرِ المُحْدِقِ به.

الآيةُ الكريمةُ، تَصْوِيْرِيَّةٌ ومَشْهَدِيَّةٌ، تُصوِّر المَشَاهدَ التي حصلَت لأُناسٍ، وقابِلَةً للحصولِ لأُناسِ كلِّ زمَانٍ ومكانٍ. كما أنها تصوِّرُ أدقَّ المَشَاعِرِ التي تعْتَرِي الإنسانَ وهو في ذُرْوةِ لحظاتِ الهَلَعِ الرَّهيبَةِ هذه.

تسْتأنِفُ الآيةُ التَصْوِيْرِيَّةُ المَشْهَدِيَّةُ النَّفْسيَّةُ: ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾. وهم فيْ ذُرْوةِ هذا الفَزَعِ بينَ شدّة العاصِفة، وبين قوّةِ تدَافُعِ ﴿الْمَوْجُ﴾. انتَابَهمْ شعورٌ بأن كلَّ شيءٍ انتهَى. على هذا النَّحوِ قدَّمَت الآيةُ بدقّةٍ ما اعتَرَاهُم من شعورٍ في تلك اللَّحظَات المُرَوِّعَة: ﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾. هنا أيضاً تكشِفُ الآيةُ عن أمرٍ هام، وهو أنَّ الإنسانُ مهما مهما بلَغَ بهِ الخطَرُ، فإنَّه لا يسْتَسْلم، ويبقى لديه ظنٌّ بأنَّه سينْجُو مهما كانَتْ درجةُ الخطرِ عاليَةً.

﴿وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾. أي ﴿وَظَنُّواْ﴾. أنَّ خطرَ الموتِ ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾. من كلِّ الجِهَاتِ.

هنا، تضرَّعُوا إلى اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، ومَن للإنسانِ غيرُ اللهِ الذي خَلقَه، اللهُ الذي إن قالَ لشيءٍ كنْ فيكونُ؟

﴿دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. توسَّلُوا إلى اللهِ الواحدِ الأحَدِ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. عاهَدُوه على الإخْلَاصِ: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ﴾ الكَارِثةِ التي ألمَّتْ بنا وقد أصبحْنَا بأنفاسِنَا الأخيرةِ على وشكِ الهلاكِ ﴿لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. نبقَى نشكُرُك طوَالَ أعمارِنا ونعِدُك بالإخلَاصِ في ﴿الدِّينَ﴾.

الباب الثالث والعشرون
عاقبة البغي

﴿٢٣﴾

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

﴿فَلَمَّا﴾ اِسْتجابَ اللهُ لدعَائِهم عندما: ﴿دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾ وصارُوا في برِّ الأمانِ: ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

كما كانَت عبارةُ ﴿وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ﴾. بشكلٍ مُفاجِئٍ، الآن وفورَ اسْتِجَابةِ اللهِ لهم، ﴿إِذَا هُمْ﴾. أي كما لو أنَّ شيئاً لم يكنْ وعادُوا، هكذا بسرْعَةٍ ﴿يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. كما لو أنَّهم ليسُوا الذين أخرَجَهم اللهُ للتوِّ من الخَطرِ الذي أحْدَق بهم، وأنجَاهُم اسْتِجابةً لدُعائِهم وتوسُّلِهم إلى اللهِ تَعَالَى. هكذا بشكلٍ سَريعٍ: ﴿إِذَا هُمْ﴾.

ما الذي يفعلون بعد أنْ عاهدُوا اللهَ في الخطرِ بقولِهم: ﴿دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. فعلُوا العكسَ تماماً: ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. كلمةُ البَغْيِ هنا بمعْنَى التَّمَادِي في الفَسَادِ. فلم يقُلْ جلَّ شأْنه: ﴿إِذَا هُمْ﴾ يفسدِون ﴿فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. بل: ﴿يَبْغُونَ﴾. فليسَ كل مَنْ يبدُرُ منه شيءٌ من الفسادِ يبغِي الفسَادَ، بل قد يسْتنكِرُه، ثم يتوبُ ويتراجَعُ، لكنَّ هُؤلاءِ على العكسِ، فهم ﴿يَبْغُونَ﴾. أي يسعُونَ إلى إشاعةِ الفسَادِ في المُجتَمعِ ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. دونَ أن يكتَفُوا بفسَادٍ بدرَ منهم، وتابُوا عنْه. فهم لا يتُوْبُون، ولا ينْدَمُونَ على أفعالِهم الفَاسِدَة، بل يزدَادُونَ فساداً ويغْلِظُونَ في بُؤَرِ الفسادِ، وليسَ هذا فحسْب، بل يُسهِمُون في انتِشَارِ رُقْعةِ الفسادِ، فيسْتَدْرِجُون الصَّالِحِينَ ويُقَدِّمُون لهم الإغراءَاتِ كي يُفسِدُوْهم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النور ١٩. فهؤلاءِ هم فُسَّادُ المُجْتَمَعات، فُسَّادُ النَّاسِ ﴿فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

ولذلك لا يدومُ البَاغِي في بغْيِه طويلاً، بل يوقِفُه اللهُ عند حَدِّه بشكلٍ أسرعَ مِنْ غيرِه.

ويرِدُ مثالُ قارونَ كدليلٍ على ذلك، حيثُ انتهى نهايةً مُشِيْنَةً رغم ما كانَ به من غِنَى، لكنَّه عندما بغَى، لَقِيَ العِقابَ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ القصص ٧٦.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ* وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ* فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ* وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ القصص ٧٩– ٨٢.

فهؤلاءِ يهدِفُون إلى اِستدْرَاجِ النَّاس من الاسْتقَامةِ إلى الاِعْوجَاجِ: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ الأعراف ٤٥.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ إبراهيم ٣.

لذلك يكونُ العِقابُ لرَدْعِهم حِفاظاً على سلامَةِ المُجْتَمَعِ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الشورى ٤٢.

عن النَّبي صلَّى اللّهُ عليه وسلَّمَ: "ما من ذنبٍ أجْدَر أن يعجِّلَ اللهُ لصاحبِه العقُوبةَ في الدُّنيا، مع ما يدَّخِرُ له في الآخرةِ من البَغي وقطيعَةِ الرَّحِم".

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذين تحْذُون حذْوَ أهلِ البَغْيِ، اعلمُوا ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم﴾. كما كانَ بغيُهُم ﴿عَلَى﴾ أنفسِهم. وهذا بمثابةِ الإخْبَارِ العامِّ للجَميعِ، كون الصَّالِحِ أيضاً يمْكِنُ له أن يجْنَحَ إلى البَغْيِ، لذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. الذي يبْغِي منكم ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم﴾. تعوْدُ عاقبَةُ ﴿بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم﴾. ولا بدَّ لكُم أن تدفعُوا ثمنَ البَغْيِ الذي تبْغُونَ إذا أصرَرْتم عليه ولمْ تتُوبُوا.

﴿مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لا يحْرِمُكم اللهُ ﴿مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ﴾ عَقِبَ المَتَاعِ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. نضعُكم أمامَ ما كنْتُم تقترِفُون من بغْيٍ في ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

عن النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "ثلاثٌ هن روَاجِع على أهلها: المَكْرُ، والنَّكْثُ، والبَغْي". ثم تلَا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم﴾.

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾ فاطر ٤٣.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الفتح ١٠.

الباب الرابع والعشرون
بين عالَم الإنسان وعالَم النبات

﴿ ٢٤ ﴾

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

آيةٌ تشْبِيْهيّةٌ تأمُّليَّةٌ تنْضَحُ بروحِ المَوْعِظةِ، تُشبِّهُ ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالنَّباتِ الذي ينمُو من خلالِ الماءِ. لماذا هذا التَّشْبِيْه؟ لأنَّ الإنسانَ أيضاً ينمُو من خلالِ المَاءِ، بل يبدَأُ تكْوينُه من نُطْفةِ مَاءٍ.

إذن: حياةُ الإنسانِ في الدُّنيا، هي كحياةِ النَّباتِ، وتوجِّهُ الآيةُ الكريمةُ بأن ينظُرَ الإنسانُ إلى النَّباتِ ويتّعِظَ منه.

تبدأُ الآيةُ الكريمةُ بدايةً مُتَماسِكَة: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾.

أي، شبِّهوا أيها النَّاسُ حياتَكم ﴿الدُّنْيَا﴾ بحياةِ النَّباتِ، هذا المَاءُ يقعُ على بذورِ النَّباتِ، فيجعَلُه ينمُو ويتفتَّحُ.

وهكذا أيضاً تبدأُ مَسِيْرةُ الإنسانِ من نُطفةٍ، حَتَّى تنموَ ويكسُوَها اللَّحمُ، وتتحوَّلَ إلى جَنيْن، فيتقدَّم هذا الإنسانُ في مَراحِلِ النُّمُوِ. وهكذا كما أنَّ البذرةَ تكبرُ وتخرُجُ من تحتِ الأرضِ كنباتٍ جديدٍ بمُختلَفِ أشكالِ النَّباتِ، كذلك يكبرُ الجنينُ ويخرُجُ من الرَّحِم ككائنٍ بشريٍّ جديدٍ سواء أكانَ رجُلاً أو امرأةً. إذن: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ﴾ حياةِ الإنسانِ في ﴿الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾.

الآن: ﴿حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾.

﴿حَتَّىَ إِذَا﴾ أورَقَتِ ﴿الأَرْضُ﴾ بالخُضْرَة ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ بها، وتبلغُ الزِّينةُ ذرْوَتَها في فصلِ الرَّبيعِ.

كما أنَّ الإنسانَ أيضاً ينمُو ويكبرُ، وتبدأُ ملامِحُ الجمالِ واللَّيَاقةِ تظهَرُ عليه، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ التين ٤ . ولذلك فليسَتِ الثِّيابُ هي التي تضفِي حُسْناً على الإنسانِ، بل هو الذي يُضفِي عليها من حُسْنِه، عندما ينتقِي منها بعنايةٍ ما يَتَناسَبُ مع هيْئَتِه، وكذلك لونِ بشرته، لأن الثيابَ مهما كانت حَسَنةً، فهو ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ منها، وبذلك يتحسَّن الحسَنُ من الأحسَن منه حُسْناً.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾. اعتقدَ أصحابُ هذه الزَّخرَفَة ﴿أَنَّهُمْ﴾ قد تمكَّنُوا منها، وأصبحَتْ مُلْكَاً لهم.

ولذلك ترى البعضَ يبيعُ مُسبقَاً حَتَّى قبل الحَصَادِ، وهذه من الأخطَاءِ الفادِحَة. لذلك جاءَت ﴿وَظَنَّ﴾ معبّرةً عن واقِعِ الحالِ، فهو في أعلى درجاتِه مجرّدُ ظنٍّ بالمُلكيَّة، لأنه طَوْرُ الحصادَ، ولم يُحْصَدْ بعدُ، ولم يتحوَّلْ إلى مُلْكٍ بعد.

الأمرُ أيضاً مُشابِهٌ للإنسانِ، فهو أيضاً عندما يُصبِحُ في ذروَةِ لياقَتِه ونضُوجِه البَدَنِيِّ، يظنُّ بأنَّه أصبَحَ مُتَمَكّناً من الحياةِ، وينسَى بأنَّ مجرَّد فيروسٍ صغيرٍ أصغر من أن يُرَى يمكنُ أن يطرَحَه أرضَاً، يعجزُ حَتَّى عن حملِ لقمةِ طعامٍ ليرفعَها إلى فِيْه. وهنا تذكيرٌ بأنَّ الذي ينسَى، يبطِشُ، ويتمادَى معْتَمِداً على نفوذِه وتمكُّنِه، لكنَّه في النِّهَاية لا بدَّ أن يرى العجْزَ، ويعيشَ العجْزَ، وهذا ما يؤكِّدُه تاريخُ أهلِ البطْشِ والطُّغيَانِ سواءً عبرَ التَّاريخِ، أو في العصرِ الحَدِيثِ، وفيْ مختَلَفِ مسْتوَياتِ النُّفوذِ والتَّمكُّن.

إذن: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾. هنا ما الذي يحصلُ بالنِّسْبَة لحقيقَةِ هذه المُقَارَنة بين حياةِ الإنسانِ وحياة النَّباتِ؟ قالَ جلَّ شأنُه: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾. انقلبَ كلُّ شيءٍ رأسَاً على عقِبٍ.

هذا هو ضعْفُكَ الحَقيْقيُّ أيّها الإنسانُ، هذه هي قوّتُك التي كنتَ تستخدِمُها للبطْشِ، فأينَ قدرتُك وأنتَ ترَى كلَّ ذلك يتحوَّلُ إلى رمادٍ أمامَ عينَيك؟ وهذا كبيانٍ على: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾. لذلك: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً* إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾. فلا تنغرَّ بنفُوذِك، ولا بأموالِك، أو لياقتِكَ البَدنيَّة، وتواضَعْ للهِ عزَّ وجلَّ، لأنَّكَ عاجزٌ كلَّ العجزِ أمامَ قدْرَةِ اللهِ.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. على هذا النَّحوِ من العلاَقةِ بين آياتِ القرآنِ، وآياتِ الطَّبيعةِ، حيث نبيِّنُ كأمثلة كيفَ أنَّ آياتِ القرآنِ تتفاعَلِ تماماً مع ما تعيشُونَه في الواقعِ، في علاقةٍ تكامليَّةٍ بين الواقعِ وبين القرآنِ، لأن الواقعَ يُحِيْلُكُم إلى القرآنِ، والقرآنَ يُحِيْلُكُم إلى الواقعِ، فيكونُ الواقعُ مرآةً للقرآنِ، ويكونُ القرآنُ مرآةً للواقعِ.

إذن، الأصلُ هو مِنَ اللهِ، لأنَّه هو الذي أنزَلَ الماءَ ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾. وهوَ الذي جعلَ في الأرضِ بذوْرَ النَّباتِ. تماماً كما أنَّ اللهَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، قد مَدَّ الرَّجُلَ بالطَّاقةِ كي يضعَ النُّطْفةَ في رَحِم المرأةِ، وهو الذي يرزُقُ المرأةَ بالطَّاقةِ، ويجعلُ اللّحمَ يكسُو تلك النُّطفَة، فيجعلُ من ذلك إنساناً يمشِي بكامل لياقتِه البَدنيَّة: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون ١٤.

وعندما يعتقِدُ بأنَّه أصبحَ مُتَمَكّناً من نفوذِه، يجنَحُ إلى البطشِ والإنتهاكاتِ دون رادِعٍ، حَتَّى يُحافِظَ على ما هو فيه، أو يوسِّعَ من دائرةِ نفوذِه وتمكُّنِه. وهذا ما يحصلُ مع بعضِ القَادَةِ عندما لا يكْتَفُون بقيادةِ دُوَلِهم فحسب، بل يقْتَحمُون دُوَلاً أخرى ويتسبَّبونَ بإلحاقِ أفدَحِ الأضرارِ بالنَّاسِ الآمِنينَ في بيُوتِهم، وما ذلك إلَّا لأنَّهم قد نسُوا اللهَ من حِسَاباتِهم.

فما يمكنُ اسْتِنتاجُه من الآيةِ الكريمة، أنَّ الإنسانَ إذا آمنَ بقدرةِ اللهِ على كلِّ شيءٍ، وأنه مهما بدا قويّاً ونافِذاً، فإنَّ اللهَ قادرٌ أن يأخذَ منه ذلك، هنا سوفَ يتواضَعُ لله عزَّ وجلَّ. ومهمَا تمتَّع بلياقةٍ وتمكينٍ في الأرضِ، فإنَّه يكونُ مُدْرِكاً بأنَّ اللهَ الذي أعطَاه، قادرٌ أن يأخذَ منه في أيَّةِ لحظَةٍ، وهذا ما يجنِّبُه كلَّ أشكالِ البطْشِ والطُّغيَانِ.

وحَتَّى يُصدِّقَ الإنسانُ هذه الحقيقَةَ، فإن الآيةَ الكريمةَ تُحِيلُه إلى عالَم النَّباتِ، ففي ذروَةِ زُخْرُفِ الأرضِ، وذروَةِ زينَتِها بهذا الاخْضِرَارِ الجميلِ، غدَا كلُّ شيءٍ ﴿حَصِيداً﴾. بأمرِ اللهِ القادرِ على قلبِ الأمورِ كلِّهَا رأساً على عَقِب.

وكلمةُ الحَصِيدُ تجعلُ الإنسانَ أكثَرَ قُرْباً من هذه الحقيقَةِ. فالأرضُ بعدَ حصادِها تبقى عليها فقط هذه البَقَايَا، فهذا هو الحصيدُ الذي بقيَ من كلِّ ذاك النُّمو. واللهُ تَعَالَى ذكْرُه، يجعلُ أسباباً لذلك، فيمكنُ أن تحتَرِقَ المَزرُوعَاتُ، ويمكن أن تتسلَّطَ عليها حَشَراتٌ، أو تُصَابَ بآفاتٍ، أو يأتيَها الصَّقيعُ، وما إلى ذلك. وهذا بذاتِه يكونُ بالنِّسْبَة للإنسانِ، ففي ذروَةِ قوّتِه وغِناهُ وسلطَتِه، يوقِعُه اللهُ أرضاً، ويذلِّه كما لو أنَّ ذلك كلَّه لم يكنْ تحتَ إمْرَتِه، قالَ: ﴿بِالأَمْسِ﴾.

وهي أقربُ تعبيرْ عمّا هو قبلَ اليومِ، فالأمسُ، هو الأقرَبُ وقتاً من اليومِ، وهو أمسُ الرَّخَاءِ الكبيرِ، وهذا يومُ البلاءِ الكبيرِ، وشتَّانَ بين أمسِ الرَّخَاءِ، ويومِ البَلاءِ، حيثُ يُنْتَزَع السُّلطَانُ من كاملِ سلطتِه ويوْدَعُ رهينَ السِّجنِ كما لو أنه لم يكنْ سلْطَانَاً قط ﴿بِالأَمْسِ﴾. والغنِيُّ يُجَرَّد من كاملِ غِناهُ كما لم يكنْ قطُّ غنِيَّاً ﴿بِالأَمْسِ﴾. وذُو العافيةِ يُجرَّدُ من عافيتِه، كما لو أنَّه لم يكنْ على عافيةٍ قط ﴿بِالأَمْسِ﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾. بهذا التَّشْبيهِ بين حياةِ الإنسانِ وحياةِ النَّبات: ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾. نبيِّن تفاصيلَ البَرَاهينِ ﴿لِقَوْمٍ﴾، لأُناسٍ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾. بهذه البَرَاهينِ ويتّعظُونَ بها.

الباب الخامس والعشرون
بين الهداية والضلال

﴿٢٥﴾

﴿وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

الآيةُ الكريمةُ معْطُوفَةٌ على خاتمَةِ الآيةِ السَّابقةِ: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ما المُرادُ من تفصيلِ ﴿الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؟

الجوابُ: ﴿وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾. جاءَ المفعولُ في ﴿يَدْعُو﴾. محذوفاً. ولعلَّ ذلك للإشارةِ إلى التَّعميمِ المفْتُوح الذي لا اسْتِثناءَ فيه.

فاللهُ ﴿يَدْعُو﴾ العِبادَ من خلال التَّكاليفِ: ﴿إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾. وكلمةُ ﴿يَدْعُو﴾. دقيقةٌ تبيِّنُ بأنَّ اللهَ جلَّ شأنُه ﴿يَدْعُو﴾كَ. والدَّعوَةُ مُوَجَّهةٌ لكَ من ربِّ العزّةِ والجَلالِ. وأنتَ قادرٌ على تلبيَةِ الدَّعوَةِ من خلالِ الوُقوفِ عندَ حدوْدِ اللهِ، والعملِ بتكالِيفِه.

كذلك جاءَت: ﴿إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾. بدقّةٍ، فالسَّلامُ من أسماءِ اللهِ تَعَالَى، وجاءَت الجنَّةُ من خلالِ هذه الدَّعوةِ الإلهيَّة لعِبادِه تحمِلُ أحدَ أسمائه الحُسنَى.

فدعوةُ اللهِ عزَّ وجلَّ، لك إلى دارِه في الجنَّة، والذي يدْخُلُ ﴿إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾. يعيشُ فيها بسلامٍ كاملٍ، لأنها تُحقِّقُ للإنسانِ سلاماً كاملاً لا نقْصَانَ فيه، فهيَ دارُ اللهِ التي كلُّهَا سلامٌ في سلامٍ. وهذا السَّلامُ المُتكَامِلُ لا وجودَ له في الحياةِ الدُّنيا، مهما بلغَ الإنسانُ من غِنَىً ونفوذٍ وعافِيةٍ، لأنَّ ذلكَ كُلَّه لا يسْلَمُ من القلقِ على خُسْرانِه.

والإنسانُ يبقى على قلقٍ من خَسَارة مالِه، زوجتِه، أولادِه، صحَّتِه، عملِه، وما إلى ذلكَ.

الشطْرُ الثَّاني في الآيةِ الكَرِيمة، ينقَسِمُ إلى جملتَين: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

تكمُنُ الهِدايةُ في اتّباعِ الشَّرعِ، وعِبادةِ اللهِ. وهنا يضعُ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، لك أسبابَ الهِداية، ويحثُّكَ عليها، ومن ذلك ما جاءَ في الآيةِ السَّابقةِ من تشبيهٍ ما بين حياةِ الإنسانِ وحياةِ النَّباتِ، والتي اختُتِمَت بـ: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. لأنَّ التفكُّرَ بهذه الحَقِيْقَةِ المَلمُوسَة يوْدِي إلى الهِدايةِ بمَشِيْئةِ الله.

وربَّما بسببِ القراءةِ السَّريعةِ، أو الاستعجالِ، وضعَ بعضُ المُفسِّرين غموضَاً على بعضِ الآيات، ومن ذلك مثل: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ، هو الذي شاءَ لهذا الشَّخصِ الاستقامةَ، وهو الذي لم يشَأْ لذاك الشَّخصِ الاستقامةَ. وهذا ينجُمُ كما قلْنا عن التَّسرّع والعُجَالةِ، لكنْ بشيءٍ من التَّعمّق والإمْعَانِ في الجملةِ، وإعادةِ القراءةِ بمزيدٍ من التَّأنّي، ثم عرضِها على المَنهَجِ القُرآنِيِّ في الهِدَايةِ، نرى بأنَّ هذه التَّفاسِيرَ تتناقضُ تماماً مع المَنهَجِ القُرآنِيِّ في الهِدَايةِ، بل نرَاها تشَوِّشُ على النَّاسِ، وتجعَلُهُم في شيءٍ من شَتَات. فإذا لم يشَأِ اللهُ لشخصٍ الاستقامةَ، لا يمكنُ له أن يقرَبَ الاستقامةَ، وإذا شاءَها لشخصٍ، فلا يمكنُ له أن يجنَحَ نحوَ الضَّلالِ. وهذا يبُثُّ التَّقاعُسَ، ويعزِّزُ اللا مَسْؤوليَّةَ في النَّاسِ، لأنه يتناقَضُ مع مسؤوليَّةِ الإنسانِ تجاه ما يفعلُ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الأنفال٥٣.

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾ الرعد١١. السوءُ هنا هو العِقابُ، أي إن ارتكَبَ شخصٌ ما ذنباً، هنا وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ أن يُعاقِبَه، عاقَبَه، وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ أن يعفوَ عنه، عفَا عنه.

إذن، فلكَ الحريَّة سواءً في الإيمانِ، أو في الكُفْر، في الهدَايَةِ، أو في الضَّلَال، في أنْ تكونَ زانِيَاً، أو تكونَ عَفِيفَاً، أن تكونَ عادِلاً، أو تكونَ ظالِمَاً، أن تكونَ أمينَاً، أو تكونَ خائِناً، وما إلى ذلك.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ واستناداً إلى هذه المَشِيئَة الإنْسانيَّة: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ الكهف٢٩. ويجُوزُ للإنسانِ أن يغيِّرَ، سواءً من الإيمانِ إلى الكُفرِ، أو من الكفْرِ إلى الإيمانِ، وفي ذلك: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ الإسراء٨.

والقرآنُ الكريمُ يحتوِي على إرشَادَاتِ الهدايةِ، كما أنه يحْتوِي على التَّحذيرِ من عاقبَةِ الاستمرارِ في الضَّلالِ. وهنا يبقَى للإنسانِ الخَيارُ بعد أن أصبحَ على بيّنةٍ من أمرِه. ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء﴾ وهذا لا يكفِي، فاستكملَتِ الآيةُ الكريمَةُ لتجنُّبِ أيِّ التباسٍ: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام١٢٥. فهم لم يؤمِنُوا، كما أنَّ المُهتدِينَ آمنُوا. فالذي أرادَ

الهدايةَ، لا يحرِمُه اللهُ منها، بل يُباركُها لهُ بأنْ ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾. وهذا بيانٌ جليٌّ بأن اللهَ يحثُّه على الاستمرارِ في الهدايةِ، وبذلك: ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾ . ونظيرَ ذلك: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء﴾ فلا يكونُ سعيداً ومُسْتقِرّاً في الضَّلالِ، بل يكونُ عكسَ المُهْتدِي، فإنَّ اللهَ ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ لماذا: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام١٢٥ . وهذه دعوةٌ من اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى بأن يؤمنَ الإنسانُ ويعملَ صالحاً، ويعدُه اللهُ عزَّ وجلَّ بمُباركَةِ إيمانِه، وأنْ ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾، ويشْفيَه من ضيقِ الصَّدْر الذي جلبَه لنفسِه نتيجةَ المُضِيِّ في مُنْحرفَاتِ الضَّلالِ.

إذن: ﴿فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأعراف ٣٠.

الآن، لم يعدْ باستطاعَةِ أحدٍ أن يقولَ بأنَّ اللهَ قد ظلمَه لأنَّه كانَ يحاولُ الهدايةَ، لكنَّ اللهَ قد حرَّمَها عليه ولم يردَّها له.

عن أبي هُريرة رَضِيَ اللّهُ عَنْه، عن رسول الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ أنه قال: "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ".[١]

وعن أَبِي طَوِيلٍ شَطَبِ الْمَمْدُودِ أنه أتى رسول الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ فقال: (أَرَأَيْتَ رَجُلًا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْ حَاجَةً، وَلَا دَاجَةً إِلَّا أَتَاهَا، فَهَلْ لِذَلِكَ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: "فَهَلْ أَسْلَمْتَ"؟ قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُهُ قَالَ: "نَعَمْ ، تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللَّهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ" قَالَ: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى)[٢] .

---

[١] صحيح مسلم

[٢] أخرجه الطبراني

الباب السادس والعشرون
العاقبة الحُسنى

﴿26﴾

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

تفصِحُ لكَ الآيةُ الكريمَةُ بأنَّ ليسَ كلُّ مَن يفعلُ ﴿الْحُسْنَى﴾. يفعلُها بحُسْن، فثمّةَ من يفعلُ الإحْسَانَ بغيرِ حُسْن، فلا يكونُ حَسَناً في إحسَانِه.

والإحْسَانُ هو كلُّ عَمَلٍ حَسَنٍ تُقدِّمُه. لكنَّ السُّؤالَ: هل تفعَلُ هذا العَمَلَ الحَسَن بحُسْنِ نيّةٍ خالِصَاً للهِ تَعَالَى، أو لمآرِبَ ما. مثلَ شخصٍ يُقدِّم مُسَاعَدَةً مَاليَّة لامْرَأَةٍ مُحْتَاجَةٍ، وفي نفسِه أنّه بذلك يقتَرِبُ منها ذاتَ يومٍ، ويحقِّقُ منْها، أو مِن خلَالِها مَآرِبَه غيْر الشَّرْعِيّةِ.

وشخصٌ آخرُ يُقدِّمُ لها يبْتغِيْ بها مَرْضَاةَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، دونَ أيِّ مَآرِبَ من هذه المَرأَةِ سواءً من قَرِيبٍ، أو مِن بعيدٍ. فالأوَّلُ يسْتَدْرِجُها بذلك إلى الفسَادِ حَتَّى يُحقِّقَ مَآرِبَه منْها، والثَّانِي يُسَاعِدُهَا حَتَّى تبقَى مُحافِظَة على عفَّتِها في سبيْلِ اللهِ تَعَالَى.

فإذنْ، كُلُّ واحِدٍ يمكِنُه أنْ يفعَلَ الخَيرَ بمُسْتَوَياتٍ مُختلِفةٍ، وبحسبِ الإمْكَاناتِ التي أتَاحَها اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، لهُ.

لكنَّ فعْلَ الخَيرِ هذا، يمكِنُ أن يقبَلَه اللهُ، ويمكنُ ألّا يقبَلَه. يقبَلُه عندما يكونُ خَالِصَاً له، ولا يقبَلُه عندما يكونُ خالِصاً لمَأْرَبٍ ما، لماذا لا يقبلُه؟ لأنَّك بالأصْلِ لم تفعَلْهُ له، بل ابتَغَيْتَ التَّجَاوُزَ على حدودِه من خِلَالِ هذا النَّفْع الذي قدّمتَه لشَخصٍ مُحتَاجٍ.

واللهُ يعلمُ حقيقَتَك، مهما ادَّعيْتَ بأنَّك تفعلُ ذلك خالِصَاً لوجْهِه، ومهمَا بدَوْتَ بمظاهرَ تَدَيُّنِيَّة. فيُكذِّبُك اللهُ في الآخِرَةِ كما كذبْتَ باسْمِه في الدُّنيا، ويصدُقُكَ في الآخِرَة كما صَدَقْتَه في الدُّنيا.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى﴾. وأفضلُ الحَسَنِ ما تفعلُه بإحسانٍ مُحْسِناً النِّيَةَ فيه، وبخامَةِ الإيْمانِ في قلْبِك، أنْ تشْعُرَ بمَسْؤوليّةٍ تجاه مُساعدَة النَّاس وفْقَ الإمْكاناتِ التي يتِيْحُها اللهُ لكَ.

﴿وَزِيَادَةٌ﴾. عن حقِّكَ الذي تستَحِقّه بمُوجِبِ أعمالِكَ الحَسَنةِ التي قمْتَ بها في الدُّنْيا.

﴿وَزِيَادَةٌ﴾. هنَا لا تقْتصِرُ على الآخِرَةِ فقط، بل تكونُ في الدُّنيَا أيضاً، فيعْطِيكَ اللهُ جلّ شأنُه، من راحَةِ النَّفْسِ، من العَافيَةِ، من السُّمْعَةِ الطَّيّبَة، من الحِمَايةِ من الأذَى الذي يَحِيقُ بكَ، من النَّجاةِ من الكَوَارِثِ، من خَصِّكَ ببعضِ الكَرَامَاتِ.

﴿وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾. القَتَر هو الاحْتِقَانُ الذي ينجُمُ نتيجَةَ الإرْهَاقِ والقلقِ، فهؤلاءِ لا تَحْتَقِنُ ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ بغَمَامَاتٍ داكِنَةٍ، بل تبقى مُشْرِقَة مُستقرَّةً رغمَ الهَلعِ الذي ينشِبُ بين النَّاسِ في ذاكَ اليَومِ العَظِيمِ لأنَّ النَّتَائجَ ما تزالُ غيرَ معْلُوْمَة، ولا أحدَ يعلمُ ما الذي ستكونُ نتيجتُه. والنَّاسُ جميْعَاً أصبحُوا في واقِعِ الأمرِ سواءً الذين كانُوا يؤمِنُون بالآخِرَة، أو الذين لم يكُونُوا يؤمِنُون. ولذلك يحدُثُ الاضْطِرابُ بينَ النَّاسِ عمَّا سيحصُلُ بعد مِيْزَانِ الأعمَالِ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً* وَنَرَاهُ قَرِيباً* يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ* وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ* وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً* يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ* وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ المعارج ٦– ١٣.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ* لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ* وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ* وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ* أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ عبس ٣٤– ٤٢.

فهؤلاء: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ يوم الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الأنبياء١٠٣. ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن ٦٠

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة٢٣، ٢٢. هي نضَارَةُ الإيمانِ، نضَارَةُ الإحسَانِ في العملِ خالِصاً لوجهِ اللهِ تَعَالَى. هؤلاء تَعِبُوا في الحياةِ، تَعِبوا تَعَباً جميلاً، وهذه نضَارَةُ التَّعبِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

بعدَها قال: ﴿وَلاَ ذِلَّةٌ﴾. أحياناً تنظرُ إلى شخْصٍ، فترى الذُّلَّ في قسَمَاتِ وجهه، ويكونُ وجهه مُحْتَقِناً أرهَقَهُ ﴿قَتَرٌ﴾. وقد استَولَتْ غمامةٌ داكِنَةٌ على قسَمَاتِ وجهِه، وأطْفَأَتْ فيه نورَ الإنسانِ الطَّيِّبِ، فيُصبحُ وجْهُه مُنطفِئاً قاتِمَاً، ذلكَ أنّه قد أرْهَقَ نفسَه بالمَعاصِي والتَّجَاوُزَاتِ على حُدُودِ

اللهِ، فيظهْرُ أثرُ ذلك على وجهِه. والمُؤمِنُ الذي ينظُرُ إلى الوجُوهِ بنورِ اللهِ، يعلمُ ذلك بمجرَّدِ وقوعِ بصَرِه على هذا الوجْهِ القَاتِم، فلا يأمَنُه. هنا يتَحوَّلُ هذا الوَجهُ إلى مِرْآةٍ لداخِلِ هذا الإنسانِ في ناظِرَي هذا المُؤمِن التَّقِي. وهذه من كَرَامَات اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى لِمَن يصْطَفِي من عِبادِه.

إذن: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ﴾. فَمَن هم الذينَ يحْظوْنَ بكلِّ هذه الكَرَامَاتِ الإلهيَّة في الدُّنْيا، والآخرَة؟

جاءَتْ خاتمةُ الآيةِ الكريمةِ مُبيّنةً ذلك: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. اللهمَّ اجعَلْنا مِن ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

جعلَهُم اللهُ أصحَاباً للجنَّةِ، كمَا لو أنَّ اللهَ يجعلُكَ صاحِباً لبيْتٍ، لمَزْرعَة، لأيّةِ مُمْتلكَاتٍ تمتلكها، ويجعَلُكَ صَاحِباً لها. فكذلكَ يجعَلكَ اللهُ مَالِكاً في الجَنّةِ، فتكونُ ﴿فِيهَا﴾ صَاحِبَ مُمْتلكَاتٍ ومُقْتَنيَاتٍ.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. مهْمَا امتلَكْتَ من مُمْتلكَاتٍ ومُقْتَنيَاتٍ في الدّنيا، فلا تخلُدُ لكَ، ولا تخْلُدُ لها، بل هيَ لمرحَلةٍ مُؤقَّتةٍ تفتَقِدُ سِمَةَ الخلودِ، لكنْ في الجنَّةِ فكلُّ ذلك يبقَى لكَ، وتبقَى لهُ، وتُصبحُ خالدَاً فيه، كما يُصبِحُ خالداً فيكَ. والخلُودُ هو عكْسُ الزَّوَالِ، فلا تزُولُ مُمتَلكَاتُك عنكَ، ولا تزُولُ عنها، لأنكَ ما إن دخلْتَ الجَنّةَ، لن تزولَ عنْها، ولنْ تزُوْلَ عنْكَ.

الباب السابع والعشرون
عاقِبة السوء

﴿٢٧﴾

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

هذه هيَ الحقِيقَةُ التي يُخبِرُكَ اللهُ بِها، سواءَ أكنتَ مِن الذينَ ﴿أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى﴾.

أو مِنَ ﴿الَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ﴾. لكنَّ المُهمَّ في ذلك أنَّكَ مهما كسِبْتَ ﴿السَّيِّئَاتِ﴾. فإنَّ بابَ التَّوْبَةِ يلبَثُ مُشرَعاً أمامَك، فتَتَحوَّل –بموجب توبتِك– مِن سيِّئٍ إلى حسَنٍ، ومن حسَنٍ إلى أحسنَ. من مقترفٍ للسيّئات إلى مُحسِنٍ للحَسَنات مهما كانتِ ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ عظيْمَةً، لأنَّه لا شيءَ يعظُمُ على عفوِ اللهِ، وسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ. ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الأعراف ١٥٣.

و: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ هود ١١٤.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾.

فإذا كانَ الذي يعمَلُ الحَسَنَاتِ، يحصلُ على حقوقِه ﴿وَزِيَادَةٌ﴾. هنا فإنَّ الذي يقتَرِفُ السَّيِّئَاتِ يحصُلُ فقط على عقابِه دونَ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾.

﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ القصص ٨٤.

يزيدُكَ ثواباً عن إحْسَانِك، لكنَّه لا يَزِيْدُكَ عِقاباً عن سُوْئِك.

بدأتِ الآيةُ الكريمةُ بواوِ العطْفِ الذي جعلَها مَعْطُوفَةً على سَابِقَتِها، ومُسْتَأْنِفَةً لها. فبعدَما تبيَّنَت منْزِلةُ أهلِ الصَّلاحِ في الآيةِ السَّابقَةِ، تُبيِّنُ هذه الآيةُ مَنْزِلةَ أهلِ الفسادِ:

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ﴾. هناك عند الصَّلاحِ: ﴿أَحْسَنُواْ﴾. وهنا عند الفَسَاد، لم يَرِد: أساؤُوا. بل: ﴿كَسَبُواْ﴾. لأنَّ ﴿جَزَاء﴾. هذا الكسْبِ يكونُ مثلَه: ﴿جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾. مهمَا أَوْغَلتَ في ﴿السَّيِّئَاتِ﴾. ومهما كنتَ سيِّئاً فيها.

في حينِ هناك، تحصُلُ على حقِّك ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ عنْ حقِّك، لأنَّك كنتَ تُحْسِنُ العملَ الحَسَن.

يرِد الكسْبُ كثيراً مع الذَّنْبِ في القرآن، وقد مَضَى معَنا في الآيَةِ 8 مِن هذهِ السُّورَة: ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

ومن ذلك:

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ البقرة٧٩.

﴿لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة٢٦٤.

﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ آل عمران١٥٥.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ النساء٨٨.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ النساء١١١.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ النساء١١٢.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ المائدة٣٨.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ الأنعام٧٠

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾ الأنعام١٢٠.

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ الأنعام١٢٩.

﴿وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ الأعراف٩٦.

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ التوبة٨٢.

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ التوبة٩٥.

﴿لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ إبراهيم١٨.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ الحجر٨٤.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ الكهف ٥٨.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ فاطر ٤٥.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يس ٦٥.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ الزمر ٤٨.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الزمر ٥٠.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ الزمر ٥١.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فصلت ١٧.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ الشورى ٢٢.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ الشورى ٣٤.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً﴾ الجاثية ١٠.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين ١٤.

المُحسِنُ يأخُذُ أكثرَ من حقِّه، وهذا لا يكون كَسْباً، بل زيادةً لم يَبْذُلْ بها جهداً. وهو لا يَسْتَحقُّها، لكنْ يكْرِمُه اللهُ بهذه الزِّيَادةِ سواءً في الدُّنيَا أو الآخِرَة. لكن بالنِّسْبَة للمُسِيء، يكونُ العِقابُ نتيجةَ كَسْبِه، وبمثل كَسبِه، فهوَ كاسِبٌ للسَّيِّئاتِ، كما أنَّ الآخرَ مُحسِنٌ للحَسَنَاتِ، والآيةُ تبشِّرُ بمَكْرُمَةِ الزِّيَادَة التي يحْظَى بها المُؤمِنُ المُحْسِن، سواء في الحياةِ الدُّنيا، أو في الآخرَةِ. فهو يكونُ دوماً في مَكْرُمَةِ الزِّيَادَةِ، كما أنَّ المُسِيءَ يلقَى عواقِبَ اقْتِرَافِهِ السُّوءَ دونَ زيَادةٍ.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾. ليس: وترهَقُ وجوهَهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ كما بالنِّسْبَة لأهلِ الإِحسَان: ﴿وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ﴾. فأولئك تبدُو ﴿ذِلَّةٌ﴾ على كلِّ شيءٍ فيهم، وهم يغْرقُون في الذِّلَّةِ من رُؤُوسِهم إلى أقْدَامِهم: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾. ولذلكَ ترى الفَاجِرَ مُرهَقاً بالذُّلِ نتيجةَ الانْحِطَاطِ الذي يُمارِسُه، فهو مُرْهَقٌ ومُنْهَك نفسِيَّاً وبدنيَّاً، ومشوَّشُ الذِّهْنِ. كما أن المُحْسِنَ مُرتاحٌ ومُستَقِرٌّ نفسِيَّاً وبدنِيَّاً، ويتمتَّعُ بصَفَاءِ الذِّهْنِ، نتيجَةَ أعمالِ الإِحْسَانِ التي يُقدِّمُها بصدْقٍ لوجهِ اللهِ تَعاْلَى. فهو يشعُرُ مع كلِّ عملِ خيرٍ براحةٍ نفسيَّةٍ، وبدرجةِ قربٍ جديدةٍ إلى اللهِ، فيكونُ كل

عملِ خيْرٍ بالنِّسْبَة إليه صلاةً. في حينِ أنَّ الفاجِرَ يشعُرُ مع كلِّ عملٍ فاجِرٍ بإرهاقٍ نفسِيٍّ وبدنَيٍّ أكثر، وببعدٍ عن اللهِ أكثر. فتعَبُ العِبادةِ إشْراقٌ، وتعَبُ الفُجُوْرِ احْتقَانٌ، تعَبُ العِبادةِ راحةُ نفسٍ، وتعَبُ الفجُورِ اضْطِرَاب نفسٍ. والخَسَارَةُ في العبادَةِ، مهما كانَتْ كبيرةً، فهيَ ربحٌ كبير، والرِّبْحُ في المَعْصيةِ، مهما كانَ كبيرًا، فهوَ خسَارَةٌ كبيرَةٌ.

﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾. فلا أحدَ يمكِنُ له أن يعْصِمَ هؤلاء من العِقَابِ. وهذا بيانٌ بأنَّ هؤلاءِ محْرُومُون من الشَّفاعَةِ، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ غافر١٨.

فلا أحدَ يمكِنُ له أن يتدخَّلَ ليُنْجِيَهم من العِقابِ كائِناً مَن كانَ، فهؤلاء: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

ثمَّ استأنفَتِ الآيةُ الكريمةُ البيانَ:

﴿كَأَنَّمَا﴾. تشْبيْهاً: ﴿أُغْشِيَتْ﴾. احتُقِنَت وكُسِيَتْ ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعاً أجزاءً ﴿مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾. ﴿مِّنَ﴾ عتمَةِ ﴿اللَّيْلِ﴾ المُظلم.

فإضافةً إلى ما سَبَقِ من إنْهاكٍ بدنيٍّ ونفسيٍّ، ومذلَّةٍ وخنُوعٍ، وحجْبٍ حَتَّى الشفاعَةِ عنهم لكائنٍ مَن كانَ من خَلقِ اللهِ. هنا تكونُ وجوههم مُظلِمَة، قاتِمَة، مُنْطَفِئة، ﴿كَأَنَّمَا﴾. أظلِمَت ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾.

على هذا النَّحْوِ تَتَوَغَّل الآيةُ الكريمةُ في هذه التَّفاصِيلِ الدَّقِيقَة لتُبَيّنها عن حالِ الإنسانِ المُنتَهِك لحدودِ الله، المُستهْزِئ بآياتِه، وبشعائرِ المُسلمِين، وبذلك يكونُ متَّبِعَاً أهواءَه دون ضَابِطٍ، ذلك أن الضَّابِطَ الوحيدَ الذي يضبِطُ الإنسانَ عن جُمُوحِ غَرَائِزِه، هو شرْعُ الله تَعَالَى الذي يضمَنُ للإنسانِ حيَاةً سعيدةً هانئَةً، وجنّةً في الآخرَةِ.

ولكنْ لماذا يحصُلُ هذا؟

لأنَّ الالْتِزامَ بالتَّشْرِيعِ الإلهيِّ يمْنعُه منَ التَّجَاوُزِ على الآخرين، فهو يمْنَعُه من انْتِهاكِ أعراضِ النَّاسِ، يمْنَعُه من الاعْتداءِ على أموالِهِم، يمْنَعُه من الغِشِّ، من الاحتكَارِ، من الكَذِبِ، من قوْلِ الزُّوْرِ، من الرِّبَا، من القَتْلِ، من الظُّلمِ، من الاِحْتيالِ، وما إلى ذلك.

وعدمُ الالتزامِ بهذا التّشْرِيعِ الإلهيِّ، يجعَلُه يقعُ في كلِّ هذه الانتِهاكَاتِ دون رَادِعٍ، وبالتَّالِي فإنَّه يجعلُ نفسَه عُرْضَةً لهذا العِقابِ الذي تبيّنُه الآيَةُ الكريمةُ، وذلك رَدّاً على الانتِهاكَاتِ المُرَوِّعَة التي أوقَعَ نفسَه فيها، وأصرَّ عليها:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ الجاثية ٢١.

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقتصُّ لحقوقِ المَظلُومِ من الظَّالِم، في الدُّنيا، وفيْ الآخِرةِ، واللهُ هو الحقُّ كلُّه، لا يدَعُ حقّاً إلَّا ويُعيدُه إلى صاحبِه مهما كانَ صغيراً أو كبيراً.

اختُتِمَت الآيةُ الكريمَةُ ببيان: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وهي ذاتُ الخاتمةِ التي وردَت في الآيةِ السَّابقة بالنِّسْبَة للمُحْسِنين، لكنْ بخلافٍ بين في كلمةٍ واحدة، فهناك: ﴿الْجَنَّةِ﴾. ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وهنا: ﴿النَّارِ﴾. ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وشتَّانَ بينَ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾. ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الحشر ٢٠.

لكنَّ هذا التَّشَابُهَ بين الآيتَين بخلافِ الكلمتَين، يشِيرُ لأنَّ المُسِيئين يمكِنُ لهم أن يتَحوّلُوا من خلالِ التَّوبَةِ إلى مُحْسِنينَ، دونَ مَشقَّة، وأنَّ هذا التحوّلَ ليسَ فوقَ طَاقَاتِهم إذا عَزَمُوا على ذلك، وعندئذٍ يتحَوّلُون من: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. إلى: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. والأمرُ يكونُ مُعاكِساً أيضاً، فالمُحْسِن أيضاً عليه أن يُحافِظَ على إحْسَانِه، لأنَّه يمكِنُ له أن ينقَلِبَ إلى مُسِيء، وعندئذٍ سيتَحَوَّل من ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. إلى: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. فكم من مسيءٍ انقلبَ بعدَ عمْرٍ من السُّوءِ إلى مُحسِنٍ، وكم من مُحْسِنٍ انقلبَ بعد عمرٍ من الإحسانِ إلى مُسِيء؟

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها عن النبي صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّمَ "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"[١].

[١] رواه أحمد

الباب الثامن والعشرون
متاهة التكهّنات

﴿٢٨﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

العِبادةُ هنا هي عَقيدةُ الوسيْطِ التي بمُوجِبِها يعتقِدُ الإنسانُ بأنَّ هذا الوسِيطَ لديهِ إمْكَانَاتُ النَّفْعِ، أو الضُّرّ في الدُّنيا، وكذلكَ لديهِ إمْكَانَاتُ التَّوَسُّطِ لدى اللهِ جلَّ شأنُه، لرفع العِقَابِ عنهُم وإدخالِهم الجَنّةَ.

وبذلك يضْفُوْن على هذه المَعْبُودَات هالَةً من القَدَاسَةِ، وهي مَعْبُودَاتٌ مُختلِفَةٌ، يمكنُ أن تكونَ من الحَيَوَان، كالأبقارِ والعُجُولِ، وما شابَهَ، أو الأشجارِ، مثلَ مناةَ والعزة، أو منَ الحِجَارةِ، مثلَ التَّماثيلِ وأحياناً تكونُ هذه التماثيلُ لأشخاصٍ سواء كانُوا صالِحِين، أو غيرَ صالِحِين. أو من الأنبياءِ، مثلَ عيسى عليه السَّلامُ، أو من الجِنِّ، أو يضْفُوْن هالةً من القداسَة على الشَّيطَانِ، فيعبُدونَه وفقَ عقيدةٍ مَفَادُها: أنّه يشكِّلُ قوّةً، فإذا امتَلَكَ صلاحيّةً في الآخِرَة، سينفَعُ مُريدِيه، وإن لمْ يمْتلِك، لن يكونَ بوسعِه أن يَضُرَّهم. إضَافةً إلى ذلك فإنّهم يعقِدُون عليه آمالَ تحقيقِ الخَير، ودفعِ الشَّرِّ في الدُّنيا، كونهم يولُّونَه ويُقدِّسُونَه، وهو يمتلِكُ سلْطَةً، مثل بَثِّ الوَسْوَسَةِ، وما إلى ذلك.

مثلُ هذه العقَائِدِ كانَت مَوْجُوْدَة عبر الزَّمنِ، وما يزالُ بعضُها موجوداً، ولعلّها ستبقَى موْجودةً ما بقيَتِ الحياةُ. ولذلك فإنَّ القرآنَ يتوقَّفُ عندَها باسْتِفاضَةٍ لأنّها تتفرَّعُ عبرَ الزَّمَنِ، بَيدَ أنّها في النِّهايَة تلتقِي وتتّحِدُّ في عقيدةِ الشِّركِ باللهِ. وهذا اسْتِئنافٌ بديعٌ للآيةِ ١٨ : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

إذن تسْتَهلُّ الآيةُ الاسْتِئنافيّةُ الكريمةُ بيانَهَا بـ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾. أي وعندما نجمعُ النَّاسَ ﴿جَمِيعاً﴾ يومَ القيامةِ.

﴿ثُمَّ﴾. -بعدَ أن نجمعهم-: ﴿نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾. وذلك حَتَّى يواجِهَهم مع بعضِهم البعضِ. فهنا يومُ الفصْلِ الكبيرِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ الحج١٧. وهذا الفَصْلُ لا يتَفَاجَؤُون به، بل إنَّ اللهَ قد أعلَمَهم سابقاً في الدُّنيا:

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ﴾ النحل٣٩.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ الجاثية١٧.

فهنا إتاحَةٌ مُبارَكَةٌ ليُراجِعَ الإنسانُ حِسَابَاتِه، لأنَّ ذلك كلَّه لم يقعْ بعدُ، لكنَّه إذا عانَدَ وأصرّ على الشِّرْكِ، أو الإلحادِ، أو الإنكارِ، وما إلى ذلك، فلا بدّ أن يُوَاجَه بِما تحَذِّرُ منه الآيةُ الكريمةُ، التي هي تحْذيرٌ، وبذات الوقتِ هي دعوَةٌ لليقَظَةِ، والمُرَاجَعة، وعدمِ الانجِرَافِ خلفَ مَتَاهَةِ التَّكَهّنَات. فهذه فرصةٌ ذهبيَّةٌ للإنسانِ الذي به شيءٌ من نَزَعَاتٍ تكهّنيّةٍ كي يتراجعَ ويسْتغْفِرَ اللهَ، ويتُوبَ إليه. والقرآنُ بعُمُومِه هو بيانٌ للإصلاحِ، وفُرَصٌ ثمينةٌ للتَّوبةِ، فهو يُزيدُ الصَّالحَ صَلاحَاً واستِقَامَةً، ويمسِكُ بيَدَي الفَاسِد كي يُخرِجَه من قعرِ ظُلُماتِ الفَسادِ، لكِنْ عليه أنْ يقولَ صادِقاً: يا اللهُ، أن يَسْتغِيثَ صادِقاً: يا مغيثُ. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران١٣٥.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ المزمل٢٠

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة١٦٠.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ آل عمران٨٩.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً* إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ النساء١٤٥، ١٤٦.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الأعراف١٥٣.

حَتَّى المَلَائكَةُ يسألُونَ اللهَ المَغْفِرةَ للتَّوابيْن: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ غافر ٧.

يبيِّنُ اللهُ وبشكلٍ تصويريٍّ بليغٍ بحيْثُ يمكُنُ للقارئِ أن يصوِّرَ المشهدَ في مُخَيّلتِه، لأنَّ الآيةَ هي مَشْهَديَّة وتَصْوِيريّة. فبعد أن أوقفوا: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾. أي الزَمُوا مكانكم. فعندمَا تقولُ لشخْصٍ: مكَانَك. أي: الزمْ مكانكَ ولا تتحرَّك. ولله المَثَلُ الأعلَى. هنا: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾. ويمتَثِلُون للأمرِ: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾. أي فقَسَمنَاهم إلى قِسْمَين، بحيثُ أصبَحُوا هم في موضِعٍ، وأصبحَ الشُّركَاءِ في موضعٍ على شكلِ صَفَّين مُتَقَابلَين. وكلمةُ ﴿فَزَيَّلْنَا﴾. بالغَةُ الدِّقّة في موضِعٍ بالغِ الدِّقّة كذاك، الموضعُ الذي يُزَال فيه كل لبْسٍ، والكلمةُ من الإزَالةِ، عندما تزيلُ شيئاً عنْ شيءٍ. إذن، بفَاء التَّعقِيب: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾.

عندَ ذاك يتبرَّأ الشُركَاءُ منهُم: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ وهم يقِفُونَ في الصَّفِ المُوَاجِه لهم بعدَ فصْلِهم عن بعضِهم البعْضِ: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

لماذا يحدُثُ هذا؟ يحدثُ حَتَّى يحصُلَ الشُّركاءُ على البرَاءَةِ، لأنَّ المُشْرِكين كانوا يعْقِدُون عليهم الآمالَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ الزمر ٣. وما إلى ذلكَ من تَكَهّنَاتٍ.

الباب التاسع والعشرون
براءة الشركاء

﴿٢٩﴾

﴿فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾

يحكمُ اللهُ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾. وهو قدْ شهِدَ الحَقِيقةَ في الدُّنيا ويعلَمُ براءَتَنا ممّا تصِمُونَنا به: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾. لم نكُنْ نعلَمُ عن تلكَ العِبادةِ شيئاً، ونغْفَلُها تماماً.

وها نحنُ نتفاجَأ الآنَ بعبادَتِهم لنا في الدُّنيا. والحَقيقَةُ التي بدَتْ لنا الآن: أنكَم أَقْحَمْتُم علينا قُدْسيَّةَ العِبادَةِ من تِلقَاء أنفُسِكِم.

الباب الثلاثون
تبَعية الدنيا وتبَعية الآخرة

﴿٣٠﴾

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾

﴿هُنَالِكَ﴾. في زمانِ ومكانِ الآخرَة: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾. ترَى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ما كانَتْ عليه في الدُّنيا، لأنَّ هوَ الذي سيكونُ الحَاضِرَ، وهنا حاضِرُ الدُّنيا الآن، سيتَحوَّلُ إلى سالِفٍ ﴿مَّا أَسْلَفَتْ﴾. أي ما عمِلت في وقتٍ سَلَفَ.

﴿وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾. الجُملةُ مكثَّفة تبيِّنُ بأنَّ كلَّ إنسانٍ يُوْلَدُ بالفِطْرَة مُؤْمِناً بوَحْدَانيّة اللهِ تَعَالَى، وعلى هذا الأساسِ يُوْلَدُ. فهوَ يأتِي من اللهِ، وما دامَ قد أتَى من اللهِ، فلا بدَّ من العَودَةِ إليه. وجاءَت كلمةُ الرَّدِّ بياناً بأنَّ اللهَ هو الذي يأتِي بالإنسانِ، وهو الذي يرُدُّه إليه. ثم جاءَت ﴿مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾. لتَبُثّ الطُّمَأنِيْنَةَ إلى الإنسانِ بأن حقَّه عند مَولاه لا يضيْعُ لأنَّه المَولَى ﴿الْحَقِّ﴾.

إذن: ﴿هُنَالِكَ﴾. في ذاكَ الزَّمانِ والمكانِ: يرى الإنسانُ ما كانَ يعمَلُ هنا، فـ ﴿هُنَالِكَ﴾. هو امْتدَادٌ لـ هنا. و ﴿هُنَالِكَ﴾. هو تَتْويجٌ لـ هنا.

فـ: ﴿وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾. حَتَّى: ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾. في ذلك اليومِ العَظِيم: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ الطارق ٩.

يظهَرُ كلُّ إنسانٍ على حقيقَتِه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً*اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ الإسراء ١٣،١٤.

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الجاثية ٢٨.

إنه يومُ الحقِّ الأكبرِ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً* وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً* وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ* فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً* وَيَصْلَى سَعِيراً* إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً* إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ* بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ الانشقاق٧– ١٥.

عن النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّمَ:

"لِتَتْبَع كُلّ أُمَّة مَا كَانَتْ تَعْبُد فَيَتْبَع مَنْ كَانَ يَعْبُد الشَّمْس الشَّمْس وَيَتْبَع مَنْ كَانَ يَعْبُد الْقَمَر الْقَمَر وَيَتْبَع مَنْ كَانَ يَعْبُد الطَّوَاغِيت الطَّوَاغِيت."

تُخْتَتمُ الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَضَلَّ﴾. من الضَّلالِ. والآيةُ تُخبِر هؤلاء في الدُّنيَا بأنَّهم في ضلالٍ، وتُطلعُهم على الغيبِ الذي سيحصُلُ، حَتَّى يتَرَاجعُوا. أمّا إذا أَصَرُّوا وعانَدُوا على الاستهزاءِ بآياتِ الله، فيكونون قد عمِلُوا ذلك وهم على بيِّنَة بِما سَيَؤُولُوْن إليه، فلا حجّة لهم على الله: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُواْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ البقرة١٦.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ القصص٨٥.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الزمر٢٢.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الملك٢٩.

لقد خلقَ اللهُ الإنسَانَ بالفطرةِ على الإيمانِ، ثم إنَّه عندَمَا يكبرُ يرْشِدُه إلى مَسَالِكِ الصَّوَابِ والحَقُّ، إذا ضلَّ السَّبيلَ، ومهما لبِثَ في الضَّلالِ، فإنَّ اللهَ تَعَالَى شَأْنُه يتِيْحُ له فرصَةَ التَّوبَة. فكلُّ ما هوَ دونَ الإيمانِ بوَحْدَانيَّة اللهِ عزَّ وجلَّ، يُوْدِي بالإنسانِ إلى ضلالٍ في الدُّنيا، وكذلك يضِلُّ عنه في الآخرةِ. وتبيِّنُ الآيةُ بأنَّ هذا بذاتِه افتراءٌ على هؤلاءِ الشركاءِ الذين سيتَبَرَّؤون منهم، قائلِين لهُم: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾. وهم يُشهِدُونَ اللهَ على هذه الحَقِيقةِ.

الباب الواحد الثلاثون
موعظة التقوى

﴿٣١﴾

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾

أسئلةٌ كُبرَى تبقَى مَطْرُوحَة في التَّنزِيل الحكِيمِ على إنسانِ كلِّ زمانٍ ومكانٍ. وهي تبيِّنُ أفضالَ اللهِ الكُبرى على الإنسانِ من جهة، ومن جهةٍ أخرى، قُدرةَ اللهِ على ما لا يقدِر عليه أحدٌ غيرُه قط.

﴿قُلْ﴾. أمرٌ من اللهِ لرسولِه أن يواجِهَ بالقَوْلِ البيِّن أولئكَ النَّاسَ الذين كانُوا في زمانِه. وبعد ذلك يلْبَثُ القوْلُ مَفتوحاً أمامَ جميعِ النَّاسِ عبرَ الزَّمن: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾. الخيراتُ التي للإنسانِ من السَّماءِ كثيرةٌ، منها المطَرُ، وأَشِعةُ الشَّمْسِ. فإذا كان المطَرُ أساسَيَّاً للزَرْعِ، فالشَّمسُ أيضاً أَسَاسِيَّة له، إضافةً إلى الاستفادَةِ من أشعةِ الشَّمسِ لمنافعَ كثيرةٍ أخرى. وكذلك القمَرَ الذي تُعرَفُ من خلالِه الشُّهُور، وما إلى ذلك من مَنَافعِ السَّماءِ التي نعْلَمُها، ولا نعْلَمُها.

﴿وَالأَرْضِ﴾. الرِّزْقُ الذي يجْنِيهِ الإنسانُ من خَيْراتِ الأرضِ، مثلَ: الحِجَارةِ، والتُّرابِ، والنِّفطِ، والحَدِيْدِ، وسائرِ المَعَادِن، والمياه، والمَحَاصِيْلِ الزِّرَاعِيَة، وما إلى ذلك من منافِعِ الأرْضِ التي نعْلَمُها، ولا نعْلَمُها.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ﴾. المَصْدَرُ الأَسَاسِيُّ للسمْعِ، بيدِ اللهِ، فلو شاْءَ، ما سمعَ أحدٌ شيئاً قط، ولكانَتِ المَخْلُوقاتُ كلُّها دون سَمْعٍ، وهو قادِرٌ، والأمثلَةُ موجُودَة على الأرضِ سواءً بالنِّسْبَة للإنسانِ، أو الحَيَوانِ، في عدمِ السَّمْع. فتخيَّلْ لو كنتَ مَحْرُوماً من المَنَافِعِ التي تنْتَفِع ينتَفِعُ بها الإنسانُ من خلالِ حاسَّةِ السَّمع.

﴿أَمَّن﴾. بمعنى: مَن غيرُ اللهِ ﴿يَمْلِكُ السَّمْعَ﴾. والذي يملِكُ، يمْكِنُ له أن يمْسِكَ.

﴿والأَبْصَارَ﴾. جاءَت ﴿والأَبْصَارَ﴾. جَمعَاً، في حينِ جاءَ ﴿السَّمْعَ﴾ مُفْرداً. ذلك أن ﴿السَّمْعَ﴾، هو سمْعٌ واحدٌ للنَّاسِ جَميعَاً. لكنْ يظْهَرُ أنَّ المَقصَدَ هنا لا يقْتَصِر على العَينِ فحسب، بل على البَصِيرَة أيضاً، كما أنَّ الحَدسَ أيضاً يكونُ بمَثَابةِ النَّظَرِ.

أمّا إذا كانَ المَقصَدَ على العيْنِ فحسب، فيُذكَرُ البصَرُ بصيغةِ المُفرَد واللهُ أعلم: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ الإسراء٣٦.

إذن: ﴿والأَبْصَارَ﴾. كلُّ ما يبصِرُه الإنسانُ ويَحْدسُه، فذلكَ يملِكُه اللهُ، وقادرٌ أن يمْسِكَ ذلك، وعندَها للَبِثَ الإنسانُ دونَ ﴿الأَبْصَارَ﴾. وتوجدُ أمثِلَة حيَّةٌ على الأرضِ سواء بينَ الإنسانِ أو بيْنَ الحَيوانِ.

﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾. إخراجُ جَنينٍ حيٍّ من أمٍّ مَيْتَةٍ، أو إخراجُ شجرةٍ خضراءَ من حبَّةٍ يابِسَةٍ.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾. إخراجُ جَنينٍ مَيْتٍ من أمٍّ حيّةٍ، أو إخْرَاجُ ثمَارٍ مَيْتَةٍ من نبَاتٍ حَيٍّ. فإلى جانبِ ثمرَةٍ يانِعَة، تجدُ ثمَرةً يابِسَةً مَيْتَةٍ على ذات النَّبتةِ الحَيّة.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾. هذا النِّظَامُ الكَونيُّ الدَّقِيقُ، مَن يُديْرُه بهذه الدقّةِ وهذه الحكْمَة؟

﴿فَسَيَقُولُونَ اللّهُ﴾. لأنَه لا أحدَ قط بإمْكَانِه أن يمْتلِكَ كلَّ هذه الإمْكَاناتِ وهذِهِ القدرَات غير ﴿اللّهُ﴾. ثم تكلَّلَتِ الآيةُ الكريمةُ بخاتمَةٍ على شكلِ مَوْعظةٍ:

﴿فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾. فلا يكفِي أنْ تؤْمِنَ بأنَّ ذلك كلَّه بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، بل أن تتّقيَ اللهَ، فيكُون اللهُ دومَاً في حِسَابَاتِك، لأنَّ كلَّ ما بِكَ هوَ من فضْلِ اللهِ عليكَ، وقادرٌ أن يَأْخُذَه منك، أيُّ شيءٍ فيكَ، أو أيُّ شيءٍ لديكَ. وقد بيَّنتِ الآيةُ من أرزاقٍ ومُمْتلكاتٍ، ثمَّ ما بكَ من مُدركَاتٍ بدنيةٍ: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾. أي اتّقُوا اللهَ في إيمانِكُم بهِ.

الباب الثاني والثلاثون
خطوات الحق وخطوات الضلال

﴿٣٢﴾

﴿فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾

﴿فَذَلِكُمُ﴾ القادِرُ على المَذْكُورِ في الآيةِ السَّابقَة: هو ﴿اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾. ﴿رَبُّكُمُ﴾ الذي يربِّيكُم وتتَربُّون على نعيْمِه في الأرزاقِ والأبْدَان، ويدْعُوكُم إلى ﴿الْحَقُّ﴾ لتُصْلحَ بِهِ حَيَاتُكُم.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾. فإمَّا ﴿الْحَقُّ﴾. وإمَّا ﴿الضَّلاَلُ﴾.

والذي لا يتَّبِعُ ﴿الْحَقُّ﴾، يكُونُ ﴿الضَّلاَلُ﴾ تَبَعَه. فالخطْوَةُ الأُولى من الجُنوْحِ عنِ ﴿الْحَقُّ﴾. هي خطْوَةٌ أولى في تَبَعيّة ﴿الضَّلاَلُ﴾. وكلُّ خطوةِ انحِرَافٍ عن اسْتقامَةِ ﴿الْحَقُّ﴾. هيَ خطْوةٌ في اِعْوجَاجِ ﴿الضَّلاَلُ﴾.

﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾. سُؤَالٌ إلى الإنسَانِ: بعد كلِّ هذا البيانِ المُفصَّلِ عنِ ﴿الْحَقُّ﴾. كيفَ ﴿تُصْرَفُونَ﴾. منَ ﴿الْحَقُّ﴾ الذي تصْلَحُونَ به ويُصْلِحُكم، إلى ﴿الضَّلاَلُ﴾. الذي تفْسَدُونَ به ويُفْسِدُكُم.

الباب الثالث والثلاثون
التطهّر من وباء الفسوق

﴿٣٣﴾

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾

كما أنَّ حقَّ اللهِ يحِقُّ للمؤمنُ التَّقِي، فذلك حقُّ اللهِ يكوْنُ ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ﴾. فيلقَوْنَ العِقَابَ في الدُّنيا والآخِرَة، بحق.

﴿أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾. تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ بأنَّ الفسوق يكمُنُ في ثَنَايا عَدمِ الإيمانِ، والذِي لا يؤمِنُ بالحَقِّ، ولا يتفاعَلُ مع إيمانِه بالعملِ الصَّالِحِ، يُصبِحُ فاسِقَاً مهمَا تزيَّا بزِيِّ الصَّلاحِ. وهذا تعزيزٌ لِما جاءَ في الآيَةِ السَّابِقَة: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾. لا يوجَدُ ﴿بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾. و﴿الضَّلاَلُ﴾، في الآيةِ يودِي بصَاحِبه إلى الفُسُوقِ. فـ: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾. فلا بدَّ لكلِّ فَاْسِقٍ أن تَحِقّ عليه ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾. في الدُّنيا، وكذلكَ في الآخِرَة.

فبذلكَ يمكنُ للإنسانِ الذي لا يُؤمِنُ، أن يتراجَعَ عن عِصْيانِه، وهذه الآيةِ تتِيْحُ له هذه الفرصَةَ الذَّهبيّةَ مهمَا كانَ عليْهِ من فُسُوقٍ، وَمهمَا أسْرَفَ على نفْسِه. فإذا آمنَ الإنسانُ واتَّقَى خرَجَ عن فُسُوقِه، وخَرَجُ فسُوقُه عنه، تبَرَّأ مِن فُسُوقِه، وتبَرَّأ فسُوقُه منه، وما عادَ فاسِقَاً.

الباب الرابع والثلاثون
عجز الشركاء

﴿٣٤﴾

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

فَمَن يُمْكِنُ له أنْ ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾. والذي يُمْكِنُ له ذلكَ، أحَقُّ أن يُعبَدَ. ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فإنْ كانَ هناك مَن يقْدِر عَلى ذلكَ، ليَخلُقَ إنسانَاً، ثم يُمِيتُه، ثم يُعيْدُ إليهِ الحَيَاةَ.

﴿قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾. دَعُوا الشِّرْكَ وآمِنُوا باللهِ الوَاحِدِ الأحَدِ الذي ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾. وهذا بمَثَابَةِ الإرْشَادِ لِمَن لا يؤْمِنُ باللهِ، أو لِمَن يعْتقِدُ بوجودِ شُرَكَاء له.

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾. كيفَ تَنْصَرِفُون عن الصِّدقِ إلى الرِّيَاءِ، عن الحَقِيقَةِ إلى الوَهمِ.

الباب الخامس والثلاثون
أحقّية الاتباع

﴿٣٥﴾

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

الخِطَابُ لأُولئكَ الذينَ يجْعَلُونَ مع اللهِ شُرَكَاء بمُختَلفِ أشْكالِ وألوَانِ الشِّركِ وتفَرُّعَاتِه، من تمَاثِيلَ، وأَضْرِحَةٍ، ورُسُومَاتٍ، ومُعْتَقَدَاتٍ مُختَلِفَةٍ الهَدَفُ منها جَمِيعَاً أنَّها يمْكِنُ أن تُقدِّمَ نفْعَاً، أو ترْفَعَ ضرّاً. فالحَقُّ الوحِيدُ: ﴿اللّهُ يُهْدَى﴾ إليه. ومَا دُونَ ذلك، ليسَ حقّاً مهْمَا تكهَّنَ الإنسانُ بأنه حَقٌّ.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾. بمعنَى: لا يوجَدُ أحدٌ قط ﴿مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾.

فاللهُ الحَقُّ هو الَذِي ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾. ذلك أنَّ ﴿الْحَقِّ﴾ هو واحِدٌ، وهوَ من عندِ اللهِ ﴿الْحَقِّ﴾.

واسْتِنَادَاً إلى هذهِ الحَقيقةِ الجَلِيَّة: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾.

مهما كانَت صفَةُ الذي تتّخِذُونَه شَرِيكَاً مع اللهِ، حَتَّى لو كانَ رسُولاً، فهو لا يملِكُ من أمْرِه ﴿إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾. فهو بحاجَةٍ إلى هِدَايَةِ اللهِ، ولا يمكِنُ أن يسْتغنِيَ عن هِدَايَةِ اللهِ له. فاللهُ الّذِي ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾. ومَا في القُرآنِ هو الهُدَى، لأنَّه من عندِ اللهِ.

بذلكَ فإنَّ اللهَ ﴿يَهْدِي﴾ يرْشِدُ الإنسانَ ﴿لِلْحَقِّ﴾. وهو ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾. وعلى قدرِ اتِّباعِ الإنسانِ لإرشَادِ اللهِ، يكونُ على حقٍّ، وبقدرِ انْحِرَافِهِ عن إرْشَادِ اللهِ، يكونُ على بَاطِلٍ.

واسْتِنادَاً إلى ذلك: ﴿قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾.

ثم جاءَت خاتمَةُ الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

﴿فَمَا لَكُمْ﴾. عبارةٌ اسْتفْهامِيَّة تعجُّبيَّة، عندما تَرَى شخْصَاً يقَعُ في خطَأٍ بيِّنٍ، وتَرَاه مُسْتمِرّاً فيه، تقولُ له: (ما لك). بمعنَى: هل فقدتَ رُشْدَك.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. أي اعْوِجَاجٍ تتّبِعُون وأنتم تضِلُّون عن ﴿الْحَقِّ﴾ الذي بيَّنَه اللهُ ﴿لَكُمْ﴾. ﴿فَمَا لَكُمْ﴾. أي هذا ليسَ ﴿لَكُمْ﴾. ولا ينْفعُكِم.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ﴾ تُضِلُّون عن عِبادةِ اللهِ الذي ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾.

يُرْوَى أنَّ رجُلاً قالَ النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "دُلَّني على عمَلٍ يُدخِلُ الجنَّةَ، فقالَ النَّاسُ: ماله.. ماله. فقال النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "أربٌ ماله".

الباب السادس والثلاثون
علم الله

﴿٣٦﴾

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

﴿أَكْثَرُهُمْ﴾. الأكْثريَّةُ السَّاحِقَةُ من هؤلاءِ كانُوا ينكِرُون وفْقَ ظنِّهم، بأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ من عندِ اللهِ، لكم بقيَت أقلّيّةٌ. فعندَ ذكْرِ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾.

فمعنَى ذلك بقاءُ أَقَلِّهم، وهؤلاءُ يجُوزُ أنَّهم كانُوا يُصَدِّقون بأن القرآنَ مُنزَّلٌ من عندِ الله، وأنَّ مُحمَّداً صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ رسول الله، لكن رغمَ ذلك ما كانُوا يتَّبعُونَه، وما كانُوا يعْمَلُون بِمَا جاءَ في القرآنِ.

فهذهِ الأقَلِّيَّة التي ما تَزالُ حَتَّى الآن مَوْجودَة، تُؤمِنُ بحقيقةِ أنَّ القرآنَ هو كِتَابُ اللهِ، وأنْزَلَه على رسُوْلِه محمّد عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ، لكنّها تنْكِرُه اسْتِكبَاراً، نظيرَ الأكثريَّةِ التي تنْكِرُه ظنّاً بأنَّه ليسَ من عنْدِ الله. بذلك: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً﴾. والظنُّ لا ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾. اِسْتِئنافاً لِما جاءَ في الآية السَّابقةِ، واِسْتِئنافاً للاسْتِئنَافِ:

﴿اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾.

الآن: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾. لم يقُلْ: ﴿مِنَ﴾ اليَقِينِ ﴿شَيْئاً﴾. لأن عكْسَ الظَّنِ هو اليَقِينُ، لأنَّ الأقَلِّيَة كانَت على يقيْنٍ، لكنَّها رغمَ ذلك، لبِثَتْ مثلَ الأكثريَّةِ تتَّبِعُ غيرَ ﴿الْحَقِّ﴾. فلا يكْفِي أنْ توقِنَ بالحقِّ، بل تتَّبِعُ الحَقَّ وتتفَاعَلُ معَه تصْدِيقاً لِيَقيْنِكَ.

الباب السابع والثلاثون
التكامل الخالص

﴿٣٧﴾

﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ﴾.

عهدٌ حَاسِمٌ مِن اللهِ للنَّاسِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، بأنهَّ يحْفَظُ القرآنَ، وبذلك فقد أصْبحَ عَصِيًّاً على أيِّ كائنٍ أنْ يُحرِّفَه، سواء بحذْفِ شَيءٍ منْه، أو بإضَافةِ شيءٍ إليهِ.

هكذا بوعْدٍ مُطْلَقٍ من اللهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى﴾ في أيِّ وقتٍ من الأوْقَاتِ وفي أيِّ مكانٍ من الأمْكِنَةِ ﴿مِن دُونِ اللّهِ﴾. وهذا بيانٌ بأنَّ القُرْآنَ هو بكَامِلِه خالصٌ من عندِ اللهِ، وكلُّ كلمةٍ فيه، أُنزِلَتْ من السَّماءِ على قلبِ رسولِ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ. ولا يمْكِنُ لأي شكْلٍ من أشكالِ الافْتِرَاءِ أن يَقْرَبَه ﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى﴾. أي هو غيرُ قابلٍ أن ﴿يُفْتَرَى﴾ عليه.

وهذا خيرُ بيانٍ بأنَّ اللهَ كانَ قادِراً على منعِ المُحَرِّفين من تحْرِيفِ ما سبَقَ من كتبِ اللهِ عزّ وجل، كما أنه منَعَ أيَّ مُحرِّفٍ من تحْرِيفِ القُرآنِ. وذلك حَتَّى لا يقوْلَ قائلٌ: كيفَ يسْتطيعُ مخلُوقٌ خلقَه اللهُ أنْ يُحرِّف كلامَ اللهِ، ألم يكن قادِرَاً على مَنعِه؟

فالآنَ، منعَ أيَّ مخْلُوقٍ كائِنَاً مَن كانَ أن يفْتَريَ على شَيءٍ من القرآنِ.

الأمرُ الآخرُ، أنَّ اللهَ الذي أذِنَ بتحْرِيفِ ما تَمَّ تَحْرِيفُه، لم يتْركِ النَّاسَ في الضَّلالِ، بل أنْزَلَ القُرآنَ مُؤَكِّدَاً للصَّحيحِ غيرِ المُحرَّفِ، ومُصحِّحَاً لِما تَمَّ تَحْرِيفُه من كُتُبٍ سَابقَةٍ. وفي ذلك حكمةٌ من اللهِ تَعَالَى شَأْنُه، لأنَّ القرآنَ سيَكُونُ آخرَ كتَابٍ سَمَاوِيٍّ يُنَزَّلُ إلى الأرضِ. وفي ذلك كلِّه حكْمةٌ منَ اللهِ الذي يقدِّرُ كلَّ شَيءٍ تقدِيْرَاً بِما يكونُ لصَالِحِ النَّاسِ.

فقد شاءَ اللهُ تبَارَكَ وتَعَالَى، أنْ يكونَ القرآنُ خَاتَمَ رِسَالَاتِه، وأنْ يحْفَظَه من أيِّ تحْرِيفٍ، لأنَّه لا كِتابَ آخر سيَأتي ليُصَحِّحَ. وقد أذِنَ لتحرِيفِ ما سَبقَ من رِسَالَاتِه، لأنَّ ثمّةَ كتاباً تصحِيحيَّاً سيَنزِلُ، وهو القرآنُ العظِيمُ. واللهُ تَعَالَى ذِكرُه إن شاءَ أذِنَ بأيِّ شيءٍ، وإن لم يَشَأ، لا يأْذَنُ، فبذلك شَاءَ، وكذلك لم يَشَأ.

وهذه حِكْمةٌ عظِيمةٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ، فلو شاءَ أذِنَ للمُحَرِّفين بتحريفِ القرآنِ، لعادَ النَّاسُ إلى ما سَبقَ من كُتُبِه، ولكنَّ عدمَ منعه المُحَرِّفين من تحْرِيفِ ما سبقَ، أصبحَ بمَثَابَةِ الدَّعوةِ إلى ما هوَ غير مُحرَّفٍ وهو القرآنُ الذي اختَتمَ به اللهُ عزَّ وجلَّ كُتُبَه إلى عِبادِه. وهكذا حَتَّى المَشِيْئَة، أو اللا المَشِيْئَة الإلهيَّةُ، تكونُ للإنسانِ، وليسَ عليه.

الأمرُ الآخرُ أنَّ الذي كانَ يعمَلُ بمُوجِبِ التَّحْرِيفِ دونَ أن يعلَمَ بأنَّه تحْريفٌ قبلَ نزولِ القُرآنِ، فهو لم يكُنْ يعلَمُ، لكن بعْدَ أن يعْلمَ مِن خلالِ كِتابِ اللهِ الأخيْرِ المُتَضَمِّن بيانَ التَّحرِيفِ من الصَّوابِ، أصبحَ الأمرُ بيِّناً، فالعَاصِي هنا يعْصِي اللهَ وهو على بيِّنةٍ من كِتابِ الله، القرآن. ولذلك شاءَ اللُه سُبْحَانَه وَتَعَالَى ألّا يأذَنَ لأحدٍ قط أنْ يتَجَرّأ على تحْرِيفِ القرآنِ الذي لا كِتابَ آخر سينْزِل منْ بعْدِه، كما أنَّه لا رسولَ آخرَ سيأتي بعدَ محمّدٍ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ.

فبرِسَالةِ القرآنِ المجِيدِ، وبرَسُولِيَّة محمّد صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ المائدة٣. ويقولُ اللهُ لأوّلِ مرّةٍ ما لم يقُلْ، ويتعهّدُ لأوَّلِ مرةٍ بِما لم يتعهَّدْ في التَّوْراةِ والإنْجِيلِ والزَّبُور: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر ٩.

بعد ذلك جاءَ بيانُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

تأكيدٌ بأنَّ القرآنَ هو كتابٌ تصْحِيحيٌّ يصَحِّحُ ما تمَّ تحْرِيْفُه من كُتُبٍ سابِقةٍ، وبذلك فهو الكتابُ التَّصْحِيحيُّ الذي يحتاجُه أهلُ الكِتابِ أيضَاً، ولعلَّ هذه من حكْمَةِ اللهِ جلَّ جَلالُه في الإذنِ بالتَّحْرِيفِ، هذا الإذْنُ الذي سيكوْنُ بمَثَابَةِ دعوةٍ إلى كتابٍ تصْحِيحيٍّ سينزِلُ من عندِ اللهِ على خَاتَمِ أنبِيَائِه ورُسُلِه، عليه وعليهم صلواتُ اللهِ وسلامُه. وهذا ما أُشيرَ إليه فيما أُنزِلَ قبلَ القرآنِ، وبذلك فإنْ كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ لم يجْعلِ القرآنَ خَاتَمِ كُتبِه ولم يجْعلْ محمّداً عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ خَاتَمِ رُسُلِه، لكان تحْرِيفُ القرآنِ أيضاً أمراً طَبِيعيّاً، لأنَّ هناكَ ما سيَأتِي ويُصَحِّحُ، وهناك

رسولٌ سيأتِي حامِلاً رسَالةَ كمَالِ الدِّينِ. لكنَّ هذا الكمَالَ حصَلَ في القُرآنِ العَظِيمِ الذي أنْزلَه اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى على قلبِ رسُولِه صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ.

﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أي جاءَ مُفَصِّلاً الفَرَائضَ والشَّرائعَ، ومُبيِّناً بشكلٍ تفْصِيليٍّ الحَلالَ من الحَرامِ، المَعْرُوفَ من المُنكَرِ، وما إلى ذلك من تنْظيمِ الحَياةِ وفْقَ منهجٍ قُرآنِي ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾. ﴿لاَ﴾ شكَّ في أيِّ شيءٍ في القُرآنِ وهو دونَ أي شَكٍّ خالِصٌ ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. جَاءَت العَالمِيَّةُ هنا لأنَّ القرآنَ سيكونُ كِتابَ العالَمِ الذي ما بعدَه كِتَابٌ. فلم يقلْ: ﴿مِن﴾ ربِّكم، بلْ ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فالإنسانُ أيُّ إنسانٍ هوَ في الحقيقَةِ كائنٌ عَالَميٌّ، لأنّ ربَّه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يوسف ١٠٤.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء١٠٧.

أيُّ إنسانٍ يأتِي بعدَ القرآنِ إلى العالَم، سيكونُ ﴿هَـذَا الْقُرْآنُ﴾ المُصَدَّقَ المُفَصَّل المُتَكَامِل الذي لا التِباسَ فيه له. ذلك أنَّ: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فهو كِتابُ التَّصْديقِ، وكِتابُ التَّفْصِيلُ الذي يحْفظُه اللهُ في كلِّ زمانٍ ومكان من الافْتِراءِ، وهو الكِتابُ الذي اكْتمَلَ فيه دِيْنُ الإسْلامِ للعالَمِ.

الباب الثامن والثلاثون
صدق القرآن

﴿٣٨﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

أهلُ العِنادِ ورغمَ كلِّ الشَّرح المُفَصَّلِ الذي يتفضَّلُ به ربُّ العالَمِينَ على عِبادِه، يدَّعُون بأنَّ القرآنَ ليسَ من عندِ اللهِ، وأنَّ محمَّداً صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ أتَى به من عنده.

يرْشِدُ اللهُ رَسوْلَه بألّا يقطَعَ الصِّلةَ بهؤلاء، بل أن يتَحاوَرَ معهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾. الافْتِراءُ في هذا السِّيَاقِ، بمعنى إنْسَابِ شيءٍ لأحدٍ بُهْتَاناً. أي ﴿يَقُولُونَ﴾ بأنَّ محمَّداً قد ألَّفَ القُرآنَ ونَسَبَه إلى اللهِ، وبذلك يكونُ قد ادَّعَى النُّبوّةَ. ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ إذا كانَ تأليفاً منّي، وكما تعلَمُون أنَّ إمْكاناتِي مُتَواضِعَةٌ، بلْ أنا رجُلٌ أُمِّيٌ، وهذه البَلَاغَةُ هي فوقَ إمْكاناتِي: ألِّفُوا مثلَ هذا القرآنِ، سورةً واحِدةً. ﴿وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ﴾. اسْتعِينُوا بأكثرِ النَّاسِ بَلاغَةً، إنْ كانَ بمَقْدورِه أنْ يَأتيَ ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾. والكلامُ هنا في زمنِ نبُوْغِ البَلَاغَةِ العَرَبِيَّةِ، أيْ عندَما جاءَ القرآنُ، كانَ النُّبُوغُ في البَلَاغَةِ العَرَبِيَّةِ وخاصَّةً الشِّعْر، في قوَّتِه.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقُولُون. أي: مهمَا حاولْتُم، سَيتبيَّنُ لكم ولغَيرِكم بأنَّكم لستُم ﴿صَادِقِينَ﴾. والنتيجةُ فأنا صَادِقٌ في نُبُوَّتِي لأنَّ هذا القرآنَ لا يمكِنُ لأحدٍ أن يَأتيَ ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾. لا أنا ولا غيري، لا فِي زَمَنِي، ولا منْ بَعدِي.

ولا يقتَصِرُ القرآنُ على قوّةِ بلاغَتِه، بل هناك دقَّةُ التَّشْرِيعِ والأَحْكَامِ، والإِخْبَارِ بالغَيْبِ الذي حصَلَ سابقاً، وما سيحصُلُ في المُستقبَلِ، وما قالَه القرآنُ يتحَقَّقُ من جيْلٍ إلى جيْلٍ، وتكتشِفُه العلُومُ الحَدِيثَةُ، ومن ذلك على سبيلِ المِثالِ دقّةُ تشْكِيلِ الجَنِينِ، وما إلى ذلك. فالعلمُ مهما تقدَّمَ فإنه لا يتقدَّمُ على القرآنِ لأنه لو حصَلَ ذلك لتراجَعَ القرآنُ وتقدَّمَ العلمُ عليهِ. لكن الحَقيقةُ كلّما يكتشِفُ العلمُ شَيئاً جديداً، يتبيَّنُ أصلُه في القرآنِ، وأحْيَاناً في الأحاديثِ النَّبويّةِ،

رغمَ أن الرَّسُولَ عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ كانَ في مرْحَلةٍ بِدَائيّةٍ من تطوُّرِ العُلُوم، فكلُّ ما نرَى اليومَ من مُنْجَزَات علميَّةٍ حَدِيثَة لم يكنْ لها أيُّ وجودٍ.

في ذاكَ العصرِ البِدَائيِّ قالَ القرآنِ على سبيلِ المثال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ النور ٤٠. وفي ذاكَ الوْقتِ لم يكُنْ باسْتِطَاعَةِ الإنسانِ أن يغُوْصَ إلى أعْمَاقِ البحرِ سوى أمتارٍ قليلةٍ بسببِ تَوَاضُعِ التِّقنِيَاتِ. لكن منْذُ أقل من مئةِ سَنَةٍ استطَاعَ الإنسانُ أنْ يغُوْصَ إلى أعمَاقِ البِحارِ ليكتَشِفَ العلْمُ أنَّ الظُّلُماتِ بالفعلِ تخْتَلفُ من طبَقَةٍ إلى طبَقَةٍ كلّمَا غَاصَ الإنسانُ أكثرَ في عُمْقِ البحرِ. ومحمدٌّ عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ لم يكُنْ يغوصُ في أعمَاقِ البِحارِ ليقُوْلَ: ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ولم يكُنْ طبيباً ليُصَوِّرَ بتلك الدِّقّة مَراحِلَ تشْكِيلِ الجنينِ، ويأتِي هذا إلى عالَمِ الحَيَوانِ، والجَمَادِ والنَّبَاتِ.

﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ بكلِّ هذه المُعطَيَاتِ القُرْآنيَّة ﴿وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

يلْبَثُ هذا الكلامُ مفْتُوحَاً عبرَ الزَّمَنِ لكلِّ مَن يَدَّعِي بأنَّ القرآنَ نتيجةُ عمَلٍ بَشَرِيٍّ.

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ الإسراء٨٨.

الباب التاسع والثلاثون
تفادي عاقبة السوء

﴿٣٩﴾

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

بعد ابتِدَاءِ الآيةِ السَّابقةِ بـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾.

تبدأُ هذه الآيةُ بـ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾. فما يقولونَه عن القرآنِ، إنّما يقولُونه بغيرِ عِلْمٍ، ولذلك فهم غير صَادِقين في أقْوَالِهم كما جاءَ في خاتمةِ الآيةِ السَّابقةِ.

وهنا يأتِي الاسْتِئنَافُ التَّوْضِيحِيُّ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾. فلو قرَؤوا القرآنَ قراءاتٍ مُتَأنيَّةً، لخَشِعَتْ قلُوبُهم، ولَعَلِمُوا أنَّه كِتابُ اللهِ.

وَرَدَ هنا العِلمُ، ثم وَرَدَ التَّأوِيلُ. والتَّأوِيلُ هو العَودَةُ، فآلَ إليه، أيْ رَجَعَ إليه، وتُؤَوِّلُ الشَّيءَ إلى صاحِبِه، تُعيدُه إليهِ.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ آل عمران٧.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ الأعراف٥٣.

فالذي يُكذِبُ بالقرآنِ، لا يكونِ مُلِمّاً به بشكلٍ جيِّدٍ، أي يُكذِبُ جَهْلاً، وليس عِلْمَاً، ولذلك نرَى أنَّ بعضَ المُنْكِرين للقرآنِ، ومنهم مَن ألَّفَ العديدِ من الكُتبِ عن تَكذِيْبِ القرآنِ، وحَاضَرَ في عَشَرَاتِ النَّدَوَاتِ والمُؤْتَمَراتِ وهو ينكِرُ القرآنَ، وبعْدَ كلِّ ذلك عندمَا يقرأُ القرآنُ بشَكلٍ دَقيقٍ، يعلِنُ إيْمانَه بأنَّ القرآنَ هو مِن عنْد اللهِ. وقد حصَلَ مع العَدِيدِ من العُلمَاءِ من اختصَاصَاتٍ مُختلَفَةٍ.

﴿كَذَلِكَ﴾. أي كَما يُكذِبُ هؤلاءِ دونَ علمٍ ودونَ تَأْوِيلٍ: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. بآيَاتِ ورُسُلِ اللهِ.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾. مثلَما حصَلَ مع قوْمِ نوْحٍ، وشُعَيْب، وعادٍ، وثَمُود، وما إلى ذلك سواء بأشكالٍ جَمَاعِيَّة، أو بأشكالٍ فرْدِيَّة. وبذلك فإنَّ كلَّ مَن يتَّبعُ ﴿الظَّالِمِينَ﴾. يمْضِي بنفسِه كي يلقَى عَاقِبَتهم.

وهذا تحْذِيرٌ حَتَّى يصْلِحَ الإنسانُ المُكذِّبُ بآياتِ اللهِ من شَأنِ نفسِه تَفَادِيَاً لـ ﴿عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

الباب الأربعون
أهلُ الفَساد

﴿ ٤٠ ﴾

﴿وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

﴿وَمِنهُم﴾. مِنَ الذين يصِلُهُم القُرآنُ: ﴿وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾. بالقرآنِ الذي تبلِّغُه.

﴿وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ﴾. وحصَلَ هذا في زَمانِ النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، وما يزالُ مُسْتَمرّ الحُصُولِ.

﴿يُؤْمِنُ﴾. بالمُضارِعِ، وكذلكَ: ﴿لاَّ يُؤْمِنُ﴾. فهناكَ مَن يؤْمِنُ بالقرآن على مَدَارِ الزَّمَنِ، وهناكَ مَن لا يؤْمِنُ به كذلك على مَدَارِ الزَّمَنِ.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾. الذين يفْسِدُونَ في الأرْضِ، سواء مِنَ الذين يُؤمِنُون بالقُرآنِ، أو الذين ﴿لاَّ﴾ يؤمِنُون ﴿بِهِ﴾. فالمُؤمِنُ أيضاً يمكِنُ له أن يُشِيعَ الفسَادَ في المجْتَمَعِ. والفَرقُ أنه يكونُ بذلك قد خرَجَ عن قَاعِدَةِ إيْمانِه، لكنَّ الكافِرَ حينمَا يفْسِدُ لا يكونُ قد خَرَجَ عن قادةِ كفْرِه، لأنَّ الكفْرَ بذاتِه فَسَادٌ.

الباب الواحد والأربعون
منهج التبرئة

﴿٤١﴾

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

هذا التَّوجيْهُ الحَكِيمُ يكونُ للنَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ أولاً، ثمَّ يبقَى لعمُومِ المُؤمِنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا مُحمَّد، فقد أدَّيتَ ما عليكَ. ﴿وَإِن﴾ كذَّبُوكُم يا أُمَّةَ مُحَمَّد، فقد أدَّيتُم ما عَليْكُم.

﴿لِّي عَمَلِي﴾. على أسَاسِ الإيمَانْ بطاعَةِ شرْعِ اللهِ.

﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾. على أَسَاسِ لا إيمَانِكُم بطاعَةِ شرْعِ اللهِ.

﴿أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾. لا يصِلُكُم ثَوابُ ﴿مِمَّا أَعْمَلُ﴾.

﴿وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. لا يصِلُنِي عِقاب ﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وهذه الآيةُ تَتكامَلُ في مَضْمُونِها مع سُورَة الكَافِرُون: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿1﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿2﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿3﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴿4﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴿5﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴿6﴾.

الباب الثاني والأربعون
أسماءٌ صمّاء

﴿٤٢﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾

ليس كل مَن يسْتمِعُ الحَقَّ، يسْتمِعُ ليُصْلِحَ من شأنِ نفسِه من خِلَالِ الاسْتمَاعِ، فهناك مَن يسْتمِعُ الحَقَّ، وهو مُصَمِّمٌ على البأطِلِ الذي يكونُ فيه، يسمَعُ الحَقَّ بموَاقِفَ مُسْبقَةٍ أعَدَّها وأصَرَّ بأنّه لنْ يتزَحْزَحَ عنها قبلَ أن يسمَعَ. فنيَّةُ الإصْلاحِ تكونُ مَعدُومَةً لديه، وكلُّ ما يعْنِيه من الاِسْتمَاعِ، أنْ يتكَهَّنَ بِما يجعَلُه يَزْدَادَ تمسُّكاً بباطِلِه من خلالِ الاِسْتمَاعِ.

وقد شبَّهَ اللهُ جلَّ جلالُه هؤلاءِ بـ ﴿الصُّمَّ﴾. والأَصَمّ ﴿لاَ﴾ يعقِلُ الكلامَ الذي يُقالُ كوْنه لا يسْمَعُ شيئاً بسببِ عَطَبٍ في حاسَّة السَّمعِ لديه.

فهؤلاء الذين يسْتَمِعُون القرآنَ بمواقِفَ مُسْبقَةٍ منه، هم مثلُ أولئك ﴿الصُّمَّ﴾ الذين ﴿لاَ يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً من المَسمُوعِ كونهم لا يسمعونَه. فقد جعلُوا ﴿الصُّمَّ﴾ في عُقولِهم، فيبقَى العقلُ جَامِداً تجاه ما يسْمَعُ، وهذا الجُمودُ هو ليس في العَقلِ، بل هم أقْحَمُوه على عقُولِهم حَتَّى لا يتزَحْزحُوا عن تَكَهُّناتِهم المَوْبُوءَة تجاهَ التَّنْزيلِ الحَكِيمِ، وتجاه رَسولِ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، بل يزْدَادُوا صَلَابَةً في مواقِفِهم مهما تقَدَّمَت لهم من بَرَاهِيْنَ دَامِغَة، وعندها حَتَّى عندما يجِدُونَ أنفُسَهم عَاجِزين عن الرَّدّ بحيثُ لا يمكِنُ لهم نُكْرَانُ هذه البَرَاهِينِ المَلمُوسَةِ، فيدَّعُون بأنَّ رسُولَ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ ساحِرٌ، وأنَّ كُلَّ ذلك من أعمالِ السِّحْرِ. فيلجَؤون لأَيِّ شيءٍ حَتَّى يفرِضُوا هذا الجمُوْدَ المَقِيْتَ على عُقولِهم، وبالتّالي يلبَثُونَ في مواقِفِهم المُسْبقَة التي يسْتَهْزِئونَ من خلالِها بالقرآن وبكلِّ ما هو مُسلِمٌ. وهذا هو ظلْمُ النَّفسِ في هذا العِنادِ الشَّدِيدِ.

تضَعُنا الآيةُ الكريمةُ أَمامَ جَمَاليَّة العِلاقَةِ بين السَّمْع، وبينَ العقلِ، وأنَّ العقْلَ الذي لا يتفَاعَلُ مع السَّمعِ لا يكونُ عقْلاً، والسَّمعُ الذي لا يؤَثِّرُ في العقْلِ، لا يكونُ سَمعاً.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾

إذن، ﴿فَأَنتَ﴾ يا مُحَمَّدُ غيرُ قادِرٍ أن تجعَلَ الأصمَّ يعقِلُ ما تقُولُ مهما أسمَعْتَ صَاحِبَه من الحَقِّ، لأنّكَ مهما تقولُ فإنّهم قد أحْكَمُوا عُقولَهم بأغلَالِ الجُمُودِ.

هنا ومع هذا الصِّنْفِ المُوْغِلِ في بَرَاثِنِ الكُفرِ من قمَّةِ رأسِه إلى أخْمَصِ قدَمَيه، وهو يقِفُ على عِنادٍ بالغِ الشِّدّةِ لا يتزَحْزَحُ عنه قيْدَ شَعْرَة، ويلجَأُ إلى الغَمْزِ واللَّمْزِ والاسْتِهزَاءِ مهما حَاوَرْتَه بجدِّيَّةٍ، ومهما قدَّمْتَ له من أدلّةٍ وبراهِيْنَ. هنا تتركُه في ضَلَالِه دونَ أن يُؤاخِذَكَ اللهُ، لأنَّك فعلْتَ ما عليك، وأسمَعْتَه الحَقَّ. فهؤلاءِ أنعَمَ اللهُ عليهِم بنعمَةِ السَّمعِ، وهم ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ كما أخْبَرَتِ الآيةُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾. جاءَت ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾. لبيانِ أنَّهم في استِمَاعٍ، وليسَ في سَمَاعٍ، لأن الإنسانَ يمكنُ أن يأتيَه صوتٌ وهو لا يستَمِعُ إليه، فهو فقط يسْمَعُه بسبب انتِشَارِ الصَّوتِ الذي يَصِلُه، وثمَّةَ فرقٌ شَاسِعٌ بين سَمَاعِ الكلامِ، وبينَ الاسْتِمَاعِ إليه.

لذلك: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف ٢٠٤.

فليس: ﴿وَمِنْهُم مَّن﴾ يسْمَعُونك، بل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾.

الاستِماعُ هنا هو التَّركِيزُ على المَسْمُوعِ. فهم يُرَكِّزُون على المَسْمُوعِ، لكن على أسَاسِ الرَّفضِ المُسبَقِ له قبلَ أن يسْتمعُوا إليه.

لكِن مَا الغَايةُ من هذه الآيةِ الكريمةِ؟ الغايةُ واللهُ أعلم، حَتَّى يتجنَّبَ النَّبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ اليأسَ بسببِ عدمِ الاسْتِجَابةِ له، وتكْذيبِه من قوْمِه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الأنعام٣٣. والكلامُ يكونُ لأيِّ مُسْلِمٍ يلقَى الاسْتِهزاءَ منَ المُنكِرِين، فعلى ذلك ألّا يُؤثِّرَ عليه، فهؤلاءِ رغمَ أنَّهم يستمِعُون لآياتِ الله، إلَّا أنّهم كالصُّمّ، ولذلك فإنك تعجَزُ أن تُسْمِعَ الأصمَّ مهما حاولْتَ. هنا تأتي مَرْحلةُ أنْ تترُكَه بشَأنِه دونَ أن تُصَعِّد معه: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. فتَكْتفِي بقولِ الحقِّ، ويكونُ لك ثَوَابُ قولِ الحَقِّ، سواءً أَهدَى اللهُ ذاك المُستَكبِرَ، أو لم يهْدِه. وكما أن إِسْمَاعَ الأَصَمِّ فوقَ طاقَتِك، كذلك الأمرُ بالنِّسْبَة لإقناعِ مَن لا يريدُ أنْ يقْتَنِعَ.

ولعلَّ اللهَ يهديْهِ في مَرْحَلةٍ ما، وقد حصَلَ ذلك عبْرَ التَّاريخِ البَشَرِيِّ، بل ومِن هؤلاءِ فيما بعدُ أصبَحُوا من صَحَابةِ رسول الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، بعدَ سنواتٍ ليس من إنكارِ نبوّتِه فحسْب، بل مِنْ مُحَارِبَتِه أيضاً.

الباب الثالث والأربعون
أنظارٌ عمياء

﴿٤٣﴾

﴿وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾

جاءَ: ﴿يَنظُرُ﴾، وجاءَ: ﴿الْعُمْيَ﴾. والنَّاظِرُ في الآيةِ هو ذاتُه الأعْمَى، كما أنَّ الذي يستَمِعُ في الآيةِ السَّابِقَة هو ذاتُه الأصَمُّ.

﴿وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾. فهم يتمتَّعُونَ بالنَّظرِ، لكنْ في الآنِ ذاتِه: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾. فرغمَ تمتُّعِهم بالنَّظرِ، فهم عُمْيٌ.

﴿أَفَأَنتَ﴾ قادرٌ أنْ تُبَصِّرَ ﴿الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾.

يجوزُ أن يُسْتَنتَجَ من الآيةِ الكريمةِ أن ليسَ كلُّ مَن يرَى بعَينَيه، يبصِرُ بهما، وعلى النَّقِيضِ من ذلك تمَامَاً، فقد ترى شخْصَاً أعمى النَظَر، لكنَّه يبْصِرُ الحقَّ ويتّبِعُه.

فليسَ كلُّ مَن هو أعْمَى النَّظَرِ، أعمى القلْبِ، كما أنَّ ليسَ كلَّ مَنْ يبْصِرُ بعَينَيه، يبْصِرُ بقلبِه.

فهؤلاءِ كانُوا ينظُرُون رأْيَ العَينِ إلى شخصِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتكَامُلاً مع ما جاءَ في بيانِ الآيةِ السَّابقَة: كانُوا يسْتمِعُون بشكلٍ مُباشَرٍ لصَوتِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّمَ وهم ينظرُون إليه يقرَأُ الوحْيَ. لكنَّهم كانوا يُصَمُّون عن الاسْتمَاعِ للحقِّ، ويتَعَامُون عن رؤْيَةِ الحقِّ.

وعلى هذا النَّحوِ فقد شبَّهَهم اللهُ عزَّ وجلَّ في الآيةِ السَّابقَة بفاقِدِي السَّمعِ والعَقلِ، وفي هذه الآيةِ بفَاقِدي البَصَرِ.

الباب الرابع والأربعون
ظلم النفس

﴿ ٤٤ ﴾

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

هذه الآيةُ متّصلَةٌ اتِّصَالاً وثيقاً بالآيتَين السَّابِقتَين. فأشخَاصُ الآيةِ الأولَى، أنعَمَ اللهُ عليهم بِنعمَة السَّمعِ، ولكنَّهم جَمَّدُوا عقُولَهم عن التَّفاعَلِ السَّليمِ مع الحقِّ الذي استَمَعُوا إليهِ.

وأشخاصُ الآيةِ الثَّانيَةِ، أنْعَمَ اللهُ عليهم بنعمَةِ النَّظَرِ، ولكنّهم عَمُوا بأبصَارِهم عن التَّفَاعُلِ مع الحَق:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج٤٦ .

من هنا، فـ: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾. مهما كانَ هذا الشَّيءُ صغيراً، أو كبيراً. فلا ظُلْمَ عندَ اللهِ البتّة وهو العدْلُ كلُّه.

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَلَكِنَّ﴾ الحَقِيقةَ أنّ ﴿النَّاسَ﴾ بعد بيَانِ الحَقِّ من البَاطِلِ: ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. مِن خِلالِ تجَاهُلِ آياتِ اللهِ التي يسْتمِعُون إليها في القُرآنِ، وتجَاهُلِ آياتِ اللهِ التي يَرَونَها في الطَّبِيعَةِ.

فلا وجوْدَ لمخْلُوقٍ مَظلُومٍ قط في عَدَالةِ اللهِ.

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ النساء ٤٠ .

فالمُحسِنُ يُثَابُ بأكثرَ مِن حقِّه، برحمةِ الله، والمُسِيء لا يُجْزَى بأكثرَ من ظُلمِه. بعدالةِ اللهِ.

﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ الأنعام ١٦٠ . هذا في حالِ أصَرَّ المُسِيء على الاسْتمْرَارِ في الإساءَةِ بِعِنادٍ ولم يتُبْ، أمَّا إذا تابَ، فإن التَّوبةَ تفتَحُ له صفحةً جديدةً مهما كان مُسْرِفاً في الإساءَةِ.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ الفرقان ٧٠.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ محمد ٢.

فظلْمُ الإنسانِ لنفسِهِ يكمُنُ في الإصْرارِ على الضَّلالِ، لأنَّه بذلك يكونُ قد حَرَمَ نفسَه من التَّعَرُّضِ لرحمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، من خلالِ الاسْتغفَارِ والتَّوبَةِ.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ المؤمنون ٦٢.

الباب الخامس والأربعون
خسارة الهداية

﴿٤٥﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾

الآنَ، تحُثُّ الآيةُ الكريمةُ النَّاسَ على التَّوبةِ ومُراجعَةِ النَّفْسِ، والاسْتِماْعِ إلى الحقِّ استِمَاعَ حَقٍّ والتَّعقُّلَ به، والنَّظَر إلى الحَقِّ نَظَرَ حقٍّ والتَّفاعُل معه.

فتُذكِّرُ الآيةُ بيَومِ الحَشْر، وتصَوِّرُ أدقَّ تَفاصِيلِ ذاك اليوْم، وأدقَّ تفاصيلِ مَشَاعرِ النَّاسِ.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾.

كلُّ الزَّمَنِ الدّنيَويِّ مهما كانَ طَويلاً، يغدُو في ذاك اليوم كما لو أنَّه ما كانَ ﴿إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾. ويكونُ هذا بالنِّسْبَةِ للنَّاسِ جميعاً اعْتِباراً من آدمَ عليه السَّلامُ.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾. يحصُلُ تعارُفٌ بين الذين كانُوا يُؤْمِنُون بآياتِ اللهِ، وبين الذين كانُوا يُكذِّبُون بها.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ﴾. لأنَّ اللِّقاءَ الذي ما حسِبُوا له حَسَاباً قد حَصلَ. ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾. بتكْذِيبِهم لآياتِ الله. وتلك هيَ الخَسَارةُ الكُبرَى التي يُمَنَّى بها الإنسانُ الذي يعيشُ دونَ هدَايَة.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ* وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ* هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ* احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ* مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ* وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ الصافات ٢٩، ٢٤.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ* أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ* فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ* فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ* عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ* يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ* بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ* لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ* وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ* كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ الصافات﴾ الصافات ٤٠، ٤٩.

الباب السادس والأربعون
الوعد الإلهي

﴿ ٤٦ ﴾

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾.

يُرِي اللهُ سُبحانَه وتَعالى لأهْلِ الحَقّ، خذْلانَ الظَّالمِين. وقد أَرَى اللهُ عزّ وجلّ، رسولَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلَامُ بعض خذْلانِ أهلِ الظُّلْم مثلَمَا حدَثَ في بدرٍ، وفتحِ مكَّةَ، وغيرِ ذلك. لأنَّ وعدَ اللهِ هو حقٌّ، وقد وَعَدَ بمذلَّة الطُّغاةِ، وتحقَّقَ ذلك عبرَ الزَّمَن، وإلى وقْتِنَا الرَّاهِن، ويبقى ذلك مُستمِرّاً بما وَعَدَ اللهُ.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾. كما أريْنَاكَ في حياتِك مذلَّةَ هؤلاء، فإنَّ مذلَّتَهم تستمَرُّ كذلك بعدَ أنْ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾. مَرجِعُ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ سواء: ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾. فرُجُوعُهم إلينَا ليُمْنَوا بخسارتِهم في الآخرةِ أيضاً كما مُنُوا بها في الدُّنيا، تحْقيقاً لقولِه تَعَالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ في جميعِ الأحوالِ: ﴿اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾. بيانٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى ذكرُه بأنّه يقتصُّ للمَظْلومِ من الظَّالِمِ في الدُّنيا قبلَ الآخِرَةِ.

الباب السابع والأربعون
قضاءُ اللّه

﴿٤٧﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾

لا يدَعُ اللهُ الأُمَمَ دونَ أن يبْعَثَ لها الرُّسُلَ ليُبَيِّنوا لهم الحَقَّ منَ البَاطِلِ، ويَسُنُّوا فيهم الشَّرَائعَ الإلهيَّةَ.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾. جعلَ اللهُ من حَقِّ كلِّ ﴿أُمَّةٍ﴾ أنْ يكونَ لها ﴿رَّسُولٌ﴾.

﴿فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾.

﴿قُضِيَ﴾. مِنَ القَضَاءِ، والقضَاءُ يُنظِّمُ للنَّاسِ حياتَهم ويمنَعُهم من التّجاوزِ على حقُوقِ بعضِهم البعضَ، أنْ يلزَمَ كلُّ شخصٍ حُدودَه، وبذلك فإنَّ القَضَاءَ يحمِي النَّاسَ من النَّاسِ أنفُسِهم. وقد جاءَ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ لبيانِ أنَّ القضَاءَ الذي يضَعُه النَّاسُ في القَوانين الوَضْعِيَّة، لا يمكنُ له أن يكونَ كامِلاً ﴿بِالْقِسْطِ﴾. ولا بدَّ أن يَشُوبَه ظلمٌ لأنَّه نتيجةُ عقلٍ بشريٍّ مَحْدودِ المُدرَكات مهما بلَغَ من نبُوْغٍ.

ولذلك ترَى أنَّ بعضَ هذا القَضاءِ يؤذِي النَّاسَ، مثلَ الحُريَّةِ غير المُنضَبِطَةِ، بحيثُ تؤدِّي في بعضِ الأَحْيانِ إلى شيءٍ من الفَلَتانِ الأخْلاقِيِّ، وهذا الفَلتَانُ له تدَاعِياتُه السَّلبيَّةُ على النَّفسِ بحيثُ يُحدِثُ الاضْطِرَاباتِ النَّفسيَّة لدى هذا الشَّخصِ المُنفلتِ في مُمارسَةِ حريَّتِه تَبْعَاً لأهْوائِه. وهنا ترى تفشِّي حالاتِ الاكْتئَابِ، والأَوْبئَةِ النَّفسيَّةِ، والإدْمَانِ على بعضِ المُخدِّرَات، أو بعْضِ المُنشّطَاتِ.

لماذا؟ لأنَّه لا يكْتفِي بِما تُحقِّقُ له طَبيعتُه من الاكْتفَاءِ بالمَلذَّاتِ، فيُصبِحُ مُدمِناً على المَلَذّاتِ، وهنا تولَدُ الهَشَاشَةُ في بُنيَةِ هذا الشَّخْصِ، فيتَحوَّلُ من إنسانٍ مُقاوِمٍ وفقَ طبيْعتِه، إلى إنسانٍ مُنهَزِمٍ وفقَ الطَّبيعةِ الجديدةِ التي أقْحَمَها على نفسِه نتيجةَ اتِّباعِ أهْوائِه بشكلٍ غير مُنضَبِطٍ.

والحقيقَةُ أنَّ هذه القوانينَ الوَضْعِيَّة تُسْهِمُ في انتشَارِ هذه الشَّخصِيّة في المُجتَمَعاتِ.

وحديثاً تَسَرَّبَت مثلُ هذه الشَّخصيَّةِ إلى المُجتَمَعاتِ الإِسْلاميَّة أيضاً بحُكْمِ هذه التِّقَنِياتِ الحَدِيثَة التي فتحَتْ أبوابَ العالَمِ على بعضِه البعْضِ، وكمَا أنَّهم يَعِيشُون في دولةٍ واحِدةٍ.

وهذا ما أحْدَثَ ما يمكنُنِي تَسْميتُها بالصَّدْمَةِ الكُبرى المُرَوِّعَة لصَمِيمِ هذه المُجتَمَعاتِ الإِسْلاميَّة، وكان من الطَّبيعيِّ جدَّاً أن تنْجُمَ ردودُ أفعالٍ مُرَوِّعَة تقُضُّ مضْجَعَ المُجتمَعِ المُسْلِمِ الآمِنِ وتُفَتِّته وتُشَرْذِمُه عن بعضِه البعض. وهذا تأكِيدٌ لما بيّنَتِ الآيَة الكَرِيْمَةُ بألّا قسْطَ أقسَطَ من قسْطَ قضاءِ الله في عِبادِه، وكلُّ قسْطٍ يَشُوبهُ ظلْمٌ، إلَّا قسْطُ اللهِ فهو العدْلُ كلُّه.

تكلَّلَت الآيةُ الكريمةُ بخاتِمةٍ بيانيَّةٍ، وأيضاً هي بمَثَابَةِ عهدٍ من الله:

﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾. قضاءُ اللهِ يكونُ ﴿بِالْقِسْطِ﴾. الذي يخلُو من أيَّةِ ذرّةِ ظلْمٍ للنَّاس جَميعَاً، ودونَ ترجيْحِ كفّةِ أحدٍ على أحدٍ. فلا أحدَ فوْقَ القَضَاءِ ﴿بِالْقِسْطِ﴾. ولا أحدَ يُحرَم من اللا ظُلمِ بحقِّه، وفي ذلك صَلَاحُ الإنسانِ من أيَّةِ أُمّةٍ، وفي أيِّ زمانٍ أو مَكَانٍ.

الباب الثامن والأربعون
الصدق والتكذيب

﴿٤٨﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

هذه عَقيدةُ التَّكذيْبِ التي بمُوْجِبِها يتمُّ تكذِيبُ الدُّعاة إلى الهِدَايَةِ.

والحَقِيْقَةُ أن حِكمَةَ اللهِ تقْضِي بألّا يعْرفَ أحدٌ موعد العِقَابِ الذي يوقِعُه اللهُ على الإنسانِ الظَّالِمِ.

والكَلَامُ هنا يبدوُ أنَّه بشَيءٍ من الاسْتهزَاءِ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾- للرَّسولِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، ولصحابتِه رضْوانُ اللهِ عليهم-: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي يُعَذِّبنَا اللهُ فيه، فها نحْنُ نكذِّبُكم، وها هوَ العذابُ لم يقَعْ علينَا. فـ: ﴿مَتَى﴾ يكونُ ﴿هَذَا الْوَعْدُ﴾ بعذابِنا عِقَابَاً على تَكْذِيبنا لكُم ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أنتَ يا مُحمَّدُ وصحابَتُك ﴿صَادِقِينَ﴾.

وهذا اسْتمرَارٌ لكشْفِ مَعادِنِ هؤلاء، اسْتِئنافاً مع الآية ٤٢: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾.

والآيةُ ٤٣: ﴿وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾.

الآنَ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. وهذه الآياتُ مَرْجِعُها إلى الآيةِ ٤١: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

الباب التاسع والأربعون
حكمة المشيئة الإلهية

﴿٤٩﴾

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾

الذي يعْتقِدُ بأنَّ الرَّسُولَ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ يعلمُ الغَيْبَ، لا يكُونُ صَائِباً، كذلك لا يكُونُ صائِباً مَن يطلُبُ من الرَّسولِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ كلَّ شيءٍ. ولذلك فإنَّ مَطَالِب المُشْرِكين للرَّسُولِ عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ، لم تكنْ في موضِعِها، لأنهم كانُوا بمَطَالِبِهم هذه يريدون أنْ يُخرِجُوه مِن طاقَاتِه البَشريَّة، كونه لا يَسْتطيعُ أنْ يقوْمَ بِمُعجِزةٍ ﴿إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ﴾. مثلَ حفْنَةِ التُّرابِ التي ألحَقَتْ الهزيْمَةَ بالمُشرِكين وأسلِحَتِهم عندما لحِقُوا بالنَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ من مكَّةَ إلى المَدينَةِ لمُحاربِته. ورغمَ أنَّ يدَ النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ هي التي رَمَت، لكنَّها كانَت رَميَةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، من خلالِ يدِ رسُولِه عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ. وقد أخبَرَه اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، بذلك: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأنفال١٧.

من هُنا: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ﴾.

ومثلُ هذه المُعجِزَاتِ هي مُستمِرَّة، وغير مُقتَصِرَةٍ على الأنبيَاءِ، بل غير مُقتَصِرَةٍ على الصَّالِحين والأَوْلياءِ فقط، وإنّما تحْصُلُ لغيرِ المُؤمِنين أيضَاً، وذلك رحمَة من اللهِ بِعبادِه كيفَمَا كانُوا حَتَّى يصْلِحُوا إنْ كانُوا فَاسِدِين، وحَتَّى يزْدادُوا صَلَاحَاً إنْ كانُوا صَالِحين. وذلك لعلَّه لا يوجَدُ إنسانٌ إلَّا وأنْعَمَ اللهُ عليه بهذه المُعجِزَاتِ، سواء من خِلالِ نجَاتِه من خطَرٍ كبيرٍ كانَ مُحْدِقَاً به، أو من خِلالِ نفْعٍ كبيرٍ أنعمَ اللهُ بهِ عليه، وإنْ كانَ الإنسَانُ يعلَمُ بعضَ هذه المُعجِزاتِ التي حصَلَت معَه بشكلٍ خَارقٍ بالنِّسْبَة لإمْكَانَاتِه، إلَّا أنَّه لا يعلمُ بعضَها أيضاً.

لكنَّ هذه المُعجزاتِ لا تُلازِم الإنسانَ طَوَالَ الوقْتِ، بل تكونُ في بعضِ الأوْقَاتِ وبعضِ الظُّروفِ، لأنَّ الحِكْمَةَ أنْ يعْلَمَ الإنسانُ هذه الحقيقَةَ، ثمَّ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يترُكُ الإنسانَ أيضاً لطاقَاتِه البشَريَّة، ولذلك تَعرَّضَ النَّبيُّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ بعد تلك المُعْجِزةِ للأذى، وانتصَرَ المُشرِكُون، وفُجَّ رأسُ رسولِ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ وما إلى ذلك من ألوانِ الأذَى. لكِنَّ هذا كلَّه جعلَ رسولَ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ أكثرَ قوّةً، أكثرَ نُضُوجَاً، أكثر إنْسَانيّةً، أكثرَ صبْراً، أكثرَ تسَامُحَاً، أكثرَ استِيعَابَاً لحكْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، حَتَّى بلغَ درجَاتٍ مُتقدِّمَة من التَّكامُلِ البَشَرِيِّ، جعَلَه اللهُ أسْوةً للنَّاس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ الأحزاب ٢١. والآيةُ بالغةُ القُوَّةِ وبالغةُ الدِّقّة: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾. وشهِدَ له اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم ٤. إذن: ﴿قُل﴾ بيِّنْ للنَّاسِ جميعَاً: ﴿لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ﴾. ليسَ بوسْعِي أن أرْفَعَ عن نفسِي أذىً، ﴿وَلاَ﴾ أصيبَ نفسِي بنفعٍ ﴿نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ﴾. وهذا ينسَجِمُ تمامَاً مع أنَّ اللهَ يُطْلِع بعضَ رُسُلِه، وكذلك يُطْلِع مَن يشَاءُ من النَّاسِ في كلِّ زمانٍ ومكان على شيءٍ من الغَيْب، وليس الغَيْب كلّه، بحيثُ لا يكونُ المُعلَم عالِماً بالغيْبِ كلِّه كعِلْمِ اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ الجن ٢٦. بمعنى الغيْبِ كلِّه مثل: قيَامِ السَّاعَةِ وما إلى ذلك. واللهُ عزَّ وجلَّ يُطْلِع بعضَ النَّاس على ما سيقَعُ بعد حيْنٍ، مثلَ الرُّؤْيا، فرأى هذا الشَّخصُ ما لم يقعْ، وبعد ذلك يقَعُ كما أرَاه اللهُ له في المَنام.

عن النَّبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ"[1].

ويجوزُ أن يحصُلَ ذلك عن طريْقِ الحَدْسِ أيضاً، فيُكْرِم اللهُ بعضَ الأشخاصِ بالحَدْسِ في وقُوعِ بعضِ الأحداثِ قبلَ وقُوعِها.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

كلُّ ما يصِيْبُ الإنسَانَ يكونُ بإذنِ اللهِ تَعَالَى، وليسَ بوسْعِ أحدٍ أن يؤخِّرَ، أو يُقدِّمَ مَشِيئةَ الله. فكلُّ جيلٍ من الأجيالِ البَشَريّة يأتِي فيْ المَرْحَلَة الزَّمَنيّةِ التي يشاؤها له اللهُ عزَّ وجلَّ بحكْمَتِه، ولا جيل يسْبِقُ جيلاً. تبيِّنُ الآيةُ الكريمَةُ بأنَّ سيْرُورَةَ الحياةِ تمضِي وفْقَ تنظيمٍ إلهيٍّ بالِغِ الدِّقَّة.

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

الباب الخمسون
وهم الاستعجال

﴿٥٠﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾

عقابُ اللهِ يمكِنُ له أنْ يقَعَ في أيِّ وقتٍ على مَن وصفَهم اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى بالمُجْرِمين.

وهؤلاء يُجرِمُونَ بحَقِّ أنفُسِهم عندما يتَجَاوَزُون حُدُودَ اللهِ وينتَهِكُونَ مُحَرَّمَاتِه، فأحْياناً ينكِرُ بعضُ النَّاسِ القرآنَ وكمَا لو أنَّهم يتَحَدُّون بأنَّهم على صَوَابٍ وأنَّ اللهَ لا يُعاقِبُهم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأنفال ٣٢.

أي: ﴿إِن كَانَ هَذَا﴾ القرآن ﴿هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾. لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يؤَخِّر الاسْتِجَابةَ لهذا الدُّعاءِ بالاسْتِعْجَالِ في وقوْعِ العِقَابِ، فيتيحُ فرَصاً لعِبادِه المُتَمَادِين حَتَّى يتُوبُوا، وقد حصَلَ ذلك بأنْ تراجَعَ البعضُ وانتَفَعَ من عدَمِ قبولِ اللهِ الدُّعاءَ على الفَور. لكنَّ الذينَ يُصِرُّون بعنادٍ، فإنهم يلقَون: ﴿عَذَابُهُ بَيَاتاً﴾ في ظُلْمَة اللَّيلِ ﴿أَوْ نَهَاراً﴾. في وَضَحِ النّهَارِ.

و ﴿بَيَاتاً﴾ هُنا إشارةٌ إلى وقوْعِ ﴿عَذَابُهُ﴾ عن غفْلَة، والكلِمةُ تشِيرُ إلى النَّوْعِ، فيكونُ نائماً.

﴿أَوْ نَهَاراً﴾. إشَارَةً إلى وُقُوعِ ﴿عَذَابُهُ﴾ والمَرءُ في ذروةِ اليَقَظَةِ.

وبعدَ هذا البيانِ الجليِّ جاءَ قولُه تَعَالَى في خَاتمةِ الآيةِ الكريمَةِ:

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿مِنْهُ﴾ أي مِن عذَابِ الله، فأيّةُ عجَلةٍ أنتُم فيها: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ* أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ الأعراف ٩٧، ٩٨.

وهذا إرشَادٌ لمراجعَةِ النَّفْس، واغتِنَامِ فرصَةِ الإمْهالِ للإصْلَاح، ﴿أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ النحل ١.

فالإمهالُ أيضاً له وقْتٌ، وبعدَ تَرَاجُعِ مَن يتراجَعُ، وصَلَاحِ مَن يصْلُح، يقَعُ ﴿عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً﴾، على المُصِرِّينَ بعنادٍ شَديدٍ على الكُفْرِ.

الباب الواحد والخمسون
اغتنام الإمهال

﴿٥١﴾

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

﴿أَثُمَّ﴾. أي: في الوقتِ الذي يشاؤه اللهُ: ﴿إِذَا مَا وَقَعَ﴾ عليكُم ﴿عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً﴾: ﴿آمَنْتُم بِهِ﴾. بوُقوْعِ العذابِ الذي كنْتُم تستعجلونه وتظنُّون أنَّه غيرُ واقِعٍ.

﴿آلآنَ﴾. أي بعدَ نفادِ الإمهالِ ﴿وَقَدْ كُنتُم﴾ قبلَ وقوعِه وخِلالَ فُرَصِ الإمْهالِ ﴿بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾. تتمحوَرُ الآيةُ حوْلَ كلمتَي ﴿أَثُمَّ﴾. و ﴿آلآنَ﴾. و ﴿آلآنَ﴾. هي نتيَجةٌ لـ ﴿أَثُمَّ﴾.

فهي ﴿آلآنَ﴾ المُسْتقبَلُ، وقد مهَّدَت لها ﴿أَثُمَّ﴾ الحَاضِر.: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ أي لم يقَعْ بعد، ولديكُم فرصَةٌ لتَجنُّبِ وقُوعِه عليكُم من خِلالِ التَّرَاجُعِ عن العِنادِ، الاسْتِغْفَار والتَّوْبة ﴿آلآنَ﴾ أصبَحَ المُسْتقبَلُ حَاضِراً ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِ﴾ في المَاضي ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

هذه آيةٌ تَحْذِيريَّةٌ، تُحَذِّر الإنْسانَ وتنبِّهُه كي لا يجعَلَ نفسَه في موقفٍ كهذا. فغَضَبُ اللهِ يقَعُ بغتةً لا أحدَ يعلَمُ أين وكيفَ وفيْ أيَّةِ لحْظَةٍ، وعندَ ذاك لم يعدْ ينفَعُ النَّدَمُ.

﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الأنبياء٣٧.

الباب الثاني والخمسون
جزاء كسب الظلم

﴿٥٢﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

﴿ثُمَّ﴾. مرةً أخرَى في مُفتَتَحِ الآيتَين المُتَتَاليتَين. وهذهِ ﴿ثُمَّ﴾ الآخرَةِ، اِسْتِئنَافاً لـ ﴿ثُمَّ﴾ الدُنيا. الآنَ بعدَ أن لَقِيَ الظَّالمُون عذابَ الدُّنيا: ﴿ثُمَّ﴾ في الآخرةِ: ﴿قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ﴾.

على هذا النَّحو تبيِّنُ الآيَتانِ الكَرِيمَتانِ بأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ الأولَى انتَهَى مَفْعُولُها بمَوتِ أهْلِ الظُّلم بعدَ أنِ انتَهَوا نهَايَاتٍ مُذِلَّة. والآنَ في الآخرَةِ تَأْتي ﴿ثُمَّ﴾ الرَّدِيفَةُ، وهيَ ﴿ثُمَّ﴾ الآخرَةِ، وفيها: ﴿قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ﴾. جاءَ نظَراً لتَغْيِيرِ المَكانِ منَ الدُّنيا إلى الآخِرَة، وهكذا تَغيَّرَ الإنسانُ أيضاً من إنسانٍ زَائِلٍ في الدُّنيا، إلى إنسَانٍ خَالدٍ في الآخرةِ، سواء أكانَ في الجَنةِ، أو كانَ في النَّارِ، فلا مَوْضِع يُسقِطُ عنه سمةَ الخُلُودِ. لذلك: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ﴾. لأنَّكُم خَالِدُون. والكَلامُ مركَّزٌ ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾. وعليكَ أنْ تتَصوَّرَ ما الذي فعلُوْه من جَرَائمَ مُريعَةٍ، حَتَّى بلغُوا مَرْحَلةً وصَفَهُم اللهُ فيها في خَاتمَةِ الآيةِ ما قَبْل السَّابقَة بالمُجْرِمين: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾. فهؤلاءِ هم ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾. الذينَ اقْتَرَفُوا الجَرَائمَ، وما أقَامُوا لشَرْعِ اللهِ حُدُوداً، ولا للنَّوَامِيْسِ الإنسَانيَّة حُدُوداً، ولا لأنْفُسِهم حُدُوداً حيْثُ عاشُوا مُنفَلِتين من كلِّ شرْعٍ، وكلِّ حَدٍّ، وكلِّ قِيْمَةٍ إنسَانيَّةٍ في الإنسَانِ، فقد أوْغَلُوا في الانتهاكَاتِ دونَ رادِعٍ، ولمْ يتُوْبُوا، ولم يتَراجَعُوا، بلْ كمَا جاءَ في الآية٤٨ : ﴿وَيَقُولُونَ اسْتِهتَاراً لِمَن بمن يعِظُونَهم: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

كذلك في الآيةِ ٢٩ مِن سُورَة الأنعامِ: ﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾. فمُجْرِمُ الدُّنيا، لا بدَّ أن يقعَ عليه العذابُ في الدُّنيا قبلَ أن يموْتَ، وبعد أنْ يموْتَ وينتَهِيَ مفعولُ عذابِ الدنيا، يذوقُ ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ في الآخرةِ.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾. وجَدتُم في سِجِلَّاتِكم جَرَائمَ لم ترْتَكِبُوها، فهذا ما ادَّخَرْتُمُوه لآخِرَتِكم، وأنتُم لا ﴿تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

فكلُّ تلك الجَرَائمِ المُرَوِّعَة، كلُّ تلك الانتِهَاكَاتِ الفَظِيْعَةِ، كلُّ تلك القسْوَة، كلُّ ذاكَ الظُّلْم، كلُّ ذاكَ الفُجُورِ، كلُّ ذاك الفَسَادِ، كلُّ ذاك الاِسْتِكبَارِ، كلُّ ذاك العِنَادِ، كلُّ ذاك الاسْتِهْزَاءِ بآياتِ اللهِ. ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾. ها قد جَاءَكُم ما ﴿كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

وهذا متَّصِلٌ بالآيةِ ٤٤: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. كذلك الآيةُ التي تَليْها: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾.

إذن، فهذا كسْبُكُم، فـ ﴿ذُوقُواْ﴾ وبالَ ما ﴿كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

الآنَ، تدعُوكَ الآيةُ الكريمةُ كي تنأى بنفسِك عنْ هذا المصيرِ الذي تصوِّره لك بتَفَاصِيلِه الدَّقِيقَةِ خلالَ هذه الآياتِ، وهو لمْ يقعْ لك بعْدُ، ويعِدُكَ اللهُ بأنَّه لن يقَعَ لك مهما كنْتَ في سَنَواتٍ طويلةٍ من الكُفْرِ والمَعَاصِي إذا أنبْتَ إلى اللهِ واسْتَغفَرتَه، وتبْتَ إليه، وبدأْتَ في أعمَالٍ صَالِحةٍ وفْقَ اسْتِطَاعَتك، لكن إذا اسْتمْرَرتَ في الانتِهاكَاتِ، وفي الاستهزَاءِ بالقرآن.

وهنا لكَ حريَّةُ أنْ تجعَلَ كلّ ذلك يقَعُ عليكَ، أو تَتَفَادَاه، وهذه هي عَظَمَةُ القرآنِ، ولذلكَ فإنَّ الّذي لا يَقرَأُ القرآنَ، يخسَر كثِيْراً.

تحضُرُني هنا حِكايَةٌ من التُّراثِ عنْ إِمَام مَسْجِدٍ، وذاتَ يومٍ من أيَّامِ رمَضَان دعَاه أحدُ الأشْخَاصِ من أهلِ تلك النَّاحِيَةِ إلى طعَامِ الإفطَارِ، ولم يكُنْ في البيْتِ سِوَى ذاك الشَّخصِ وزوْجتِه. عندما وعدَه الإمَامُ بتلبيةِ الدَّعْوَة، أخبَرَ زوجتَه التِي باشَرَت في إعْدادِ الطَّعامِ. قبلَ الغُرُوبِ، حضَرَ الإمامُ إلى بيْتِهما، وتَنَاولَ طعَامَ الإفْطَارِ، وبعدَ ذلك انصَرَفَ شَاكِراً إيَّاهما على هذهِ الدَّعْوَة الكريمةِ. لكنْ بعد انصِرَافِه، تذكَّرَت الزوجةُ بأنها كانَت قد نسيت نقُوْدَها في ركْنٍ من البيْتِ، هذا الرُّكْنُ الذي كانَ الإمامُ جالِسَاً فيه، فهَرَعَت نحْوَ الرُّكْنِ، وصَارَت تبحَثُ دونَ أن تجِدَ النُّقُودَ. عندَها أخْبَرَت زوْجَها بِما حصَلَ، وأنَّها تشُكُّ بالإمَامِ، لأنَّه الوحِيدُ الذي دخَلَ بيْتَهما. وبعدَ شَيءٍ من التَّفكِيرِ طلبَتْ من زوْجِها الذي يصلِّيْ في المَسْجِدِ، أن يُخبِرَ الإمامَ بِما حصَلَ، كي يُعِيدَ النقودَ، ويعِدَه بأنَّه لن يخبرَ أحداً.

فقالَ الزَّوجُ بأنَّه مُنْحَرِجٌ من ذلك، لكنَّه سيَكُفُّ عن الصَّلاةِ في ذاك المسْجِد خلفَ ذاك الإمَامِ الذي لم يقدِّرِ المعرُوفَ، بلْ سَطَا على النُّقُود.

لبِثَ الأمرُ على ما هُو عليهِ حَتَّى دارَتِ السَّنةُ وحلَّ رمضانُ السَّنةِ القَادِمةِ، عندَها، طلبَ الرَّجلُ من زوجتِه بأنْ يتَسَامَحَا مَع الإمَامِ، ويدعُواه أيضاً لتَنَاولِ طعامِ الإفطَارِ. فقالتِ الزوجَةِ بأنها موافِقَةٌ، لكنْ بشَرْطِ أن يُخبِرَ الإمامَ عن النُّقودِ بعدَ أن ينتهِيَ من تناوُلِ الإفطَارِ.

عندَ ذاك وافقَ الرَّجلُ، و بعدَ قطيعَةِ سنةٍ من دخولِ المَسْجِدِ، ذهبَ إلى المَسْجِدِ، وبعدَ الصَّلاةِ تقدَّمَ من الإمَامِ وأبلَغَه بالدَّعْوَة، عندَها وعَدَه الإمامُ بتلْبيةِ الدَّعوةِ.

وحضَرَ الإمامُ في مَوْعِدِه، وبعدَ التَّفَرُّغِ من تَنَاولِ الإفْطَارِ، أخبَرَه الرَّجلُ بأنه في السَّنةِ المَاضِيَةِ عندما جَاءَ، كانَت زوجتُه قد نسيت حزْمَةَ نقُودٍ في ذات المَوْضِع الذي يجلِسُ فيه الآنَ، والذي جلَسَ فيه السَّنةَ المَاضِيَةَ، لكنَّ النُّقُودَ اختَفَتْ. تجَهَّمَ وجهُ الإمامِ والرَّجلُ وزوجتُه يُصَوِّبان أنْظَارَهما إليه، ويترقَّبَان ما سيَقُولُ. وبعد قليلٍ رَأيَا دمُوعَاً تنْحَدِرُ من عَينَيه. فأخبرَتْه المرأةُ إذ ذاك بأنَّها سامحَتْه على النُّقُود، ولن تُخبِرَ أحدَاً.

ولينْسَ ما سَمِعَ وتنسَ مع زوجِها أمرَ النُّقُودِ، كمَا لو أنَّ شيئاً لمْ يحصُلْ. لكنِّ ذلك لم يُؤَثِّر في الإمامِ الذي لبِثَ وجهه مُتَجَهّماً، ولبِثَتِ الدُّمُوعُ تنْحَدِرُ من عَينَيه إلى أرْنبَةِ أنفِه.

فلم تملِكِ المَرأَةُ نفسَها من سُؤَالِه عنْ سببِ مَا هو؟ فنظَرَ الإمَامُ إلى المُصْحَفِ المَوْجُودِ في أحدِ أركانِ الغُرْفَة وقالَ بأنَّ ما يُبْكيهِ وما يجعَلُه حَزِيناً، ليسَ أمرَ النُّقُودِ، ولكنْ لأنَّهُما لم يفتَحَا المُصْحَفَ منذُ رمَضَانِ السَّنةِ المَاضِيَةِ وحَتَّى هذا اليومِ.

عند ذاك وكَما لو الرَّجلَ وزوْجتَه صُعِقَا، وغَدَا أحَدُهما ينظُرُ إلى الآخَرِ، فراحَ الرَّجلُ صوْبَ المُصْحَفِ، مدَّ يدَه إليه وفتَحَه، وإذا بحزمَةِ النُّقودِ مَوْجودة في بدايةِ المُصحَفِ بجانِبِ سُورةِ الفَاتِحَة.

أجل مَن يحْرِم نفسَه من قرَاءَةِ القرآنِ يستَحِقُّ أن يُبكَى ويُحْزَن عليه لأنه يكونُ قد حرَمَ نفسَه من خيْراتٍ كثيرةٍ لا يُمكِنُ تعْويْضُها.

الباب الثالث والخمسون
الاستنباء

﴿٥٣﴾

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾

الحَديثُ هنا عن العَذابِ الذي وعَدَ به اللهُ الذين لا يَؤْمِنوْن بآيَاتِه، وقد وصَفَهم تارةً بالمُجْرِمَين، وتارةً بالظَّالمِين. والآيةُ الكريمَةُ هي سُؤالٌ وجَوَابٌ.

سؤالُ المُنكِرِين للعذابِ، وأمر اللهِ عزَّ وجلَّ لرَسُولِه عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ بالجوابِ.

السُّؤالُ هو: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ﴾ يا مُحَمَّد؟ يطلبون منكَ أن تُنبِّئَهم، كونكَ تُخبِرُهم بأنّكَ نبيُّ اللهِ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾. يعنِي العذابَ الذي تقُولُ بأنَّه سيقَعُ علينا نتيجَةَ عدَمِ إيمانِنا بنُبوّتك وبالقُرآنِ.

السُّؤالُ هنا يأتِي بعدَ ثلاثِ آيَاتٍ مُتتَاليَاتٍ، مِحْوَرُها جميعَاً وعْدُ اللهِ بعذابِ المُنكِرِين في الدُّنيا، وفي الآخرةِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ٥٠.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ٥١.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ٥٢.

الآنَ فيْ الآيةِ التي تَلِي الآياتِ المُتتَاليَاتِ الثَّلاثِ يأتي السُّؤالُ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟.

كلمةُ ﴿أَحَقٌّ﴾ هنا بالِغَةُ الدِّقّة، فهي يمكنُ أن تعنِيَ الصِّدقَ، أي: ﴿أ﴾ صدقٌ مَا تقوْلُ. فـ﴿أَحَقٌّ﴾ مِنَ الحَقيقَةِ. وبذات الوقتِ تحتَمِلُ الكلمةُ المعْنَى الآخرَ وهو الحقُّ الذي هُو نقِيْضُ البَاطِلِ، فاجْتمَعَ المَعْنَيان في ذاتِ الكلمةِ.

يأتي الوَحْيُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ بالإجابةِ: ﴿قُلْ﴾. أجِبْهم على اسْتِنبَائِهم: ﴿إِي﴾ كتَأكِيدٍ منه ﴿وَرَبِّي﴾. كقَسَمٍ على التَّأكيدِ: ﴿إِنَّهُ﴾ العذابُ ﴿لَحَقٌّ﴾. فهوَ واقعٌ ﴿عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً﴾ لا مَحالَة. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ*مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ الطور ٧، ٨. فلا بدَّ أنْ يقعَ على مُسْتَحقِّيه. ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾. ليسَ بوسْعِ أحدٍ أن يمْنعَ وقوْعَه ذلك أنَّه وعدٌ حقٌ من اللهِ.

وهذا بمَثَابَةِ الدَّعْوَة للصَّلَاح، والرَّاجِعُ عن ظلمِ النَّفسِ والإجْرَامِ بحقِّها، حَتَّى لا يُمْنَى المُتمَادِي بهذه النِّهايةَ المَأساويَّة في الدُّنيا، وفي الآخِرَةِ.

الباب الرابع والخمسون
التحذير من عاقِبة العِناد

﴿٥٤﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾

﴿وَلَوْ﴾، على سبيلِ الافْتِراضِ: ﴿أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ﴾. امتلَكَت كلَّ ﴿مَا فِي الأَرْضِ﴾ من خيْرَاتٍ وأرْزَاقٍ.

فـ ﴿وَلَوْ﴾ افتِرَاضاً تَحقَّقَ ذلك.

﴿لاَفْتَدَتْ بِهِ﴾. لمَا تردَّدَت من جَعلِه كامِلاً فديَةً لتجنُّبِ وقُوْعِ العَذابِ عليها.

﴿وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ﴾. كما لو أنَّ شخصَاً بغتةً يُصْدَم بِما لم يَحسِبْ له حِسَاباً، وفيْ ذروَةِ هذا الذي يقَعُ عَليه، يشْعُرُ بحالةٍ شدِيْدةٍ من النَّدَم، حَتَّى إنه يكادُ ينفَجِر ندَمَاً على كلِّ انتهاكٍ انتَهَكَه، لكنْ بذاتِ الوقْتِ يُدرِكُ بأنَّ كلَّ شيءٍ انتهَى. فيترُك كلَّ ذاك النَّدمِ حبيسَ صدْرِه. ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾ الفرقان٢٧، ٢٨.

عبَّرَتِ الآيةُ الكريمةُ عن دقَّةِ مَشَاعِرهم في تلكَ اللّحَظَاتِ: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾. أي أصبَحُوا مَلْغُوْمين بـ ﴿النَّدَامَةَ﴾.

والكلمةُ أقْوَى وأدَقُّ وأبلَغُ مِن (أخفوا) فيما لو وَرَدَت بدَلاً عنها، لكنْ كانَت ستَبدُو باردَةً وفي غيْرِ مَوضِعِها، بل وكانت ستُسَبِّب ركاكَةً وإرباكاً في السِّياقِ. إضافةً إلى أنَّهَا لم تكنْ بالضَّرُورةِ تعني السِّرَّ، فعندما تخفِيْ شَيئاً، ليس بالضَّرُورَةِ أنْ يكونَ سِرَّاً. لكنْ عندما تُسِرّ شيئاً، فأنتَ في العَينِ ذاتِه، تُخفِيه. فالإخْفَاءُ يتمَخَّضُ ويتفَرَّعُ عن السِّرّ، بَيدَ أن السِّرّ ليس بالضَّرُورَةِ أن يتمخَّضَ أو يتفَرَّعَ عن الإخْفَاء. ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ الزمر٥٦.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾ النبأ ٤٠.

تُخبِرُ الآيةُ الكريمةُ بأنَّ ﴿النَّدَامَةَ﴾ تكونُ: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾.

﴿لَمَّا رَأَوُاْ﴾ نارَ جهَنَّم التي كانُوا يُكذِّبُون بها ويستهزئون بآياتِ اللهِ، وينْتَهِكُون حدَودَه دون رادِعٍ، وقد أمْهَلَهم اللهُ إمْهالاً تلْوَ الإمْهالِ، لكنَّهم بدَلَ أن يتَّعِظُوا ويتُوْبُوا، كانُوا يزْدَادُون فُجُوراً.

تسْتأنِفُ الآيةُ الكريمةُ وهيَ تُصَوِّر الواقعَ: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾. أيّ، بالعدْلِ، لا مَفرّ من دخُولِ هذه النَّارِ التي كانُوا يُكذِّبُون بها فكم يكونُ النَّدَمُ عظيماً يومَ لا ينفَعُ النَّدَمُ. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾. أعمالَهم هي التي قادَتْهم إلى هذه النِّهايَةِ، فهذا حَصادُ أعْمَالِهم ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾. لا يُعاقَبُون بشيءٍ لم يرْتكِبُوه.

وهؤلاء قد ظَلَمُوا: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾. لكنَّهم لا يُظلَمُون، بل يُعَاقَبُون بقدْرِ ما أصَرُّوا على الاسْتِمْرارِ في الظُّلم، بعنَادٍ شَديدٍ دونَ تراجُعٍ، لأن التَّوبةَ تُعْفِيه من تَلقِّي العِقَابِ، وتمْحُو ما قد سَلَفَ من ذنوبٍ بالغاً ما بلغت من صَحِيفَته، وتجعَلُه على صَحِيفةٍ بيْضَاء.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سبأ٣.

فنحنُ أمامَ إتاحَةٍ ذَهبيَّةٍ للمُذنِبِ المُوْغِلِ في ذُنُوبِه، والمُصِرَّ على الاسْتِمرَارِ في انتِهَاكِ شرْعِ اللهِ، بأن ينْتَبِهَ ويُراجِعَ نفسَه قبلَ أنْ يفوْتَ الأَوَانُ كما تُحذِّرُ الآيةُ الكَرِيمة، ويغْتَنِم هذه الفُرصَةَ الذَّهبيَّةَ كي يصْلِحَ، ويجعَلَ من نفسِه على صَحِيفَة بيْضَاء كما لو أنَّه لم يكُنْ ذاكَ المُذنِبَ، وكلُّ ذلك بفضلِ اللهِ تَعَالَى على عبَادِه، حَتَّى يتَنَازَلُوا عن عِنَادِهم ويُصْلحُوا.

الباب الخامس والخمسون
تحقيق وعد الله الحق

﴿٥٥﴾

﴿أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

﴿أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

هنا بيانُ سببِ عدمِ قَبُولِ الفِدْيَة، فلو مَلكَ إنسانٌ كلَّ ما في الأرضِ، فهذا لا يخرُجُ عن كونِه ملْكَ الله، وأنَّ اللهَ هو الذي ملَّكَه هذا المُلكَ.

فهذا المُلكُ إن مَلَّكَه اللهُ لهذا الإنسانِ، أو لم يُمَلِّكه له، فيْ الحَالتَين ملكُ اللهِ، وقادرٌ على التَّصَرُّفِ بمُلكِه وقتَمَا يَشَاءُ.

والدَّليلُ أن الإنسانَ يعجَزُ أنْ يمْنعَ نفسَه مِنَ الفقْرِ بعدَ الغِنَى، بل يخْضَعُ لأمرِ الله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران ٢٦.

فإذن، المالُ لا ينقِذُ الظَّالِمَ من تلقِّي عِقابِ الظُّلمِ مهما كَثُرَ عندَه هذا المَالُ، بَيْدَ أن التَّوبةَ تنقِذُه من عَذابِ الظُّلمِ سواء أكانَ غنيَّاً أو فقيراً.

فالآيةُ الكريمةُ تحُضُّ على التَّراجُعِ عن الظُّلمِ، والتَّوبَةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والإكثارِ من عمَلِ الخيْرِ، بدلَ الإصْرارِ على الاسْتِمْرَار في الظُّلمِ، وجمْعِ الأمْوالِ ظُلمَاً وعُدْواناً. الآيةُ الكريمةُ تدعُو أن توظِّفَ المالَ للانتِفَاعِ به في الدُّنيا والآخِرَة، وتكُون على حَذَرٍ من أن يُوَظِّفَكَ المالُ فيؤذيك في الدُّنيا والآخِرةِ. أن يكونَ مالُكَ حَلالاً تُحسِنُ به، وتتَصَّدَّقُ به وتُفرِح قلوبَ النَّاسِ به، تيسِّرُ أمْوْرَ النَّاسِ به. فيفْرِحُ اللهُ قلبَك، ويُيَسِّرُ لك أمرَك في الدُّنيا والآخِرةِ، وهكذا تكونُ قد وظَّفْتَ المالَ، ولم تسمَحْ له أن يوظِّفَكَ، لأنكَ تجنَّبْتَ المالَ الحرامَ، إلى جانب تجنبك الشُّحَّ.

﴿أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ﴾.

﴿أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ﴾ بعذابِ الظَّالِمين ﴿حَقٌّ﴾. إذا اسْتمَرُّوا في ظُلمِهم.

والآيةُ تنبِيْهٌ لهم كي يتراجَعُوا عن الإصرَارِ على الظُّلمِ، لأنَّهم إذا استمرُّوا وأصَرُّوا على الظُّلمِ، فإنَّهُم يُعرِّضُون أنفسَهم لوَعْدِ اللهِ بتعْذِيْبِهم في الدُّنيَا والآخِرةِ.

﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. بمعنى: يتَجَاهلُون هذا الوعْدَ لأنَّهم مُنشَغِلُون بالاستِمْرارِ في الظُّلمِ، رغمَ أنَّهم يرَوْن تحقِيقَ هذا الوعدِ في الدُّنيا من خلالِ النِّهايَاتِ المُذِلَّة للظَّالمِين. وهذا تأكيدٌ بأنَّ الوعْدَ مُسْتَمرٌّ كي يـ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ في الآخرةِ، وفْقَما جاءَ في الآيةِ ٥٢:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

وذلك تحقِيقاً لقَولِه تَعَالَى: ﴿أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ﴾.

الباب السادس والخمسون
المرجعية الإلهية

﴿٥٦﴾

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

بعد بيانِ مُلْكِيّة اللهِ عزَّ وجلَّ للسَّمَواتِ والأرضِ، تُبيِّنُ هذه الآيةُ الكَرِيمةُ بأنَّ الحَياةَ والموتَ بيدِه، فهو تَعَالَى شَأْنُه يبثُّ الحَياةَ فيمَن يَشَاءُ، و﴿وَيُمِيتُ﴾ مَن يَشَاءُ.

فليسَ ما يمْلِك الإنسانُ وحدَه هو ملكُ اللهِ، بل إن حياتَه أيضاً بيَدِ الله.

ثم يُذكِّرُ اللهُ بالرُّجوعِ ﴿إِلَيْهِ﴾. وذلك حَتَّى يتراجَعَ الإنسانُ الظَّالِمُ عن ظُلمِه، ويتذكَّرَ أنَّ مَرْجِعَه إلى اللهِ. فإلى الله المَرجِعُ حيث ثَوَابُ العَادِلينَ، وعِقَابُ الظَّالِمينَ.

الباب السابع والخمسون
نعمة القرآن

﴿٥٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

نداءٌ من اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. كافّةً في كلِّ زمانٍ ومكان: ﴿قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿جَاءتْكُم﴾. هكذا على شكْلِ تجسِيْدٍ، أي تجسَّدَت الموعِظةُ في القُرآن. فـ:

﴿قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. إذن، مَوعِظَةُ اللهِ تكمُنُ في القرآنِ، هذه المَوْعِظةُ التي تُحسِّنُ للإنسانِ حياتَه في الدُّنيا، وتجعلُه من أهلِ الجَنَّةِ في الآخِرةِ.

إذن المَوْعِظَةُ هي تذكيْرٌ بجمالِ الخيْرِ والحَثِّ عليه، وتنبيْهٌ بقُبْحِ الشَّرِ والحَذَر منه. والإنسَانُ يكونُ وَاعِظاً عندما تصْدُر منْه المَوْعظَةُ السَّليمةُ.

وخَيرُ الوَعْظِ هو وعْظُ اللهِ، وخيرُ وَاعِظٍ هو مَن يرشِدُ النَّاسَ إلى مَوْعظَةِ اللهِ في القُرآنِ.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران١٣٨.

فالذي يصْغِي إلى هذا الوَعْظِ بتعقُّلٍ وتدبُّرٍ ينتَفِعُ منه، لكنَّ الذي يَسْتَكبِرُ عليه، ويُكذِّبه يكونُ خاسِراً: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً﴾ الإسراء٨٢. خسَارةُ عدمِ الإصْغَاءِ الجيِّدِ له وعدمِ الانْتِفَاع به.

والوَاعِظُ عليه أن يعِظَ حَتَّى المُسْتكْبِرين، ثمَّ يدعُهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ النساء٦٣. وإذا سُئِلَ الواعِظُ أسئلةً يجيبُ عليها بشكلٍ حسَنٍ ثمَّ ينصَرِفُ:

﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل١٢٥.

عن النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّمَ: "إن لربكم أيام دهركم نفحاتٌ، ألا فتعرضوا لها".

إذن، المَوعِظَة هي الإرْشَادُ السَّليمُ لتحْقيقِ السَّلامِ الدَّاخِليِّ للإنسانِ أولاً، ثمَّ يكونُ مُسالِمَاً مع الآخَرين، ثمَّ يسْلَمُ من العِقابِ والذُّلِ سواءً في الدُّنيا، أو الآخِرَة.

فالذي يتّبعُ موعِظَةَ اللهَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، يسْلَمُ تماماً، وتتحسَّنُ حياته، يعيشُ براحَة نفْسٍ، وهدوءِ أعصَابٍ، وصفاء ذهن. لا يمرُّ عليه يومٌ واحدٌ إلَّا ويقدِّم فيه نفْعَاً لنفسِه، ولغيرِه. وكما جاءَ عن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "المؤمن كالغيث أينما وقع نفع".

فهذه المَوْعِظَةُ الرَّبَّانيَّةُ الثَّمينَةُ، تكمُنُ في القرآنِ الحَكِيمِ، وقد تفضَّلَ به ربُّ العَالمِين على عِبادِه.

﴿وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾. الشِّفَاء هنا هو طَرْدُ الوَسَاوسِ والأَوْبئَةِ النَّفسِيَّة من صدْر الإنْسانِ، فيُحقق القرآنُ المجيدُ راحةً نفسيّةً عظيمةً للمؤمِن، فينشَرِح صدْرُه. وإذا كانَ صدْرُ الإنسانِ مُنشَرِحاً، كانَ بخَيرٍ، وانشِرَاحُ الصَدرِ فضلٌ كبيرٌ من اللهِ على الإنسانِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ* وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ* الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ* وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ الشرح١ – ٤. وقد تحقَّقَ ذلك لرسولِ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ بالقُرآنَ الذي أنْزلَه على قلبِه. ويتحقَّقُ للمؤمِنِ الذي يتَّبِعُ مؤعِظَةَ اللهِ عزَّ وجلَّ في القُرآنِ ويتَّخِذُها منْهَاجَاً لحياتِه في كلِّ زمانٍ ومكان.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً* فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ* وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ الشرح٥ – ٨. هذا مِمَّا يعظُكَ به القرآنُ العَظِيمُ فيما قالَ اللهُ تَعَالَى شأنُه في الآيةِ الكَريمةِ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾.

فالإنسانُ عندما يقْرَأُ القرآنَ، أو يستَمِعُ إليه، تُشْفَى فيه أوبئَةٌ نفْسِيَّةٌ. كما يُخبر الله عزَّ وجلَّ في الآيَة الكَرِيْمَةِ. فهذا الذِكرُ الحَكيمُ هو ﴿شِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾. وطمأنينةٌ للقلوب:

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد٢٨.

فاحملِ المُصحَفَ، وقبِّلْه، افتحْه، واقرَأْ، وكلُّ قِراءَةٍ تشْفِي وباءً نفسيَّاً في صَدْرِك، سواء أكنتَ تعلَمُه أو لا تعلَمُه.

كلُّ قراءةٍ تحقِّقُ طُمَأنِينةً لقلبِك، سواء أعلِمتَها أو لم تعلَمْها.

والشِّفَاءُ هنا بمعْنَى زَوَالِ الكَرْب النفْسِيِّ عنك، لكنْ إذا ابتعَدْتَ عن القُرآنِ، عادَ إليك، لأنه أساساً وَجَدَ منْفَذَه إليك بسببِ بُعدكَ عن القُرآنِ، وقُربكَ من القُرآنِ صَرَفه عنك، فإن عُدْتَ إلى الابتعَادِ عن القُرآنِ، وجَدَ الكرْبُ النَّفسيُّ مَنفَذَاً إليك كرَّةً أخرى.

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء﴾ فصلت ٤٤ .

يُروى أن رجلاً جاء إلى النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، فقال: إني أشتَكِي صدْرِي. فقالَ له: "اقرَأ القرْآن، يقولُ الله تَعَالَى: ﴿وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾.

ويُروَى أنَّ رجلاً شَكَا إلى النَّبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ وجعَ حَلقِه، فقالَ له: "عليك بالقرآن".

هنا يتبيَّنُ بأنَّ الحَالَةَ النَّفسيَّةَ الهادِئَةَ التي يُحقِّقُها القرآنُ، تُفيدُ حَتَّى المُصَابَ بأمْراضٍ عُضْويّةٍ. فالتَّهدِئةُ النَّفسِيَّةُ تُساعِدُ على الشِّفاءِ والتَّقليْلِ من آلامِ المَرَضِ العُضْويِّ، كما أنَّ الاضْطِرَابَ النَّفسِيَّ يبطِّئ الشِّفاءَ، ويُفَاقِم من آلامِ المَرَضِ العُضْويِّ وبالتَّالِي يتِيْحُ له كي يسْتفْحِلَ أكثرَ وأكثرَ.

فمريضٌ بأيِّ مرَضٍ عُضْوِي، يقرَأُ القرآنَ، يختلِفُ عن مريضٍ لا يَقْرأ القرآنَ، رغمَ أنَّ الاثنَينَ يتَناولَانِ ذاتَ العَقَاقِيرِ الطِّبيَّة.

فالأوَّلُ، يكونُ مُنشَرِحَ الصَّدرِ، يدرِكُ بأن اللهَ يمْتَحِنه بالمرضِ، كما أنَّه يمْتَحِنه بالعافيَةِ، وقد مَتَّعَه كذا سنةٍ بالعافيَةِ، فيُراجِعُ نفسَه عَمّا بَدَرَ منه من تقصِيرٍ عندما كانَ بعافِيَتِه، ويستغْفِرِ ربُّه ويتوبُ إليه.

هنا حَتَّى المرضُ يخدِمُه بأن يجعلَه يُصحِّحُ ما بَدَرَ منه، ولولا المرضُ لَما حَصَلَ ذلك. وهكذا هو المُؤمِنُ في كلِّ أذىً يُصِيْبُه في بدنِه، في عَصَبِه، في مالَه، في عيَالِه، وما إلى ذلك. فيُراجِعُ نفسَه، ويتوسَّلُ إلى اللهِ أنْ يعْفوَ عنه، ويَشْفيَه أو ينْجِيَه من المِحنَةِ، وحَتَّى إذا ما وجدَ ذنباً ارْتَكَبَه، فلعلَّه ارْتكَبَ الذَّنْبَ دونَ أنْ يعلمَ به نتيجة تسَرُّعٍ ما، في موقفٍ ما، أو نقطةِ ضعْفٍ ما، في موقفٍ ما، فيسألُ اللهَ المَغفِرَة عن ذُنُوبٍ علِمها أو لم يعلَمْها، ولعلَّه اجْتهَدَ ولم يُصِبْ في اجتِهَادِه، وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ الأكبرَ مَقَامَاً، لم يصِبْ في جميعِ اجْتِهَادَاتِه، وكانَ اللهُ تَعَالَى شَأْنُه، يصَوِّبُ له في القُرآنِ، حَتَّى إن بعضَ هذه التَّصْوِيْبَاتِ لو كانَت لشخصٍ غير النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، لرَآها مُحْرِجَة

ولكنَّ رسولَ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ كانَ يرْتقِي أكثرَ من خلالِ تَصْوِيْبَاتِ ربِّ العَالمِينَ له، ويزدادُ بها إيمَاناً على إيمَانٍ، ونُضُوجَاً على نُضُوجٍ، فعندما يُحبُّ اللهُ إنساناً، فإنه تَعَالَى شَأْنُه، يصوِّبُ له، وإذا كانَ التَّصْوِيْبُ للنَّبيِّ عليه صلواتُ اللهِ وسلامُه، من خلالِ القُرآنِ، فالتَّصْوِيْبُ

للمُؤمِن من خِلالِ بعضِ الابتِلَاءَاتِ التي هي أيضَاً تتحوَّلُ بالنِّسْبَة لهذا المُؤمِنِ إلى آياتٍ من آيَاتِ اللهِ إليه، وهيَ آياتُ الابتِلَاءِ. فهذه هي العلَاقةُ السَّليمةُ بين المُؤمِن وبينَ ربِّه.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة١٥٥ .

عن أنسِ بن مالك عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم: " إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ"[١] .

هكذا يتعلَّمُ المُؤمِنُ الدُّروسَ مِن المِحَن، فيزدَادُ صَلَاحَاً، يزدادُ تهْدِئةً، يزدادُ طِيْبَاً، يزدادُ إنْسَانيَّةً، يزدادُ إيمانَاً، يزدادُ صبْرَاً، يزدادُ صَدَقةً، وفي ذلك كلِّه، يزدادُ عِبادةً للهِ عزَّ وجلَّ، يزْدَادُ في درجَاتِ قُربِه من اللهِ عزَّ وجلَّ. فكل هذه المَزَايَا تحَقَّقَت له بفضلِ اللهِ عليه من خلالِ تلك المِحْنَةِ التي اخْتَبَرَه بها، وإضافةً إلى ذلك كلِّه فإن تلكَ المِحْنة حمَلَتْ له ثَوَاباً.

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْه عن النَّبِيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "ما يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِن نَصَبٍ ولَا وصَبٍ، ولَا هَمٍّ ولَا حُزْنٍ ولَا أذًى ولَا غَمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بهَا مِن خَطَايَاهُ"[٢].

فقد كانتِ المِحْنة في حَقيقتِها آيةَ حبٍّ من اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، إليه، فيشْكُرَ اللهَ على البَلاء، كما يشْكُرُه على النَّعْمَاء.

أمّا الثَّاني، فيكونُ مُسْتَنفِرَاً، ويحتقِنُ وجهُه، فيزدادُ بذلك أذىً لنفسِه ولغيرِه، وتَتَفاقَمُ عليه آثارُ المرضِ وهو يعيشُ حَالةَ فزعٍ مُسْتَمِرّةٍ، ويكونُ مَسْكوناً بالهَلَعِ من المرضِ الذي اسْتبدَّ به، فيتجرَّعُ نوباتِ الألمِ البدنَيِّ والنَّفسِيِّ على مَضَضٍ.

وبذلك فإنَّه ازدَادَ ظلمَاً وأذىً لنفْسِه ولغيره، ازدادَ اضْطِرَابَاً، لأنه بمرضِه كانَ بعيْدَاً عن اللهِ، وقد امتحَنَه اللهُ بالمَرضِ ليكونَ كالمُؤمِنِ الذي استثْمَرَ فرصَةَ المرضِ واعتَبَرَها منحَةً منَ اللهِ، وقَطَفَ كلَّ تلك الثِّمَار اليَانِعَة من خلالِ مرَضِه.

﴿وَهُدًى﴾. إنقَاذَاً من الضَّلَالِ الذي يكونُ فيه الإنسانُ، فيُخْرِجُه القرآنُ من مُنعَرجَاتِ الكفْرِ إلى اسْتقَامةِ الإيمان. فتتحسَّن حياتُه، ويتحسَّنُ مَعَاشُه.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾. الرَّحمَة هي الخيرُ الذي يظفَرُ به الإنسانُ من خلال اتّبَاعِ شرْعِ اللهِ في القُرآن.

---

[١] رواه الترمذي

[٢] صحيح البخاري

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. هذا كلُّه يكونُ فقط للمُؤمِنِ، ولا ينْتَفِعُ به غيرُ المُؤمِنِ، وهنا دعوةٌ للكافِرِ إلى الإيمانِ حَتَّى يحظَى بكلِّ تلك الخيراتِ والمَكْرُمَاتِ.

فلا يعني ذلك أنَّه يكونُ لِمَن يكوْنُ مُؤْمِناً فقط، بل لكلِّ مَن يُؤمِنُ وقد كانَ كافِراً من قبلُ، كما أنَّ المؤمِنَ ذاتَه قد ينقلِبُ إلى كافِرٍ، فيكونُ مثلُه مثل غيرِ المُؤمِن رغمَ أنه كانَ مُؤمِناً، ثم إنّ الكافِرَ يكوْنُ مثله مثل المُؤمِنَ عندَ إيمانِه رغمَ أنه كانَ كافِراً.

فالخِطابُ مُوَجَّه إلى النَّاسِ جميعاً بأَنَّ هذه المَنَافِع: ﴿مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. تكونُ خاصَّة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون غيرِهم. ولذلك لم يكُنْ مُفْتَتَح الآيةِ: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ المُؤمِنُون. بل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. أي آمِنُوا حَتَّى تَظفرُوا بكلِّ هذه المَزَايَا التي لا تكونُ إلَّا ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ منْكُم.

عَن عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"[١].

فخير الناس هو الذي يُعلّم الناس الخَير. والقرآن كله خيرٌ في خير.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ وَفَضْلُ كَلَامِ اللهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ"[٢]. ربما السائل ينسى أشياء، أو لا يعلم بها حتى يسأل الله، فالإنسان لا يعلم أين يكون خيره، لكن هنا فالله عز وجل الذي يعرف خير الإنسان، فإنه سبحانه وتعالى يعطي له ما ينفعه، ويصرف عنه ما يؤذيه، لأنه منشغل بالقرآن وبذكر الله عز وجل.

وجَاءَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي: قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ. فَإِنَّهَا رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ".

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زِدْنِي.

قَالَ: "عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَّكَ فِي السَّمَاءِ"[٣].

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ"[١].

---

[١] رواه أحمد

[٢] رواه الترمذي

[٣] رواه ابن حبان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ فَيَرْضَى عَنْهُ فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقَ وَتُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً"[٢].

عَنِ ابْنِ عمر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ثَلَاثَةٌ لَا يَهُولُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ، وَلَا يَنَالُهُمُ الْحِسَابُ، هُمْ عَلَى كَثِيبٍ مِّن مِّسْكٍ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ حِسَابِ الْخَلَائِقِ: رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى، وَأَمَّ بِهِ قَوْماً، وَهُمْ رَاضُونَ. وَدَاعٍ يَّدْعُو إِلَى الصَّلَاةِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَعَبْدٌ أَحْسَنَ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَفِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَوَالِيهِ"[٣].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَقَدِ اسْتَدَرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يُوحَى إِلَيْهِ، لاَ يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ أَنْ يَجِدَّ مَعَ جِدٍّ، وَلا يَجْهَلَ مَعَ جَهْلٍ وَفِي جَوْفِهِ كَلامُ اللهِ تَعَالَى"[٤].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ". قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ"[٥].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ، وَأَصْحَابُ اللَّيْلِ"[٦].

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآن كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ"[٧].

---

[١] رواه ابن حبان

[٢] رواه الترمذي

[٣] رواه الطبراني

[٤] رواه الحاكم

[٥] رواه ابن ماجه

[٦] رواه البيهقي

[٧] رواه البخاري

الباب الثامن والخمسون
الفرح الإيجابي والفرح السلبي

﴿٥٨﴾

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

الفرحُ في القُرآنِ مَحْمُودٌ أحياناً، ومَذْمُومٌ أحياناً. يكونُ مَحمُوداً عندما يفرحُ الإنسانُ بِما أعطاهُ اللهُ له من فضْلٍ، فيقْترِنُ الفَرَحُ بِذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

فالذي يفرَحُ بشيءٍ دونَ شُكْرِ الله، يخرُجُ عن حبِّ اللهِ له: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ القصص٧٦ . وهذا الكلامُ هو مُخَصَّصٌ لِمَن يفرَحُ طُغْيَاناً بالنِّعمَةِ، وهوَ ما يمكِنُ أنْ أسمِّيَه بالفرحِ السَّلبيِّ الذي ينجُمُ عن البَطَرِ. لندخُلْ إلى أجواءِ الآيةِ كاملةً: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ القصص٧٦.

فالذين لا يشْكُرُون اللهَ عندَ حصولِهم على مَنافِعَ، ولا يعيْدُونَ أصلَ هذه المنافعِ إلى فضْلِ اللهِ عليهم.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ هود ١٠ .

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ الأنعام٤٤ .

وبذات الوقتِ فإنَّ اللهَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى يدعُو إلى الفرَحِ، والفَرحُ هنا يكوْنُ عِبادَةً، لأنه استِجَابةٌ لأمرِ الله: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾. لكنْ ما هُوَ سببُ هذا الأمرِ بالفرَحِ؟

السَّببُ هو: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾.

إذنْ: ﴿فَبِذَلِكَ﴾ . أي ﴿بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ عليهِم من خلالِ دينِ الإسلامِ، ومن خلالِ القُرآن. فأنتَ تفرَحُ لأنّكَ مُسْلِمٌ، وتفرَحُ لأنَّ اللهَ مَنَّ على الإنسانِ بنزُوْلِ القرآنِ الذي يُصلِحُ له حياته. فتحتفي بالقرآن وتسرَ به، وينشَرِحُ صَدرُكَ بالقرآن، تُحبُّ القرآنَ، وتُحِبّ مَن يُحبّ

القرآنَ. تحمِلُ المصحَف بيدَيك بفرَحٍ، تُقبِّله بفرحٍ، تقرَؤه ووجْهُك فَرِحٌ، فهو بالنِّسْبَةِ لك أثمَنُ من أثمنِ كنزٍ في الأرضِ، وقد أظْفَرَكَ اللهُ به بفضْلٍ منه، وكان يمكنُ لكَ أن تكون مَحْرومَاً من ملّةِ الإسلام، ومَحْرومَاً من قراءةِ القرآنِ. فتذكَّرْ قولَ ربِّك: ﴿فَبِذَلِكَ﴾. بالإسلامِ والقرآنِ. والإسلامُ اكْتَملَ بالقرآنِ، والقرآنُ هو كمالُ الإسلامِ، وتمَّتْ به نعمَةُ اللهِ على الإنْسانِ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ المائدة٣.

إذن: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾. الفرَحُ هو شعورٌ بالمَسَرّة ينتعِشُ به الإنسانُ، والفرحُ ذاتُه هو فضْلٌ من اللهِ على الإنسانِ، لكنْ عليْه أن يوظِّفَه التَّوظيفَ القُرْآنيَّ السَّليمَ، وذلك هو الفرَحُ الحَقيقيِّ الذي يسْتمتِعُ به ويعيشُه الإنسانُ المُؤمِنُ، لأنَّه فرَحٌ مَحمُودٌ، إضَافَةً إلى أنَّه يكونُ عِبادَةً من الإنسانِ لربِّه. فيفرَحُ وبذاتِ الوقتِ يثِيْبُه الله على فرحِه. الفَرحُ هنا هو مشاعِرُ الشُّكْرِ الإيمَانيَّةِ الصَّادِقَةِ للهِ عزّ وجلَّ، وهذا الإنسانُ الذي يفْرَحُ في الدُّنيا ﴿بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾. فإنَّه كذلك يفرَحُ في الآخرةِ عندَما يثِيْبُه اللهُ، ويغْفِرُ له خَطَايَاه، ويجعلُ الجَنَّةَ من نصيبِه: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ آل عمران ١٧٠.

هذا كلُّه يتحقَّقُ للإنسانِ: ﴿بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾.

رحمةُ اللهِ هنا تشْمَلُ كلَّ ما يُجَنِّبُ الإنسانَ العِقابَ الذي يسْتَحقّه نتيجةَ ارتكَابِه الذُّنُوبَ، فبرَحْمةِ اللهِ تُغْفَرُ لك ذُنوبُك التي اقتَرَفْتَها، وتمْحَى من صَحِيفتِكَ كما لو أنَّك لم تقْتَرِفْها، وبرحمةِ اللهِ تُنجَّى من مخاطِرَ سبَّبتَها لنفسِك. فيمهِلُ اللهُ برحمتِه، ولا يُعَاجِل العِقابَ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ النحل ٦١.

عن أبي مُوسَى الأشْعرِيّ عن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا".[1]

فالمؤمِنُ يغْتنِمُ المُهلةَ ليُصْلِحَ، فكم من مُذنبٍ سَتَرَه اللهُ برحمَةِ السِّتْرِ، فتابَ وأصلَحَ، ومُحِيَت عنه ذُنوبُه، بل إن اللهَ حوَّلَ ذنوبَه إلى حَسَناتٍ، لأنَّ التوبةَ صَادِقةٌ، والإصْلاحُ صادِقٌ.

ثم اختُتِمَت الآيةُ الكريمَةُ بقوله تَعَالَى: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

---

[1] صحيح مسلم

﴿هُوَ﴾. أي مضْمونُ ﴿فَبِذَلِكَ﴾: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من أمْوالٍ لا تستَحِقُّ أن يفرَحُوا بها، لأنَّ الإنسانَ حقيقةً لا يعرِفُ إن كانَ هذا المالُ ينْفعُك أو يُؤذِيك. فكم من ثروةٍ طائلةٍ أودت إلى هلاك صاحِبِها. ففرَحُك بالمال يجعلُكَ مُتمَسِكّاً به، ومُتَجَاوِزاً في سبيلِه حدودَ الله. أمَّا فرحُك بالإسلامِ والقُرآنِ، فهو فرَحٌ جمِيلٌ لأنَّ الإسلامَ هو الدِّينُ، والقُرآنُ هو الهِدايَةُ إليه، والتَّفاعُل مع أركَانِه. ولذلك ستجعَلُ أموالَك في خدْمَةِ الفَرَحِ الأكْبرِ، وتنْفِقُ في سَبيلِ اللهِ. في حينِ أنَّ الآخَر الذي يجِد فَرَحه في اكْتِنازِ المَالِ، يتجاوَز حُدودَ اللهَ حَتَّى يكْنِز أكثرَ. فيمكِنُ له أن يحْتكِرَ، أو يغِشَّ، أو يختلِسَ، أو يحْتالَ، أو يكذِبَ.

يُروَى عن أيْفَعَ الكَلاعِيِّ أنه: (لما قدم خِرَاجُ العراقِ إلى عمرَ بن الخطَّاب، خرج عمر، خرج عمرُ ومولىً له، فجعلَ يعُدُّ الإبلَ، فإذا هو أكثرُ من ذلك، فجعَلُ عمرُ يقولُ: الحمدُ للهِ. وجعلَ مولاه يقولُ: هذا واللهِ من فضْلِ اللهِ ورحمتِه. فقال عمرُ: كذبت ليس هو الذي يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. وهذا يبيِّنُ قراءَةَ عمر الدَّقيقةَ للآية.

فخيرُ الجَمْعِ هو ما يُنفَقُ ابْتغَاءَ مَرْضَاة اللهِ. أمّا العكسُ، فيجْعَلُ الإنسانَ أيضاً على العكْسِ، فيوظِّفُ الدِّينَ للحُصولِ على أمْوالٍ ومَآربَ دُنيَويَّة، وذلك ما لا يستحِقُّ الفرحَ، بل يسْتحِقُّ الحُزنَ. فالفرحُ يكونُ في تَحْقيقِ الخيْرِ، وليس في تَحْقيقِ الشَّرِّ، تَحْقيقِ العدلِ، وليس في تَحْقيقِ الظُّلمِ، في القُربِ من الله، وليسَ في البُعدِ عنه. وهذا مَا يستَحِقُّ أنْ يفْرَحَ الإنسانُ له.

الباب التاسع والخمسون
الافتراء المردود

﴿٥٩﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴾

تأتي الآنَ الأشياءُ المَادّيَّة التي تُرَى رَأْيَ العَين.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم﴾. بأعيُنِكم: ﴿مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾. الرِّزقُ هنا هو كلُّ ما ينتفِعُ به الإنسانُ في الأرضِ، لأنَّ مصْدَرَ كلِّ ذلك هو اللهُ الذي في السَّمَاء. والإنسانُ ذاتُه هو ابنُ السماءِ أوّلاً، قبل أن يكونَ ابنَ الأرْضِ، وقد جاء من السَّماءِ إلى الأرْضِ، وبذلك فإن كُلَّ مولودٍ، لا يمكِنُ له أن يأتِيَ إلَّا بأمر اللهِ الذي في السَّماءِ. وعلى هذا النَّحْوِ، لا يمكِنُ لنبتةٍ أن تنْبُتَ، ولا لحَيَوانٍ أن يوْلَدَ، ولا لمَعدَنٍ أن يتَشكَّلَ، ولا لنَسْمةِ هواءٍ أن تَهب، وما إلى ذلك من مُقوِّمَاتِ الحياةِ على الأرضِ إلَّا بأمر الله.

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ* أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ الواقعة﴾ ٥٨،٥٩.

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ* أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ* لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ الواقعة﴾الواقعة٦٣– ٦٥.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ* أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ* لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ الواقعة٦٨– ٧٠.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ* أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ* نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ﴾ الواقعة ٧١– ٧٣.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الزمر٦.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ النحل٨.

﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الذاريات ٢٢.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً* فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً* وَعِنَباً وَقَضْباً* وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً* وَحَدَائِقَ غُلْباً* وَفَاكِهَةً وَأَبّاً* مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ عبس ٢٤ – ٣٢.

وعلاقةُ الأرضِ بالسَّماءِ مُتَّصِلةٌ بشكْلٍ نظَريٍّ مَلمُوسٍ من خلال الكثِيرِ من مقوِّمَات الحَيَاة، مثل: المَطَرِ، والشَّمسِ، والقمَرِ، وما إلى ذلك. فعندما يتأخَّرُ هُطُولُ المَطَر، يبْتَهِلُ النَّاسُ إلى اللهِ بالدُّعاءِ سَائِلينَه نزوْلَ المَطَرِ. ورغمَ أن اللهَ تَعالَى ذكْرُه قد ملأَ الأرضَ بالمَاءِ وأنَّ نِسبَةَ الماءِ من خِلالِ البحارِ، والأنهارِ، واليَنابِيعِ، والآبَارِ هي أكثرُ من نسْبَةِ اليَابِسَة، حيث تُقدَّر نسْبَةُ الماءِ بنحوِ ٧١ بالمئةِ، في حين تُقدَّرُ نسْبَةُ اليابِسَة بنحوِ ٢٩ بالمئةِ على الأرضِ، إلَّا أن ذلك لا يجعَلُ الأرضَ تسْتَغْنِي عن مطَرِ السَّماءِ حَتَّى تستمرَّ الحياةُ بشكْلٍ طَبِيعيٍّ.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً﴾.

﴿فَجَعَلْتُم﴾ مِن هذا الرِّزقِ الذي رزَقَكُم اللهُ به ﴿حَرَاماً﴾. تُحَرِّمُونه على البعضِ منكُم. ﴿وَحَلاَلاً﴾. تُحِلُّونَه للبعضِ منكُم. ومن ذلك: ﴿وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ* وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الأنعام١٣٨، ١٣٩.

الآنَ في الشَّطرِ الثَّاني من الآيةِ الكريمةِ، أيضاً: ﴿قُلْ﴾. وهذه الـ ﴿قُلْ﴾ الثَّانيةُ هي تأكيدٌ واسْتِئنَافٌ لـ ﴿قُلْ﴾ الأولى التي اسْتُهِلَّت بها الآيةُ الكريمةُ.

﴿قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

تكشِفُ الآيةُ هنا بأنَّ ما قالُوه سَابِقاً في الآيةِ٣٨: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾. هم أنفسُهم يُمَارِسُون مَضْمُونَه. فهم كانُوا يدَّعُون بأن النَّبيَّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ افْتَرَى القرآنَ: ﴿بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ الأنبياء٥.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ الفرقان٤.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ السجدة٣.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الأحقاف٨.

فالحَقِيْقَةُ أنتم تفْتَرُون على الله بجعلِكُم مِن هذا الرِّزقِ ﴿حَرَاماً وَحَلاَلاً﴾. وحَلالُ اللهِ هو للنّاسِ جميعَاً، وحرامُه هو على النَّاسِ جميعَاً. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الأنعام٢١.

فإن أذِنَ لكم اللهُ، أفْصِحُوا عن الإذن، ﴿أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴾. فما تقولونَه هو ليسَ من عنْد اللهِ، وإنكم ﴿عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

الباب الستون
شُكر الله على فضله

﴿٦٠﴾

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾

تتحدَّثُ الآيةُ الكريمةُ عن فئةٍ من النَّاسِ يؤمِنُون باللهِ، لكنَّهم في الآنِ ذاتِه: ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ﴾. مثلَ أنَّ الله ظَلَمَهم في الدُّنيا، وسيَظْلمُهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وأصْحابُ هذه المعْتقَدَاتِ، تشطَحُ بهم مُخيِّلَاتُهم بعيْدَاً دون ضَابِطٍ، وهم يتَّبعُونَها ظانّينَ بأنَّهم على صَوَابٍ، وأنَّ الذينَ يُؤمِنونَ بعدالةِ الله على خطأٍ، بل يتَمَادُون ويستهزِئون بهم.

هذه الآيةُ الكريمةُ تُفصِحُ لهؤلاء بأنَّهم يتَّبعُون التَّكَهّناتِ غير المَبنيَّةِ على علمٍ. والحَقيقةُ: ﴿إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ كافّةً في كلِّ زمانٍ ومكَانٍ. والدَّليلُ أنَّه تَعَالَى شَأْنُه لم يخْلُقِ النَّاسَ فاسِدِينَ كي يكبرُوا ويصلِحُوا، بل يخْلُقُهُم بالفطرةِ صَالِحِينَ، ثمَّ هُم فيما بعدُ عندمَا يرْشُدُون، إمّا أنْ يتَفَاعَلُوا مع صَلاحِهِم الفِطْريِّ في حيَاتِهم، أو يجْنَحُوا شطْرَ مُنعَرَجَاتِ الفسَادِ مُبْتعِدِين عن بذْرَتِهم الصَّالِحَةِ. وتبقَى هذه الحُريَّةُ للإنسَانِ في مُختَلَفِ مَراحِلِ حياتِه، فيمكِنُ له أن يُصْلَحَ بعد فسادٍ في أيِّ مرحَلَةٍ من مراحِلِ عمرِه، كما أنَّه يمكنُ أنْ يرْتَدَّ عن الصَّلَاحِ إلى الفسَادِ في أيِّ مَرحَلةٍ من مراحِلِ عمرِه. واللهُ عزَّ وجلَّ لا يفرَحُ عندما يفسَدُ الإنسانُ بعدَ صلاحٍ، بل يفرَحُ عندمَا يُصلَحُ الإنسانُ بعد فَسَاد.

عن ابن مسعود قَالَ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ")[1].

---

[1] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ"[١].

وقد منَّ اللهُ على الإنسانِ بنعْمَةِ الرَّحمةِ التي بمُوْجبِها يُعفَى عن عُقُوباتٍ يستحِقّها نتيجةَ ارْتكَابِه لتَجاوُزَاتٍ.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الأنعام ٥٤.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللّهُ عَنْه أن رسولَ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ قال: "إنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ".[٢]

إذن حَتَّى هؤلاء: ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ﴾. فإنَّ هذه الآيةَ لهم كي يُصَحِّحُوا مَفَاهيمَهم الخَاطِئةَ. ويتبيَّنُ من الآيةِ بأنَّ اللهَ في غنىً عنهُم سواء آمنُوا، أو لم يؤمِنُوا، ولكن رحْمَةً بهم، حَتَّى لا يلبَثُوا في الضَّلالِ. كما أنَّ اللهَ يُتيحُ لهم أن ينشُرُوا تَكَهُّناتِهم الضَّالّةَ عنِ اللهِ في أكثرِ وسَائلِ التَّوَاصُل انْتشَاراً. لكن كيفَمَا تقلَّبَ الأمرُ، ستراه يكُونُ لمصلَحَةِ صَلاحِ الإنسَانِ. وما ذلك إلَّا لأنَّ اللهَ هو العدلُ كلُّه، لأنَّ هذه التكهّناتِ تُزيدُ المُؤمِنينَ رسُوخَاً في إيمَانِهم، ربَّما أكثرَ ممّا لو اعْتَلَى هذا المِنْبَرَ الواسِعَ الانتشَارِ شخصٌ مُؤمِنٌ.

فأحياناً وأنتَ تستمِعُ إلى بعضِ أَقَاويلِ الضَّالّين، تزْدَادُ تمَسُّكَاً بإيمَانِك، وتزْدَادُ شُكراً للهِ على نعمَةِ الإيمَانِ.

﴿إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾. كافّةً ﴿النَّاسِ﴾. دونَ اسْتثنَاء أحَدٍ منهُم في كل زمانٍ ومكانٍ.

فلا شَخْص واحِد قط مِن ﴿النَّاسِ﴾. إلَّا ﴿اللّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عليه. فضْلُ الحَياةِ، فضْلُ الصِّحّة، فضْلُ الاسْتِمْتَاعِ بالمَبَاهِجِ واللَّذَائذِ، فضْلُ الحَوَاسِّ الدَّرَّاكَة، فضْلُ السَّترِ، فضْلُ الشِّفَاء مِنَ الأمْراضِ، فضْلُ النَّجَاةِ من المَخَاطِر، فضْلُ مَغفِرَة الذُّنوبِ. وما إلى ذلكَ.

---

[١] صحيح مسلم

[٢] صحيح البخاري

فليسَ: ﴿إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى﴾ المُؤمنينَ. بل ﴿عَلَى النَّاسِ﴾. ذرّيّةِ آدمَ قاطبةً، مُؤمنين وغيرِ مُؤمنيْنَ. وحَتَّى المَصَائبُ التي يسَبّبُها النَّاسُ لأنفُسِهم مُؤمنينَ كانُوا أو غير مؤمنين، فإنَّ اللهَ ينْجِيْهم برَحمتِه من أكثَرِها، وحَتَّى التي يلقونها نتيجَةَ عنَادِهم وإصْرَارِهم عليها، فهي نسبَةٌ قليلةٌ جداً قد تكون أقل من ١٠ بالمئة فقط ممَا يستحقونها: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ الشورى ٣٠.

ثمَّ انتهَتِ الآيةُ الكريمةُ بـ: ﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾. أكثرُ النَّاسِ لا يشْكُرونَ فَضلَ اللهِ عليهم. أي الشُّكْر المُتَكَامِل، فيعيشُ الإنسانُ حَالَةَ الشُّكْر وهو يلفِظُ كلمَاتِ الشُّكْر، فكثيرٌ من النَّاسِ يتلفَّظُون كلماتِ الشُّكْرِ بشكلٍ يَكادُ يكونُ أوتُومَاتيكيَّاً.

الشُّكْرُ هنا أن تعيشَ مَعنَى الشُّكْرِ، وأن يكونَ خالِصَاً للهِ تعَالَى دونَ أن يشُوبَه أيُّ شيءٍ آخَر. فتتعرَّفُ على النِّعْمةِ وتُقدِّرُها، فعندما تفرِّط بصِحّتكِ، فإنّك لا تشْكُرُ اللهَ على نعمَةِ الصِّحّة، وعندما تبذِّرُ بمالِك، فإنّك لا تشكُرُ اللهَ على نعمَةِ المالِ، وعندما تهمِلُ زوجتَكَ، فإنّك لا تشْكُرُ اللهَ على نعمَةِ الزّوجَةِ، وعندما تهمِل أوْلادَك، فإنّك لا تشْكُرُ اللهَ على نعمَةِ الأوْلَادِ، وعندما تهْمِلُ أصْدِقَاءَك، فإنّك لا تشْكُرُ اللهَ على نعمَةِ الصَّدَاقَةِ، وعندما تُهمِلُ جِوارَك، فإنّك لا تشْكُرُ اللهَ على نعمَةِ الجِيْرَةِ، عندما تُهمِل قراءةَ القُرآنِ، فإنّك لا تشْكُرُ اللهَ على نعمَةِ القُرآنِ، ولا عَلَى نعمَةِ القِراءَةِ، عندما تهمِلُ صِلَةَ الرَّحِم، فإنك لا تشْكُرُ اللهَ على نعمَةِ الرَّحِم. لكن بيّنَتِ الآيَةَ الكَرِيْمَةُ بأنه رغمَ كُلِّ أشكالِ وتَفَرّعَاتِ اللا شُكْرِ للهِ تعَالَى، فـ: ﴿إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾.

لا يُعامِلُهُم بنُكْرَانِهم نِعَمَه الجَمّةَ عليهِم، بل يُعامِلُهم برَحْمتِه التي كتَبَها على نفسِه. ولذلك: ﴿إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾.

الآنَ وبعدَ أن بيَّنَتْ لكَ الآيةُ الكَريمةُ هذا الفضْلَ، فيتَوَجَّبُ عليكَ أنْ تشكُرَ اللهَ إنْ لم تكنْ شاكِراً له، أن تُقدِّرَ إن لم تكنْ مُقَدِّراً، أن تُدرِكَ كلَّ النِّعَم التي ترْفَلُ فيها، إنْ لم تكُن مُدرِكَاً. وكلُّ هذا يحثُّكَ على شكْرِ اللهِ سُبْحَانَه وَتعَالَى على مَا أنعَمَ به عليكَ. والنِّعمةُ دونَ شكرٍ حَقيقيٍّ تَزُوْل، كما أنَّها تدُومُ مع دَوامِ الشُّكرِ الحَقيقيِّ.

الباب الواحد والستون
دقّة توثيق الأعمال

﴿ ٦١ ﴾

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾

الخِطابُ مُوجَّهٌ إلى شخصِ رسُولِ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿فِي شَأْنٍ﴾ مِن شُؤونِ نشْرِ الدَّعوةِ.

﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾. في بيَانِ الشَّأنِ الذي تكونُ فيه. ولعلَّ ﴿مِنْهُ﴾ هنا تفْخيْمٌ للقرآن، وهذا لهُ وجُوْدٌ في القُرآنِ مثل: إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }القصص ٣٠.

إذن: ﴿مِن قُرْآنٍ﴾. أي ﴿مِن﴾ آيَاتٍ قرآنيَّةٍ ﴿مِن﴾ كتابِ ربِّكَ.

والشَّأنُ هو الأمرُ من الشَّيءِ. والشأنُ – جمعه شؤون– مُستَمرٌّ لأن شُؤُون النَّاسِ مُستَمرَّةٍ. وفي ذلك بيانُ اللهِ عزَّ وجل:

﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ الرحمن٢٩. فتتغيَّر للناسِ شُؤُونُهم، والحياةُ دوماً في تجَدُّد، فاللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى يستَجيبُ لدعاءِ الإنسان، ويغيّرُ له شأنَه. وبذلك: ﴿هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ البقرة٢٥٥. أي عَن شُؤُونِ عِبادِه.

عن أبي مُوسى الأشعريِّ أنَّه قَالَ: (قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ").[1]

كانَ الخِطابُ موجَّهاً للرَّسُولِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، الذي يتولَّى إدارةَ شؤون نشْرِ الدَّعوةِ، وفي ذلك بيانٌ بأنَّهُ لم يكُن قارئاً فقط للقرآنِ، بلْ كانَ عَامِلاً، ومُجَاهِداً ومُكَافِحاً.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾. أي في مهمّةِ عَمَل دَعَويٍّ.

والآنَ، يتحوَّلُ الخِطابُ إلى صيْغَةِ الجَمعِ المُوَجَّه للأُمَّة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ: ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾. أيُّ عمَلٍ تقومُون به يشهَدُه اللهُ عزَّ وجلَّ

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾. الفَيْضُ بمعنَى الكَثْرةِ، فعندَمَا يكثُرُ هُطُولُ المَطَر، تفِيْضُ الأرضُ بالمَاءِ الكثيرِ، فيتحَوَّلُ إلى فيَضَانٍ على الأرضِ.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾. في القِيَامِ بالأعْمَالِ الصَّالِحَة ابتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَى. وقد شبَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ كثْرةَ العَمَلِ بالفَيْضِ، حيثُ نرَى أُنَاسَاً لا يعمَلُون فقط، بل يفِيْضُون عمَلاً، لأنّهم يعمَلُون أكثرَ ممّا هو مَطْلوبٌ منهم. فإذا أخرَجَ الشَّخصُ زَكَاتَه، لا يكتَفِي بذلك طوَالَ سنةٍ كاملةٍ، بل لا يمرُّ عليهِ شَهرٌ، إلَّا ويُنفِقُ إضافةً إلى الزَّكَاةِ. أو يتنَازَلُ عن حُقُوقِه ويتَسَامَح مع المُتَجَاوِزِين عليه في سبيْلِ اللهِ تَعَالَى، وما إلى ذلِكَ من العَطَاءَاتِ غيرِ المُتَوَجِّبَةِ عليه. ويكونُ الأمرُ أيضاً بالنِّسْبَةِ لسَائِرِ العِبَادَات، مثل: الصَّلاةِ، أو الصِّيَامِ، أو الحَجِّ، أو قراءَةِ القرْآنِ، وما إلى ذلك مِمَّا يبتَغِي به مَرْضَاة اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى. فهذا كلُّه يشهَدُ به اللهُ عزَّ وجلَّ للعامِلِيْن الذين يَفيْضُون عملاً ويُسَارِعُون إلى الخَيْرات.

ثم جاءَت الجُملةُ التَّاليةُ مُؤكِّدَة شهادةَ اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ وَمَا﴾ يخفَى عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾.

الذَّرَّةُ هنا يمكِنُ أنْ تكونَ تلك التي لا يَرَاها الإنسانُ بالعَينِ المُجَرَّدةِ، إلَّا إذا كُبِّرَت بواسِطَةِ مِجْهَرٍ ربما مِئاتِ الأضْعَافِ.

---

[1] صحيح مسلم

هنا يشهَدُ اللهُ تَعَالَى ذكْرُه بهذه الذَّرّة للإنسانِ. وأحياناً يمكِنُ لمثْلِ هذه الذَّرّة أن تُرجِّحَ كفَّةَ مِيزَانِ الحَسَناتِ كلِّها على كفَّةِ مِيزَانِ السَّيِّئاتِ، ولو بـ ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾. فهي عندَ اللهِ لها وَزْنُ.

من هنا:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

أي ﴿وَمَا﴾ يخْفَى ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ ما هُو ﴿أَصْغَرَ مِن﴾ الذَّرّة ﴿وَلا أَكْبَرَ﴾ منْها. فهو مُسَجَّل ومُوثَّقٌ عندَ اللهِ ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. كلُّ شيءٍ بائنٌ فيه بالحَقِّ.

الباب الثاني والستون
حصانة الأولياء

﴿٦٢﴾

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

من ثَنَايَا ثِيمَاتِ هذه الحَقيقَةِ فـ: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ﴾ الذين أوْلُوه أمْرَهم، وأخلَصُوا العملَ خالِصاً لوجهِه تَعَالَى: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾. كونهم في عنايَةِ اللهِ الخالِصَةِ، نظِيْرَ ما أخْلَصُوا العمَلَ له. ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

لا يجِدُ الحزنُ سَبِيْلاً إليهم، فقد حَصَّنَهم اللهُ بعنَايَتِه الكَريمَةِ من الحُزْنِ، وهذا لا يكونُ في الآخِرَةِ فقط، بل يكُونُ في الدُّنيا قبلَ الآخِرَةِ. فيحَصِّنُهُم اللهُ في الدُّنيا من الهَمِّ، والغَمِّ، والكَرْبِ، والذُّلِ، فيعِيشُون في نعيمِ حَصَانةِ اللهِ بهمَّاتٍ عاليةٍ، ومَعْنَوِيَّاتٍ مَرْفُوعَة، بكرامةٍ، وعزَّةِ نَفسٍ.

وهذا يجعلُكَ ألاّ تنْغَرّ بالمَظَاهِرِ، فكم من سَاكِنِ قصْرٍ بالغِ الفَخَامةِ، وصدْرُه ضيِّقٌ بالكَربِ والغَمّ، ولا يسْتَمتِع حَتَّى بلقمةِ طَعامٍ طَيّبةٍ، أو شَرْبة شرابٍ لَذيذةٍ. وقد تراهُ عَزِيزاً في الظَّاهِر، كأنْ يكونَ حَاكِماً، أو وَجِيهَاً، ولكنَّه في الحَقِيْقَةِ يكونُ ذَلِيلاً ويُعانِي إرهَاصَات الذُّلِّ والخُنُوعِ في نفسِه، ذلك أنَّه يفتقِدُ حالةَ التَّصَالُحِ مع نفسِه، وهذا اللا تصالح مع النَّفسِ يُعَكِّرُ عليه حَتَّى أفضلَ اللحظاتِ التي يكونُ فيها، ويفسِد عليه حَتَّى أطيَبَ لقمةِ طعامٍ، أو ألذَّ شربةِ شَرَابٍ. والحَقِيْقَةُ فهذا هو الشَّخصُ الّذي يُخَافُ عليه، وهو في الدُّنيا. ورغمَ حَاشِيَةِ الحِرَاسَةِ المُشدَّدة عليه، يكونُ مسْكُوناً بهاجِسِ الخوْفِ، وتلاحِقُه نَوبَاتُ الهلع حَتَّى وهو نائِمٌ، فينتفِضُ مُتَقطِّعَ الأنفاسِ تحْتَ سَطْوةِ الفَزَعِ. فهذا الذي حَرَمَه اللهُ مِن حَصَانتِه مِن الخَوفِ في الدُّنيا، ويحرِمُه حصَانَتَه من الخوْفِ في الآخِرَةِ، نظِيرَ ما يعيشُ بقلبٍ أسوَدٍ، وما يقْتَرِفُ من انتِهاكَاتٍ مُروِّعَة، وما يمَارِسُ من مُجُوْنٍ.

وكَمْ من سَاكنِ بيتٍ مُتواضِعٍ يقيْمُ فيه بالأُجْرَة كونه لا يملكُ بيْتاً، لكِنَّ صدْرَه يكونُ مُنشَرِحَاً، يسْتمْتِعُ بِما يأكُلُ وما يشْرَبُ. يعيشُ بسَكينةِ نفْسٍ، وصَفَاء ذهنٍ، وهدُوءِ أعصَابٍ، ينْعَمُ بمشاعِرِ العِزِّ في نفسِه على قَاعِدةِ حالةِ التَّصَالُحِ التَّامَةِ مع نفسِه. فهذا الذي أنعَمَ اللهُ تَعَالَى عليه بحَصَانتِه من الخوْفِ في الدُّنيا، وينعِمُ عليه بحَصَانتِه من الخوْفِ في الآخِرَة، نظيرَ ما يعِيشُ بقلبٍ أبيضَ، وما يُكونُ وَقَّافَاً عندَ حُدُودِ الله، وما يُقدِّمُ من أعمالٍ صَالِحَة.

مِن هذه القاعدةِ: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾. فكَمْ من ﴿أَوْلِيَاء اللّهِ﴾ يعيشُون في ظَهْرَانَيْنَا، ولكنَّنا لا نعرفهم، لأنّهم لا يتَمَظْهرُونَ بذلك، وكم من أُناسٍ نظُنُّهم أوْلِيَاء لأنّهم يتَمَظْهرُونَ بذلك، ولكنَّهم في حقيقةِ أنفسهم فَسَقَة وأهلُ فُجُورٍ.

﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فكمَا ﴿إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾. كذلك: ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وهذا بيانٌ بأن أعْدَاءَ اللهِ يتَجَرَّعُون علْقمَ الحُزنِ في أعْمَاقِهِم مهما تَمَظْهَروا بمَظَاهرِ الفرحِ والأَنَاقَةِ في المَلبَسِ، أو المَسْكَنِ، أو المَنْصِب، أو النُّفُوذِ.

تبيِّن الآيةُ الكريمةُ بأنَّ هؤلاء يُعَانُوْن نَوباتِ رعْبٍ تَتَوالى عليهِم، ويَرْزَحُون تحْتَ وطأةِ ثِقَل الحُزْن. فهم مَذْعُورُونَ من الدَّاخِلِ، وهم حَزَانَى في العُمْقِ، في حينِ ﴿إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ﴾. آمِنُون مِن الدَّاخِل، فَرِحُونَ في العُمْقِ.

الباب الثالث والستون
مرتبة الأولياء

﴿٦٣﴾
﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾

مَن هُم ﴿أَوْلِيَاء اللّهِ﴾. الذينَ ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟

هُم: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ باللهِ حَقَّ الإيمَانِ، وتوكَّلُوا على اللهِ، وأسْلَمُوا أمْرَهم له في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ.

﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ حُدّودَ الله التَّقْوَى النَّابِعةَ من إيْمَانِهم.

يبيِّنُ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ، أنَّ ليسَ كلَّ مؤمنٍ باللهِ، هو وَلِيٌّ له، ولكنَّ الوَلِيَّ هو الذي يؤمِنُ ويتَّقِي اللهَ. فلم تكتَفِ الآيةُ بـ: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾. لأنَّ الإيمانَ لوحدِه لا يكفِي حَتَّى يَكونَ الإنسانُ وَلِيّاً لله تَعَالَى، بل: ﴿وَكَانُواْ﴾ على أسَاسِ إيمانِهم: ﴿يَتَّقُونَ﴾ حدودَ الله.

فليسَ كلُّ إيمانٍ تَتَمخَّضُ عنه التَّقْوَى. بل عليكَ أنْ تَكونَ وَقّافاً عندَ حُدودِ الله، وتُمارِسَ اتّقاءَ حُدوْدِه. فتكونُ وليّاً على قدرِ ما تمَارِسُ التَّقْوى على قاعِدَة إيمانِك.

الباب الرابع والستون
عَظمة الفَوز

﴿٦٤﴾

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

﴿لَهُمُ﴾. لـ: ﴿أَوْلِيَاء اللّهِ﴾ الذينَ ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

و: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

هؤلاءِ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا﴾. بشَارَة مِنَ الله تَعَالَى ذكْرُه بحيَاةٍ طَيّبةٍ عزيزةٍ: ﴿فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾. بالجنَّة.

﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ﴾. هذه ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ ثَابتَةٌ ومُؤَكَّدة بعهدٍ ﴿لَهُمُ﴾ من اللهِ تَعَالَى.

﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ﴾. فهي غيرُ خَاضِعَة للتّغييرِ بأيِّ حالٍ من الأحْوَالِ، وهي حُقوقُ الأولياء عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وتبقَى هذه ﴿الْبُشْرَى﴾ مَفتُوْحَةً لـ ﴿أَوْلِيَاء اللّهِ﴾ في كلِّ زمانٍ ومكَان.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. الذي يفوزون به، والذي لا فَوزَ أعظَمَ منه، فهو قمّة الفَوز الذي يمكِنُ للإنسانِ أنْ يفوزَ به.

الباب الخامس والستون
عزّة الله الكاملة

﴿٦٥﴾

﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

يرفَعُ اللهُ عزَّ وجلَّ الحُزنَ عن رسُولِه عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ، بأنَّ المُنكرين مهما تَمَادوا على اللهِ، أو على القُرآنِ، فإنَّ ذلك لا يُنقِصُ من عِزَّة اللهِ، ولا من شَأنِ القُرْآنِ.

فعِزَّة اللهُ كَامِلةٌ، وهوَ العَزيزُ الذي له ﴿الْعِزَّةَ﴾ كلُّ العزَّةِ ﴿جَمِيعاً﴾.

ويبقَى القُرآنُ في مَقَامِه الرَّفِيعِ مهما أرَادُوا أن ينَالُوا منْه.

ف: ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿قَوْلُهُمْ﴾.

﴿وَلاَ﴾ يُحْزُنْكُم يا أمّةَ مُحَمَّد في كل زمانٍ ومكانٍ ﴿قَوْلُهُمْ﴾. مهمَا ابتَدَعُوا من أقَاوِيْلَ. فهم يُذِلّونَ أنفُسَهم بهذا التَّمادِي على الله، وعلى كِتَابِه: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

فقبلَ أن تصِلَ أقْوالُهم إلى أسْمَاعِكُم، تصِلُ إلى الله، وهو يعلَمُ منهم ما تعلمون، وما لا تعلمون ـ يسْمَعُ منهم ما تسمعون، وما لا تسمعون.

وهنا بيانٌ بأن لا صَوْت قط يصلُ إلى أحدٍ قبلَ أن يصِلَ إلى الله عزَّ وجلَّ، ولا أحدَ يعلمُ بشيءٍ قَط قبل أن يَعْلمَه اللهُ عزَّ وجلَّ. ذلك أنَّ اللهَ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ الأولُ لكلِّ صوْتٍ ﴿الْعَلِيمُ﴾ الأوَّل لكلِّ علمٍ.

فاللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِما يقُولُونَ. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِما يفْعَلُون في كلِّ كبيرةٍ وصَغِيرة، في كلِّ سرٍ وكلِّ جهْرٍ.

فدَعْهم فيما يَقُولُون، واسْتَكْمِل مُهِمَّة البَلاغِ بمَعْنَوياتٍ عَاليَةٍ دونَ أنْ تتأثَّر بِما يقُولُونَ: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

الباب السادس والستون
تبعيّة الظن العمياء

﴿٦٦﴾

﴿أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾

كلُّ ﴿مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ﴾. مِنَ المَخْلُوقَات كافَّة: ﴿لِلّهِ﴾. خَالِقِ كُلِّ شَيءٍ، ولا شيء قط أتى من دُوْن اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى. لذلك، لا يملكُ شيءٌ قط سَوَاء ﴿فِي السَّمَاوَات﴾. أو ﴿فِي الأَرْضِ﴾. أن يخْرُجَ عن كونه ﴿لِلّهِ﴾. فهو ﴿لِلّهِ﴾. إنْ شَاءَ أو أَبَى، ومَرجِعُ كل شَيءٍ إلى اللهِ، ولا شَيءَ يمْلكُ من أمرِه عدَمَ الخُضُوع في الرجوع إلى الله سُبْحَانَه وَتَعَالَى.

من هذه الحقيقَةِ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾. جاءَتْ كلمةُ ﴿يَتَّبِعُ﴾. لتُشيرَ إلى التَّبعيّة العَمْياءِ لمَسَالكِ الضَّلالِ، فهؤلاء هُم تَبَعٌ. يبيِّن اللهُ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾. واسْتِنادَاً إلى ذلك: ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء﴾. أي يعِيشُون في أوهَامٍ بأنَّ اللهَ له ﴿شُرَكَاء﴾ وفقَ مرْجِعيَّةِ ظَنٍّ عمْيَاء.

ثم يبيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ في خاتمةِ الآية الكَريمة: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾. أي يتَكهَّنُون ويُخمّنونَ شَيئاً لا وجودَ له، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ الزخرف ٢٠.

فالمَرجِعُ هو مَرْجِعٌ تَبَعيٌ، وهم مُرَدِّدُون فحسب. فجاءَتِ الجُملةُ مُفْصِحةً عن دقّةِ المعنى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾. يَتوهّمُون بأنَّهم على صَوَابٍ.

تُحذّرُ الآيةُ الكريمةُ من التَّبَعيَّة دون تحَقُّقٍ، فليسَ كلُّ مَن يقولُ بأنَّه يدعُو إلى اللهِ بالفِعْلِ يدعُو إلى اللهِ، فقد يدعُو إلى الضَّلالِ وهوَ يتَكهَّنُ بأنه يدْعُو إلى اللهِ، ولذلك فإنَّ غَالبِيَّة الكَوَارِثِ التي تقعُ على المُسْلمِين تكونُ نتيجةَ هذه التَّبعِيّة لأهلِ الضَّلاْلِ الذينَ يدَّعُون بأنهم على صَوَاب، ويتَمَظْهَرُون ببعضِ المَظَاهِرِ التَّدَيُنيَّة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ البقرة١١.

لكنْ تنجُم الكَوارِثُ على أرضِ الوَاقِعِ عن (صلاحِهم) المَزْعُومِ هذا، وهم يسْتَدْرِجُون النَّاسَ إلى تَبعيَّةٍ عَمْياء لهم، وبالفعلِ ترى النَّاسَ ينْغَرُّون بمَظَاهِرِهم واسْتِشْهَادِهم بالقرْآنِ والسُّنة، حَتَّى يُصبحَ الفسادُ شبْهَ عائمٍ في المُجتَمَع برُمّتِه نتيجةَ دعْوةِ هؤلاءِ إلى الفَسَاد تحْتَ شِعَارَاتِ الصَّلاحِ.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ هود١١٧. وهذه حقيقةٌ قُرْآنيَّة ثَابتَةٌ. فليسَ كلُّ مَن يقولُ بأنه يُصلِحُ، يُصلِحُ. فقدْ يتوغَّلُ البعضُ في فَسَادٍ مُبينٍ وهو يقولُ بأنه مُصْلحٌ. الآيَةُ هنا إرْشَادِيَّة، ترْشِد أتْبَاعَ هذا المُعْتَقَد الشِّركِي أنَّهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾. الذي هو مَحْضُ تَكَهُّنٍ. ذلك أن اللهَ جَلَّ شَأنُه هو واحِدٌ أحَدٌ، فردٌ صَمَد، لا إلهَ لكلِّ ﴿مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ﴾. إلَّا هُو، وعلى ذلك: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾.

الباب السابع والستون
سكون الليل وضجيج النهار

﴿٦٧﴾

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

﴿هُوَ﴾ اللهُ الواحِدُ الأحَدُ الفرْدُ الصَّمَدُ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾. كلمةُ ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾. تجمَعُ بينَ حُرُوفِها كلَّ مَعَانِي الهُدُوءِ والارْتِياحِ النَّفْسِيِّ والاسْتِرخَاءِ البَدَنيِّ. فكلُّ ذرّةٍ فيك تسْكُن في سُكُونِ اللَّيلِ.

إذن، فقد مَدَّ اللهُ الليلَ بمُقَوّمَات السُّكُوْنِ، فحَتَّى لو كنْتَ في قلب العاصِمَة، فإنّكَ تلْمسُ السُّكُونَ عندما يخيِّمُ اللَّيلُ مهما بدَت حَرَكَاتٌ أو أضْوَاءٌ من حَولِك. وكذلك عندمَا تكونُ في صَحْراء ساكنةٍ، فإنّكَ ترَى بأنَّ طُلُوعَ النَّهار يُحرّكُ تلك الصَّحراءَ السَّاكِنة، فتخْتَلفُ تمامَاً عَمّا كانَت عليه حينَ أطْبَقَ ظلامُ اللّيلِ عَليها، رغمَ خلُوِّها من حَركَة الإنْسَانِ.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾. تُبيِّنُ لك الآيَةُ هنا بأنَّكَ أعْمَى في اللَّيْلِ، ولكنَّ اللهَ مدَّ النَّهارَ بِما يَجعلُكَ مُبصِراً. ففي عَتمةِ اللَّيْلِ، لا تُبصِر رغمَ أنّكَ مُبصِرٌ، فلا ترَى شيئاً. ﴿وَ﴾ كانَ يمكِنُ للهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى ألّا يجعلَ ﴿النَّهَارَ مُبْصِراً﴾. وعنْدَها لكان بَصَرُك في وَضَحِ النَّهَار، كمَا هو في عَتمةِ اللَّيْلِ. وهذه الآيةُ هي امْتِدَادٌ للآية٦: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

فإذن، أنتَ لا تبصِر شيئاً إلَّا إذا انعكَسَ النَّهارُ عليه. وفي اللَّيْلِ فإنَّ رُؤيتك تكونُ نَاقصَة، ومهما استَعَنتَ بأضواءٍ عاليةٍ، فإنّكَ لَن ترَى بذَاتِ السَّوِيّة التي تبصِرُ بها في النَّهارِ، ذلكَ أن الأَضْوَاء تجعلُكَ تبصِرُ فقط، ولكِنَّ النهارَ يجعَلكَ تبصِرُ وترى. لذلك هناكَ أناسٌ يبصِرُون ويَرَون في النَّهَار، ولكنْ في اللَّيْلِ يبصِرُون دونَ أن يرَوا، وهذا ما يُسمَّى بالعَمَش، فرغمَ أنَّ هذا الشَّخصَ يرى في النَّهَار، إلَّا أنَّه بحلُول اللَّيلِ يفْقِد الرُّؤيَة مهما كَثُرَت المَصَابيْح حولَه.

لكنَّ هذا لا يعنِي بأنَّ اللهَ غيرُ قادِرٍ أن يُبصِّرَ مخلوقاتِه في اللَّيلِ أيضاً، بل هو قادرٌ. فالمَلَائكَةُ يبْصِرُونَ في النَّهَار، ويبصِرُون في اللَّيلِ مهما كانَت عتْمَةُ اللَّيلِ شدِيدةَ الحُلكَة.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ الإسراء ١٢.

كذلك كانَ يمكِنُ للهِ عزَّ وجلَّ أن يحرِمَ الإنسانَ من النَّهارِ، أو يَحْرِمَه من اللّيلِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ* قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ القصص ٧١، ٧٢.

الأمرُ الآخرُ، أنَّ اللهَ تَعَالَى شأنُه، قد جعلَ بعضَ الحَيواناتِ لا تَرَى في النَّهارِ، بلْ ترَى فقط في اللَّيْلِ. هكذا فإنَّ اللّهَ جلَّتْ قدرتُه يخْلُقُ المُتَناقِضَاتِ، مثل أنّ حَيوانَاً لو وَضَعْتَه في جوْفِ الماءِ سيَختَنقُ، وحَيوانَاً لو أخْرَجْتَه من جوْفِ الماءِ سيَختَنقُ . ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لقمان ١١.

اختُتِمَت الآيةُ الكريمةُ بقولِه تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾.

أي ﴿اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾: ﴿لآيَاتٍ﴾ لبَرَاهِيْن مَلْمُوسة ومَرْئِيَة على أرضِ الوَاقِعِ: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ لأناسٍ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ مَا فِي القُرآن ويُقْرنُونَه بالبَرَاهِينِ يعيشُونَهَا يوماً بيومٍ، وساعَةً بسَاعَةٍ.

والسَّمع هنا ليسَ مُجَرَّدَ السَّمعِ، بل هو سمعُ الاسْتِيعَابِ والتَّفَاعُلِ مع الآ!ياتِ القُرآنيَّة. وهنا يُصبِحُ القُرآنُ الكَريْم دَليلَك لِمَعرِفةِ تفاصِيلِ الواقِعِ الذي تعيشُ فيه، والمِشْكاةَ التي ترَى بها الأشْياءَ مِن حوْلِك.

وهذا مَا يجعلُكَ ترْتقِي في دَرَجَات الإيمانِ باللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى.

هنا سَتكونُ هذه الآياتُ لك، لأنَّكَ تكوْنُ قَد سَمِعْتَ، واسْتَوْعَبْت ما سَمِعْتَ، وتحَقَّقتَ بنفسِكَ في الوَاقِعِ من صحَّة ودِقّةِ مَا سَمِعْتَ. وهذا هو الإيمانُ الحَقِيقيُّ الذي يُرْشِدكَ إليه القرآنُ. فعلَى قدْرِ مَا ترَى وتسْتَوعِب آياتِ اللهِ في الإنْسَان والكَونِ، ترْتقِي في درَجَات إيمَانِكَ.

الباب الثامن والستون
غِبّي الله عن الولد

﴿٦٨﴾

﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾

بعد ذكْرِ البَرَاهِيْنِ في الآيةِ السَّابقَةِ، يذكُر اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى في هذه الآيةِ عدَمَ وجودِ البَرَاهِيْنِ لدى الذين: ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً﴾. ففي الآيةِ السَّابقَةِ، بَرَاهينُ جَلِيَّة ومَلْمُوسَةٌ في ثُنائيَّة اللَّيلِ والنَّهارِ. لكنْ هنا فهيَ مُجرَّد أقْوَالٍ لا أسَاسَ لها من الصِّحَّة، ولا تستَنِدُ إلى أدِلَّة دَامِغَة.

﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً﴾. اسْتِنَاداً إلى تهيُّؤاتٍ تهيَّأَتْ لهم دُونَ ثُبُوتيّات. فالإنسانُ مُعزَّزٌ مُكرَّمٌ عندَ اللهِ بكونِه إنسانٌ، وقد أمَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ المَلائِكةَ بالسُّجودِ لهذا الإنسانِ تحِيَّةً له كخلقٍ جَديدٍ شاءَ اللهُ أن يخْلُقَه. فكُلُّ بَشَرٍ بعد آدَم، هو من صُلْب آدمَ عليه السَّلامُ، بما في ذلك عِيْسى عليه السَّلامُ كون أمّه هي ابنةُ آدم وأبوها هو ابنُ آدم.

بَيدَ أن البَعْضَ يُريدُ أن يُخرِجَ الإنْسَانَ من مَنْظُومَتِه الإنسَانيَّة بكونِه ابناً لآدم. فمثلاً:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ التوبة ٣٠.

فكيفَ يتمُّ اجْتِزَاء الإنسانِ من أصلِه الذي هوَ آدَم، فيُقالُ بأنَّه ليسَ ابنَ آدم، بل ابن الله. فالابْنُ يكونُ شريكاً لأبيْهِ، وهو الكَائنُ الأقْرَبُ إليه.

والأمرُ الآخر فإن القائلَ هنا لا يُقِرّ بالرُّبوبيَّة الخَالِصَة للرَّبِّ، كون هذا المُعتّقَد يجْعَلُه أباً. ثم إنه ينزِعُ عن الإنسانِ بكونَه مخلوقاً، فيجعَلُه مَوْلُوداً للهِ، بدَلَ أنه مخْلوْقٌ للهِ تَعَاظَمَ شَأنُه. والأبُ لا يكونُ ربَّاً، كما أنَّ الرَّبَّ لا يكونُ أباً. وكلُّ بشرٍ بعدَ آدم هو مخْلُوق لله، ولا مَوْلوْدَ له: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ الإخلاص ٣، ٤.

فاللهُ عزَّ وجلَّ هو ربُّ العَالمِينَ دون أيِّ اسْتِثنَاء. وسيِّدُنا عيسى عليه السَّلامُ هو رسولُ اللهِ، والمُبَشّرُ بالإنْجِيلِ، وابنُ مرْيمَ العَذْراءِ عليها السَّلامُ، وحَفِيدُ عمران، وابنُ خالَةِ يحيى. وهذه هي الحقيقَةُ المَلمُوسَة التي عرفَها النَّاسُ على أرضِ الوَاقعِ، ولا يوجَدُ ما هو أكثر بُرْهاناً ممّا يُخرجُه عن هذه الحَقِيقَةِ.

ولذلك جاءَ قوله تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنْزِيهَاً لله ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الوَلدِ، لأنَّ الذي يكونُ له ولدٌ لا يكونُ غنيَّاً عنه. ﴿لَهُ﴾ للهِ ربِّ العَالَمِين كلِّ: ﴿مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ﴾. ويُسْتَجَاب له مِنْ كلِّ ﴿مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ﴾. طَوْعَاً أو كَرْهَا.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ البقرة١١٧.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ النحل ٤٠.

فهو تَعَالَى شَأْنُه، ربُّ العَرْشِ العظيم ومالك السَّمَواتِ والأرضِ بِما فيهما. وبذلك:

﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي يُغنِي النَّاسَ بالأولادِ، ولا يُغْنيه النَّاسُ بالوَلَد. ومريمُ عليها السَّلامُ لم تغْنِه بالولدِ، لأنّه ربُّها الذي خلقَها: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ آل عمران٤٣.

كما أنَّه سُبْحَانَه وَتَعَالَى، خلَقَ ابنها بمَشِيْئتِه: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ آل عمران٤٧.

فكمَا هي عبْدةٌ لله، فابنُها عَبدٌ للهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ﴾ النساء١٧٢.

ثم تبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ بأنَّ هَؤلاءِ لا يسْتَنِدُون في ذلكَ إلى دليلٍ: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾. فليسَ ﴿عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾. أي بقولِكُم: ﴿اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً﴾.

واختُتِمَت الآيةُ الكريمة بقولِه تَعَالَى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

فهذه الخاتِمةُ هي بمَثَابَة الدَّعْوةِ لمُراجَعَة النَّفسِ، والتَّفَكّرِ بعقْلانيَّةٍ بعدَ بيانِ كلِّ تلك التَّفَاصِيلِ والثُّبُوتِيَات عن وَحدَانيَّة اللهِ، وغِنَاهُ عن الولَدِ.

ف: لا تقولُوْا ﴿عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. وهذه فرصَةٌ ثمِينَةٌ للتَّراجُع عن هذا المُعتَقَد الشِّركِيِّ.

الباب التاسع والستون
اللا فَلاح

﴿٦٩﴾

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾

الفَلاحُ، بمعنى: النَّجاحِ والتَّفَوّق.

تبيِّن الآيةُ الكريمةُ هنا بـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ﴾.

﴿لاَ﴾ يفلِحُ مَسْعَاهم في ترجِيحِ كفّة الكَذِبَ على كفَّةِ الصِّدْقِ.

ولن يكونَ بوسْعِهم أن ينجَحُوا بافْتِرَائهم في إلغَاءِ الدِّينِ. ونظيْرَ ذلك:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾

المؤمنون ١ – ٥.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾

الشمس٧– ١٠.

فـ ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ﴾. يُمنَونَ بالخَيْبةِ في افْتِرائِهم، وبذلك يُخبِرُ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى بأنَّ هؤلاء ﴿لاَ يُفْلِحُونَ﴾. فلا يمْكِنُ للفَلَاحِ أن يتحقَّقَ لشخصٍ من خلالِ الافتِرَاء، بلْ يتحَقَّقُ من خِلَالِ الصِّدق. فهذا بيانٌ ثابتٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ لأناسِ كلِّ زمانٍ ومكان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾.

الباب السبعون
جزاء اللا تراجع عن الكفر

﴿٧٠﴾

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾

يُتيحُ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى بفضْلِه للكافرِ أن يتمتَّعَ بحياتِه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾. ولا يحرِمُه بكفره من هذا المَتاع.

وبذلك فإنَّ الفرْصَة تبقى سانِحَة أمَامَه كي يتوبَ. فالكافرُ يتزوَّج، وينجِبُ، ويغْتَنِي، يرتدِي الثِّيَابَ الجَدِيدةَ، يأكُلُ أَطَايبَ الطَّعَام، ويشْرَب لذائذَ الشَّرَابِ، يملِكُ العِقارات والمَراكِبَ، وما إلى ذلك من مَتَاع الحَيَاةِ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾. وهذا بذاتِه يكونُ للمؤمن أيضاً الذي يتمتَّعُ بحياتِه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾.

لكنَّ الفرقَ بينهُمَا أنَّ الكافِرَ لا يكونُ من خلال كُفْرِه مُستَقِرّاً نفسِيَّاً بهذا المَتاع، ولا يكونُ مُنْشَرِح الصَدرِ به، كما الأمْرُ بالنِّسْبَة للمُؤمنِ الذي يكونُ مُسْتقِرَّاً نفْسيَّاً، ويكونُ مُنْشَرِحَ الصَّدرِ بهذا المَتاعِ من خِلالِ إيْمَانِه.

فالعِبادةُ تُحقِّقُ للمُؤمِنِ سَكينةً للنفْسِ، وهدوْءَاً في الأعصَابِ، وصَفَاءٍ في الذِّهنِ، وانْشِرَاحَاً في الصَّدْرِ. وهذا ما يكونُ الكَافِرُ مَحْرُومَاً منه، رغم تمَتُّعِ الاثنَين على سبيلِ المِثَال، بالزَّواجِ، والأولادِ، والمُمْتلَكَات، والعَافِيةِ. فالكافِر يُعاني نَوْباتِ اهتزازٍ نَفسيّة، واضْطِرَاباتٍ في الأعصَابِ، وتَشَوُّشَاً في الذِّهنِ، وضيقَاً في الصَّدر.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾. هؤلاء: ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ﴾. بعد أخْذِ مَتاعَهم ﴿فِي الدُّنْيَا﴾. يكونُ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾. وفي هذا المَرجِعِ يُوَاجَهُون بِما كانُوا ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ﴾. كما جَاءَ في الآيَةِ السَّابقَة.

الآن: ﴿ثُمَّ﴾. أي بعدَ هذه المُوَاجَهَة: ﴿نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾. الذَّوقُ هنا بمعنى الاِحْتِكَاكِ المُباشَرِ مع الشَّيء. وهذا وعْدٌ من الله سُبْحَانَه وَتَعَالَى لأولئكَ الذِينَ يُصرُّون على الكُفْرِ بعنَادٍ شديدٍ دونَ أنْ يتراجَعُوا: ﴿نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾. لكنَّه أيضاً بمَثَابَة التَّحذِيرِ كي يُراجِعُوا أَنْفسَهم قبلَ أن يتَحَقّق عليهم الوَعدُ، وهذا ما بيَّنَته خاتمةُ الآيةِ الكريمةِ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾. فالآيةُ الكَريمةُ تدعُوهم إلى الاسْتغْفَارِ والتَّوبةِ قبلَ فَواتِ الأوان. فهذا ﴿الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾. هو عِقابٌ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾. عندمَا ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً﴾. في الآيَةِ مَا قبلَ السَّابقةِ. وبذلك تداخَلَتِ الآيَاتِ الثَّلاثُ المُتَتَاليَاتُ لتكونَ إحْدَاها بياناً للأخرى.

من هنا وبالعودةِ إلى الآيةِ الأوْلَى من الآياتِ الثَّلاثِ: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ﴾. نرَى الإرْشَادَ الحَكِيمَ الذي يدعُو الكَافِر كي يخرُجَ عن شرْكِه، فهذا الخُروجُ من شأنِه أنْ يجنِّبَه ﴿الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾. لأن سببَ ذلك يكونُ قَد زالَ، ولم يَعُد مَن كانَ كَافِرَاً على كُفْره، والتَّوبَةُ تغسِلُ الإنسانَ وتُنقِّيه من بَرَاثِن الكُفْرِ.

الباب الواحد والسبعون
قوّة التوكّل على اللّه

﴿٧١﴾

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾

بعدَ كلِّ ما كُنَّا معه من بيَانٍ مُفَصَلٍ خلالَ الآياتِ المُتقدِّمة من السُّورةِ الكَريمة، يُذكِّرُ اللهُ عزَّ وجلَّ رسوْلَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلَامُ بِما وقَعَ لقومِ نوْحٍ، وهذا كمِثالٍ حيٍّ جَرَى على أرْضِ الواقِعِ. والرَّسُولُ عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ، لا يعلمُ العلمَ اليَقينَ ما حَصَلَ لقَوْمِ نوحٍ عليه السَّلامُ، بكونِه كانَ أمّياً. الأمرُ الآخرُ فإن التَّحْريفَ إنْ طَالَ شيئاً من الكِتابِ السَّمَاوِيِّ، فإن ذلك يترُكُ أثرَه على عُمومِ الكِتابِ. ولذلك عَفَا اللهُ الإنسانَ من هذا الشَّتَاتِ من خلال القرآنِ الذي أتَى مُصَحّحاً ومُبيِّناً الحَقِيْقَةَ بدِقّتها البَالغَةِ، وكذلك بحفْظِ القُرآنِ من أي تحْريفٍ يمْكِنُ أنْ يَطَالَهُ، وذلك بعنايَةٍ خَاصَّة مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

فهذا ما يُخبِرُ به اللهُ تَعَالَى ذكْرُه، لرَسولِه صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، وكذلك لعُمومِ النَّاسِ على امْتِدَادِ الأزمنة والأمْكِنَة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾. فَمَا هوَ النَّبأ؟ يأتِي إخْبَارُ اللهِ جلّ جلالُه: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ﴾. وهنا أمرٌ بالِغُ الأهمّيَّةِ والدِّقّة مَعاً. لأن نَقلَ الكلامِ من اللُّغاتِ الأُخرَى إلى اللُّغةِ العَرَبيَّة يكُونُ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ونعلَمُ أنَّ كَثِيراً من الحِوارَاتِ التي أوْرَدَها القُرآنُ الكريمُ، كانت بلغاتٍ شتّى غيرِ اللُّغَةِ العَربيَّة، بل حَتَّى ما كانَ يتحدَّثُ به إبليسُ، أو بعضُ الجِنِّ، أو حَتَّى بعضُ الحَيَوان، وما إلى ذلك. فهذا كلُّه لم يحصُلْ باللُّغَةِ العَربيَّةِ، لكنَّ النَّقلَ الإلهيَّ جعَلَهُ كمَا لو أنَّه قِيْلَ بالعَرَبيَّة تماماً وبشكْلٍ بالغ الدِّقّة لَفظاً ومَعْنىً. بحيثُ لا يمكِنُ لمخْلوْقٍ قط أن يقولَ بأنه لم يقصِدْ ذلك، أو أنَّ النَّقلَ إلى العَرَبيَّة قد أضافَ أو حَذَف شيئاً مِمّا كانَ يقصِدُ. فالنَّقلُ يكونُ بحَذَافِيرِه وبدقَّتِه البلِيغَةِ.

وليسَ فقط القَول الذي يقولُهُ كائنٌ ما، بل حَتَّى ما يُتَمتِم بهِ لنفسِه، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُخْرِج ذاتَ التَّمْتَمَة بحَذَافِيرِها ودقَّتِها.

﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ﴾ آل عمران ١٥٤.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ النساء٦٣.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ التوبة٧٨.

اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هود ٣١.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ الزخرف ٨٠.

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ المجادلة٨.

فالنَّبِيُّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ أصبحَ عالِماً بِمَا في التَّورَاةِ والإنْجيلِ بِما علَّمَه اللهُ من الحَق، وكذلك سَائِرُ المُسْلِمين. فما في القُرآنِ هو بيَانُ الحَقِيقَة من اللهِ تَعَالَى شَأْنُه، ومن ذلك تفَاصيْلُ قِصَص الأنبياءِ والرُّسُلِ عليهم السَّلام.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾.

تلاوَةُ التَّنزِيلِ الحَكِيمِ، والرَّسُولُ عليه صلواتُ اللهِ وسلامُه يتْلُوْ ما أُنزِلَ على قلبِه من اللهِ تَعَالَى.

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾. أي ما يُنبّئكَ به اللهُ عَمّا وقعَ مع قوْمِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ﴾. أصبَحَ يشقُّ عليكُم ﴿مَّقَامِي﴾ وُجُودِي بينكَم ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ لكُم ﴿بِآيَاتِ اللّهِ﴾ بِما يُخبرُنِي اللهُ كي أبلِّغَكُم به إنْقَاذاً من الضَّلالِ الذي أنتُم فيهِ. وأنا نبيُّ اللهِ، وقد كلّفَنِي تكْلِيْفَ النبوّةِ من أجلِ خَيرِكُم.

لكن: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ﴾ شَقَّ ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ وجودِي بينَكُم. ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ لكُم ﴿بِآيَاتِ اللّهِ﴾.

تعالَوا نُواجِه بعضَنا البَعض، ﴿فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ﴾. في هذهِ المُوَاْجَهَة. ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ﴾ اتَّفِقُوا على مَوْقِفِكُم جميعاً، ﴿و﴾ اجْمَعُوا ﴿شُرَكَاءكُمْ﴾ الذين تَسْتَقْوُون بهم من الأوْثَانِ والأصْنامِ وكلِّ أشْكَالِ الشِّركِ.

﴿ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾. الغمَّةُ هنا بمعنَى السُّرعَةِ التي تحْصُلُ تحتَ غمٍّ وكَرْبٍ، ومن ذلك حديثٌ عن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: : لا غُمّة في فرائض الله". أيْ لا تَسَرُّعَ كما لو أنّكَ ترفَع غَمّاً عليك. وفي الآيَةِ: فلا تفْعَلُوا ذلك تحْتَ سَطْوةِ الهَمِّ والكَرْب والعُجَالة. بلْ خُذُوا وقتَكُم الكَافِي بهُدوءٍ وتعالوا بأرْيَحيَّة.

﴿ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ﴾. عندما تُصْبحِون في أتَمِّ الاسْتِعْدَادِ لمُواجَهَتي، هَلمُّوا ﴿إِلَيَّ﴾ فوراً ﴿وَلاَ تُنظِرُونِ﴾.

﴿وَلاَ﴾ تُمْهِلُوني، لأنني سَأكوْنُ في أتَمِّ الجَاهِزِيَّة بانتِظَارِكُم.

وهذا بيانٌ للنَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ وللنَّاسِ جَميعَاً عن مَدَى قُوّةِ المُتَوكِّل على اللهِ، لأنَّ قوّتَه تكونُ من مَدَد قوّة اللهِ سُبحانَه وتَعالَى، وكذلكَ مَدَى وَهْنِ المُتَوكِّل على غيرِ اللهِ، لأن وَهْنَه يكونُ من وَهْنِ المُتَوَكَّل عَليه أمامَ قوّةِ الله الذي يهونُ له كلُّ قَوِيٍّ. وقد نَصَرَ اللهُ نبيَّه نوحاً على قَومِه من خلال الطُّوفَانِ الذي لم يكنْ بوِسْع أقوى أقْوِيَاءِ الأرض إلَّا أنْ يهونَ للطُّوفَانِ ويسْتَسْلِمَ له، إلَّا مَن توكَّلَ على الله، فقد نَجَا مع نوْحٍ عليه السَّلامُ. فهذه هي قوّةُ اللهِ التي تنْهَزِمُ لها كلُّ قوّةٍ جَائِرَة.

الباب الثاني والسبعون
أجر الدعوة

﴿٧٢﴾

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الحَقِّ وأصْرَرتُم على الضَّلالِ ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾. لا يَضُرُّني ذلك بشيءٍ، لأنَّني لا أنتَظِرُ منكُم أجْرَاً نظِيْرَ الحَقِّ الذي أدْعُوكُم إليهِ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ﴾ الذي كَلَّفَني ببَلَاغِ هذا الحَقِّ إليْكُم.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وقد سَمَّى اللهُ عزَّ وجلَّ دِينَ الحَقِّ بالإسْلَامِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾ آل عمران ١٩. وكلُّ الأنبياءِ والرُّسُلِ الذينَ سَبَقُوا رَسوْلَنا عليه وعَليهِم صَلوَاتُ الله وَسَلَامُه، كانُوا مُسْلِمين.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة ١٢٧، ١٢٨.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ المائدة ١١١.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يوسف ١٠١.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ الحج٧٨.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ النمل ٤٤

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فصلت ٣٣.

وفي ذلك: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ القلم ٣٥.

إذنْ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. أي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ﴾ مِلّةِ الإِسْلَامِ.

الباب الثالث والسبعون
الإنذار

﴿٧٣﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ كذَّبَه قَوْمُه في دَعْوَتِه لهُم بالهِدَايَةِ واستهزَؤوا بِه.

﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ نَجَّيْنَا رَسُولَنا ﴿وَمَن مَّعَهُ﴾ الذين آمَنُوا مِن سَائرِ القَوْمِ بدَعوَتِه وأصْلَحُوا، وكانُوا نحْوَ ثَمَانينَ شخصاً، إضافَةً إلى ما شَاءَ اللهُ مِن الحَيَوانِ.

وكلمةُ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾، هُنا بيَانٌ بأنَّهم أيْضاً أصْبَحُوا على وَشكِ الغَرَقِ، لولا أنْ أنجَاهُمُ اللهُ، حيثُ بدَأَ المَطَرُ ينْهَمِرُ بغَزَارَةٍ من أبْوَابِ السَّمَاء، وبذَاتِ الأرضُ اِنفَجَرَت الأرضُ عُيوناً.

لقد لَبِثَ سَيِّدُنا نوْحٌ عليه السَّلامُ يدْعُوهم نحوَ تسْعمَائةِ سَنَة، وكانُوا يرْفُضُون الإيمَانَ بِعِنادٍ شديدٍ، يُصِرُّون على الظُّلْمِ والفَسَادِ والطُّغْيَانِ، وهم يستهزئون بِما كانَ نوحٌ عليه السَّلامُ يُبلِّغُهم مِن شَرعِ اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى. وبعدَ كلِّ هذه القُرونِ من الإمْهَالِ، أتى أمْرُ اللهِ بعِقَابِهم من خلالِ الطُّوفانِ. ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ القمر ١١، ١٢. فلمْ يكُنْ بوسْعِ أَحَدٍ أنْ ينْجُوَ إلَّا بعنايةٍ خَاصّةٍ مِن اللهِ عَزَّ وجلَّ، ذلك أنَّ الطُّوْفانَ قد أصبَحَ شَامِلاً وارْتفَعَ حَتَّى إلى قمَمِ جِبالِ الأرْضِ. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ القمر ١٢، ١٣. فليس رَذَاذَاً، أو مَطَراً عَادِيَّاً، بلْ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ فانْهَمرَ المَاءُ على الأرْضِ، فلَسْنا أمَامَ هُطُولِ المَطَرِ، بلْ أمامَ انْهِمَارِه بغَزَارةٍ شَدِيْدةٍ على الأرْضِ. وليسَ هذا فحَسبُ، بَل: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً﴾. تَحوَّلَت الأرْضُ أيضاً إلى عُيونٍ مُتدَفِّقةٍ من المَاء الذي غَدَا يتَدَفَّق بغزَارَةٍ شَدِيْدةٍ.

وهنا: ﴿فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾. فكيفَ يمكِنُ لأحدٍ أنْ ينْجُوَ منْ هذا الوَاقِعِ الذي حصَلَ بغتَةً لكَوكَبِ الأرْضِ. والأمرُ يحْتَاجُ إلى عِنَايَةٍ إلهيّةٍ خَاصَّةٍ. لذلك: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾. جَاءَ أمْرُ النَّجَاةِ من هذا الطُّوفَانِ العَظِيمِ، من اللهِ جلّ جَلالُه.

﴿فِي الْفُلْكِ﴾.

﴿فِي﴾ السَّفينةِ التي كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ قد أمَرَ رسُولَه بصناعَتِها قبلَ وُقُوعِ الطُّوفَانِ: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ هود٣٧. وقد اسْتمرَّ سَنَواتٍ طَويلَةً في صِناعَتِها، وهوَ ينْذِرُ النَّاسَ بالطُّوفَانِ إذا لبِثُوا في طُغيانِهم وانْتِهاكَاتِهم لحُدُودِ اللهِ. وعندَ ذاك فإنَّ هذه السَّفِينةَ ستكوْنُ وَسِيْلةَ النَّجَاةِ الوَحِيدةِ، بَيْدَ أنَّهم كَانُوا يسْخَرُون منه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ هود٣٨.

فالنَّجَاةُ مِن هذا الهَوْلِ العَامِّ الذي وَقَعَ لكَوكَبِ الأرضِ، يكونُ مُسْتَحِيلاً لو لم يكنْ بعِنايةٍ إلهيَّةٍ خاصَّةٍ، حَتَّى لو امْتلَكَ الإنسَانُ أعْظَمَ سَفينةٍ، لأنَّ المياهَ تنْهَمِرُ بغَزارَةٍ فَائِقةٍ، إلى جَانِبَ العُيونِ المَائِيَّة منَ الأرضِ، والنَّاسُ حَاوَلُوا ما باسْتِطَاعَتهم النَّجاةَ، لكنَّهم فَشِلُوا لأنَّ اللهَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى لم يكنْ مُعِيناً لهم. ذلك أنَّهم أرَادُوا للإنْسَانِ أنْ يبقَى فَاسِداً لا يؤمِنُ باللهِ، ولا يقيْمُ له حُدُوداً. لكنَّ اللهَ تبارك وتَعَالَى خَلَقَ الإنسَانَ للصَّلاَحِ، وليسَ للفَسَادِ، ولذلك يُعاقِبُ الفَاسِدِين، ويُنَجِّي الصَّالحِين، يُذِلُّ الفَاسِدِين، ويعزُّ الصَّالِحينَ.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ﴾. جعَلْنا الصَّالحيْنَ الذين أنْجَيْنَاهم ﴿خَلاَئِفَ﴾. يُصبِحُونَ أصْلاً جَديْدَاً للتَّكَاثُرِ البَشَرِيِّ.

من هنا، يُمكنُ القَولُ بأنَّ نوْحاً عليه السَّلامُ، هو الأَبُ الثَّاني للبَشَرِ.

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾. فلم يبقَ بشَرٌ قَط حيَّاً على وجْهِ الأرضِ، سوى نوحٍ، ﴿وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾. وقد بدَأت بشريَّةٌ جديدةٌ من صُلْبِ نوحٍ عليه السَّلامُ. وجَعَلهُم اللهُ ﴿خَلاَئِفَ﴾ للذينَ أغْرَقَهم جَزاءَ إصْرَارِهم على الكُفرِ.

﴿فَانظُرْ﴾. الخِطابُ مُوَجَّه إلى النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، وإلى النَّاسِ جميعاً في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾. فالذي يُنْذَرُ، يلْقَى العَاقِبةَ إذا لم يَلتَزِمْ بِما أُنذِرَ به، ولبِثَ مُصِرّاً على عدمِ التِزَامِه.

الباب الرابع والسبعون
الاعتداء ومكرمة التقوى

﴿٧٤﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾

﴿ثُمَّ﴾ بعدَ أنْ تَكاثَرَ النَّاسُ مُجَدَّداً وانتَشَروا في رِحَابِ الأرْضِ: ﴿بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ ﴿مِن﴾ بَعْدِ نوحٍ ﴿رُسُلاً﴾ يحْمِلُون رِسَالاتِ اللهِ ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ عندما استَشْرَى فيهم الفَسَادُ ﴿فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾. بالبَرَاهِينِ على هَلَاكِ أهْلِ الفسَادِ إذا أصَرُّوا على فَسَادِهم.

فرُسُلُ اللهِ يحمِلُون بيِّناتِ اللّهِ إلى النَّاسِ، وقد ذُكِرَ البَعضُ في القُرآنِ ولم يُذكَرِ البعْضُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾غافر 78 ويوجَدُ ذِكْرٌ لـ ٢٥ نبيّاً ورَسُولاً فِي القُرآنِ.

ومِن الذينَ ذُكِرُوا: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ* وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ* وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ الأنعام ٨٣-٨٦

هنا ذُكِر ١٨ والبقيَّةُ بشكْلٍ مُتفرِّق وهم سبْعَة: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران٣٣ هنا ذُكِر آدم عليه السَّلامُ.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ الأعراف٦٥.

هنا ذُكِرَ هُودٌ عليه السَّلامُ.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الأعراف٧٣. هنا ذُكِرَ صالحٌ عليه السَّلامُ.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الأعراف٨٥. هنا ذُكِرَ شُعَيبٌ عليه السَّلامُ.

﴿وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ الأنبياء٨٥. هنا ذُكِرَ إدْرِيس وذو الكِفْلِ عليهما السَّلامُ.

ثمَّ خَاتَمُ أنبياءِ اللهِ ورُسُلِه مُحَمَّدٌ عليهم صَلَواتُ اللهِ وسَلَامُه:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران ١٤٤.

وسُمِيَّت سِتُّ سُوَرٍ من القُرآنِ المَجِيدِ بأسْمَاء أنبياءٍ ورُسُلٍ، هم حَسبَ تَسَلْسُلِ السُّوَرِ في المُصْحَفِ: يُونُسُ، هُودٌ، يوْسفُ، إبرَاهِيمُ، مُحَمَّدٌ، نوْحٌ عليهم صَلَوَات اللهِ وسَلامُه.

﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾. النَّاسُ الجُدُدُ الذين انْتَشَرُوا في رَحَابةِ الأرْضِ بعد الطُّوْفَانِ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ﴾. مِن البَيِّناتِ التي قدَّمَها لهم رُسُلُ اللهِ.

و﴿مِن قَبْلُ﴾. لعلَّهم قوْمُ نوْحٍ الذينَ أصبَحُوا قَبْلاً لكلِّ جَدِيدٍ يأتي من بعْدِهم. وهنا ينْقسِمُ التَّاريْخُ البَشَريُّ إلى مَرْحَلتَين: مَرحَلةُ مَا قبْل الطُّوْفَان، ومَرحَلةُ مَا بعْدَه، وهؤلاءِ همُ الذيْنَ قالَ عنْهم اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى في الآيةِ السَّابقَةِ: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ﴾. وهكذا فَخلائفُ الخَلَائفِ عبرَ الأَجْيالِ البَشَريَّةِ. ويبقَى الأصْلُ هُم أوَّلُ الخَلَائفِ الذين أنْجَاهُم اللهُ فيْ السَّفِينَةِ، حيثُ بَدَأت بَشَريَّةٌ جديدَةٌ ثانيةٌ خَالِصَةٌ من الصَّالحِينَ وكانُوا نحوَ ثَمَانين شخصَاً فقط على وَجْه الأرضِ بعدَ انْتِهَاء الطُّوفَانِ، واستواءِ السَّفينةِ على الجُودِيِّ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هود٤٤.

فالذينَ وُلِدُوا في هذهِ الولَادَةِ الثَّانيةِ، وهم خُلاصَة هؤُلاءِ الصَّالِحينَ، قد بدؤوا يفْسِدُون في الأرْضِ أيضاً اقْتِداءً بـ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ﴾. واللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى الذي لم يترُكِ الفسَادَ يستشري في الأَرْضِ في وقتِ نوح، ولا يتْركُه أيضاً يستشري بعدَ نوحٍ أيضاً. فدوماً يُعاقِبُ الله الفَاسِدينَ ويأتي بالصَّالحينَ ليَبْدَأَ منه الجَديدُ الصَّالِحُ، فعِقابُ الفَاسِدين مُستَمِرٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، سواءً على الصَّعيدِ الجَمَاعِيِّ، أو على الصَّعيدِ الفَردِيِّ. وإذا تأمَلْتَ حياةَ الفَاسِدِيْنَ، سَترَى كيفَ أنَّهم لَقُوا الأهْوالَ في حَياتِهم، وانْتَهوا إلى الذُّلِ فيْ الدُّنيا، وأسْمَاءُ الفَاسِدينَ في التَّاريخِ البَشَريِّ مَعْروفَةٌ وهي سَيِّئةُ الذِكرِ، كما أنَّ أسْمَاءَ الصَّالِحينَ في التَّاريخِ البَشَريِّ مَعْروفةٌ وهيَ طَيِّبةُ الذِّكرِ. واللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى يعْطِي لكُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّه، سواءً أكان عِزَّاً، أو ذُلّاً، ولا أحدَ يُظْلَمُ في عَدالةِ اللهِ: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ النساء ٤٠ .

فهناكَ أُنَاسٌ نزْعَةُ الشّرِّ كَامِنَةٌ في أعْمَاقِهِم، وأيْنما حَلُّوا، حَلَّ مَعَهم الشَّرُّ، أنَاسٌ فَتَكُوا، وَقَسُوا، وجَارُوا، وتَمَادوا، وطَغَوا، وفَسَقُوا، وبَطَشُوا، ولم يسْلَمْ منهم حَتَّى الأطْفالُ الصِّغَارُ، حيث اعْتَدُوا عليهم بوَحْشيّةٍ تَفُوقُ وحْشيَّةَ أشْرسِ حَيوَاناتِ الأرْضِ.

انْتَهكُوا أَعْراضَ النَّاسِ، اسْتَوْلُوا على أمْوَالِهم، تَسبَّبُوا في إحْدَاثِ الفَلَتانِ الأمْنِيِّ في النَّاسِ، فيْ تَجْوِيعِهم، تهْجِيْرِهم، إلْحَاقِ أقسَى الوَيْلاتِ بهم. أناسٌ كلُّ ما فِيهم شَرٌّ في شَرٍّ، وعُدْوانٌ في عُدْوَانٍ، وحِقْدٌ أعمَى فِي حِقدٍ أعْمَى.

هَؤُلاءِ هُم الذِينَ يُعَاقِبُهم اللهُ بطُرُقِ عِقابٍ مُخْتَلفَة، لِيَنْتَهوا نِهَاياتٍ خَانعَةً ذَلِيْلةً، ويُذْكَرونَ بالسُّوءِ ما بقيَتِ الحَياةُ. كما أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يتَوَعّدُهم بالعِقَابِ الشَّديدِ في الآخِرةِ.

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾.

فهؤلاءِ اتَّخَذُوا مِن البَطْشِ مِنْهاجَاً لحَياتِهم، إلى جَانِبِ أُناسٍ اتَّخَذُوا من الرِّفقِ مِنْهاجَاً لحَياتِهم. أناسٌ لا يَرْضَون عن أنْفسِهم في يومٍ لا يعْتَدِون فيه على أحَدٍ، وأناسٌ لا يَرْضَون عن أنْفسِهم في يومٍ لا يَنفَعُونَ فيه أحداً.

وهكذا من كُثرِ الاعْتِدَاءِ تلْوَ الاعْتِدَاءِ، والاسْتِفْحَالِ في الاعْتِدَاءِ، يطْبَعُ اللهُ: ﴿عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾. يجْعَل قلُوبَهم قاتِمَةً، فلا تكونُ كقُلُوبِ الصَّالحِينَ. وهذه العَلاْمَاتُ تظْهرُ على وُجُوهِهم وهَيْئَاتِهم، فتَرَى احْتِقانَ الشَّرِّ في وُجُوهِهم الّتي ينطَفِئ مِنها نورُ اللهِ، هَكذا يمضِيْ السيئون بوجُوهٍ مُطْفَأةٍ، كما لو أنَّها مَصَابيحُ مَحْرُوقَةٌ، ويمضِيْ الصَّالِحُون بوجُوهٍ مُنارَةٍ كما لو أنَّها مَصَابيحُ جديدةٌ في أُولَى إِضَاءَاتِها، أناسُ يُضِيْئونَ العَتمَةَ بِوُجُوهِهم، وأناسٌ يُطْفِئُون الضَّوءَ بِوُجُوهِهم، أناسٌ يُرجَى خَيرُهم، وأناسٌ يُتَّقى شَرُّهم: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ﴾ السجدة١٨ .

﴿كَذَلِكَ﴾ يطْبَعُ اللهُ ﴿عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾. وهم يسْتمِرُّون في الاعْتدَاءِ. ويُنِيرُ قلوْبَ المُتَّقين وهم يسْتَمِرُّون في التَّقْوَى. ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً*حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً*وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً* وَكَأْساً دِهَاقاً* لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً* جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً﴾ النبأ ٢٣، ٣٦.

الباب الخامس والسبعون
جرم الاستكبار

﴿٧٥﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ بعد أولئكَ الرُّسُلِ الذين أرْسَلناهم مِنْ بعْدِ نوْحٍ إلى ما قبل مُوسَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَ﴾ أخاه ﴿هَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾.

لأنَّ فِرْعَون طَغَى في الأرضِ، وكان يقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص٣٨.

وكانَ مَلَؤُه يتَّبعُونَه في ذلك: ﴿فَاسْتَكْبَرُواْ﴾ على آياتِ اللهِ التي أتَى بها مُوْسَى عليه السَّلامُ من خلالِ المُعْجِزَات ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ الإسراء١٠١. والآياتُ هنا مُعْجِزَات حِسِّيةٌ ومَرْئِيَّةٌ: العَصَا، اليدُ، السِّنين، الطُّوْفانُ، الجَرَاد، القُمَّلُ، الضَّفَادِع، الدَّمُ، فَلْقُ البحْرِ. لأنّنَا في مَرحَلةِ ما قبل نزُولِ التَّوْرَاة.

فكانَ رسُولَ المُعْجِزاتِ قبلَ نُزُولِ التَّوراةِ، كذلكَ عيْسَى عليه السَّلامُ الذي كانَ رسُولَ المُعْجِزاتِ قبلَ نزول الإنْجيْلِ. ولعَلّه لذلك أنْزِلَت التَّوراةُ كلُّها جمْلةً واحِدةً في وقْتٍ واحِدٍ، وأُنزِلَ الإنجيلُ كذلكَ، نظَراً للمُعجِزاتِ التي سَبَقتْها على أيدِيْ الرَّسُولَين عليهما السلام. فاسْتَلَما رَسَالَتَيهما السَّمَاويتَين مَكْتُوبتَين على ألواحٍ، وشَرَعَا يَقْرَآنِهما كامِلتَينَ للنَّاسِ. في حين أنَّ محمَّداً صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ بدأَ رِسَالتَه في اليومِ الأوَّل الذي أُنزِلَت فيه أُولَى آياتِ القُرآنِ العَظيمِ. ولذلك اسْتغْرقَ بشكلٍ مُتفرِّقٍ في النُّزُولِ ما يزيدُ عن عشْرِيْنَ سَنَة بصوْتِ جِبْريلَ عليه السَّلامُ: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ الإسراء١٠٦. فكانَ التَّنْزيلُ صَوْتياً، ورسُولُ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ يسمَعُ التَّنزيلَ الحَكِيمَ، ويحْفَظُه، ثمَّ يقرَؤه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ﴾. اسْتَكبَرَ فِرْعَونُ مع ملئه على الإيمَانِ بوَحْدَانِيَّة الله: ﴿وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾. باسْتكْبَارِهم على الإيمانِ.

الباب السادس والسبعون
إنكار الحق

﴿٧٦﴾

﴿فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

﴿فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ﴾ الّذِي أَتَى به مُوْسى ﴿مِنْ﴾ عندِ الله، أنْكَرُوه حَتَّى لا يَتزَحْزَحُوا عن كُفرِهم، و ﴿قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. و ﴿الْحَقُّ﴾ هنا كانَ مِن خِلالِ المُعجِزَات الإلهيَّةِ التي كانَ يُقَدِّمها لهُم: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ النمل ١٢. فقد كانَ مُوسى عليه السَّلامُ أسْمَرَ اللونِ، فبَدَأتْ يدُه تشِعُّ مِن البَيَاضِ.

فكلُّ ما كانَ يُقدِّمُه مِن آيَاتِ اللهِ، كانُوا يقُولُون بأنَّه سِحْرٌ، رغمَ أنَّهم لم يسْتَطِيعُوا أنْ يأْتُوا بمثْلِه، بل إن مُوسَى عليه السَّلامُ أبْطَلَ مَفْعُول ما قَدَّمَه أمْهَرُ السَّحَرَةِ له، حَتَّى إن السَّحَرَة أنْفسَهم أيْقَنُوا هذه الحَقيقَةَ وأنَّ مُوسى عليه السَّلامُ ليسَ ساحِراً، بَل هوَ نبِيٌّ، فَآمَنُوا به معُرِّضِين أنفسَهم لِعِقابِ فِرْعَون:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى* قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى* قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ طه ٧٠، ٧٣.

لكن فِرْعَون مع ملئه لبِثُوا مُصِرِّين على إنْكَارِ هذه الآيَاتِ، بدَلَ أن يُؤْمِنوا بأنَّه ﴿الْحَقُّ مِنْ﴾ عِندِ اللهِ. والسِّحْرُ هوَ نقِيضُ الحَقِّ، لأنَّ السِّحرَ هو وَهْمٌ يزُولُ، بينما الحَقُّ يبقَى حَقِيقةً ثَابِتةً لا يَتَزحْزحُ.

وقَولُهم: ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. ترسِيْخٌ لاسْتِكْبَارِهم، أي مَهمَا قدَّمْتَ من برَاهِينَ، فإنَّ ذلك لا يخْرُجُ عن كونه سحراً ، وبالتَّالي لا نُؤْمِن بنُبُوَّتِك.

فلَبِثُوا بذلك في ضَلَالِهم. وهذه هي نَتيجَةُ المَفَاهيمِ المُسْبَقَة التي يكونُ البعْضُ عليها في مَسْأَلَةِ إِصْرَارِهِ على عَدَم الإيمانِ باللهِ وبالقُرْآنِ، وبالنُّبوّة، فهوَ لا يأتِي ليُصغِيَ ويَرَى حَتَّى يتَحَقَّقَ، بلْ يأتِي وهوَ عازِمٌ بأنه يرفض كُلّ ما مِنْ شأنه أن يُزَعْزِعَه عن الكُفْرِ.

الباب السابع والسبعون
خَيبة السحر

﴿٧٧﴾

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾

أنتُم تَعِيْشُون في مَتَاهَاتِ الضَّلالِ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ لإصْلاحِ ما أنتُم بهِ من فَسَادٍ وظُلْمٍ لأنْفُسِكم ولبعضِكُم بعضاً ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ .

بلْ هوَ ﴿الْحَقُّ﴾ الذي أرْسَلَني بهِ اللهُ لهِدَايَتِكُم.

﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾. لأنَّ السِّحْرَ خِدَاعٌ، والسَّاحِرُ مُخَادِعٌ، والمُخَادِعُ لا يُصِيبُ فَلَاحَاً. وأنا وأخِي هَارُون لسْنَا مُخَادِعَين، لأنَّنا لسْنَا سَاحِرَين. وقد أرْسَلنا اللهُ إليكُم بالحَقِّ.

الباب الثامن والسبعون
وباء الإصرار على الكفر

﴿٧٨﴾

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾

الالتِفَاتُ، بمَعنَى الاِسْتِدَارَةِ عن الشَّيء بُغْيَة الانْثِنَاء عنهُ.

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ كي نسْتَدِيرَ ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ . ونُوَلِّيه ظُهُورَنا ونَنْثَنِي عنْه، مِن أجْلِ أن نَلتَفِتَ إليْكُما. ﴿وَ﴾ بذلك: ﴿تَكُونَ لَكُمَا﴾ أنتَ وهارونُ ﴿الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ﴾ .

أيْ بعدَ أنْ تجْعلَنا نَلتَفِتُ ونفتل لا وضوح لمعنى كلمة نفتل ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾ حينَها: ﴿تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ﴾. والكِبرِيَاءُ هنا بمَعْنى: تُصبِحان كَبِيرَينا، أي مَلَكين عَلَيْنا بَدَلاً عن فِرْعَون. وهَذا ما تسْعَيانِ إليه.

﴿وَ﴾ لذلك: ﴿مَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾. لا نؤمِنُ بِما تقُوْلَانه لنا.

الباب التاسع والسبعون
الاستنجاد بالسحر

﴿٧٩﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾

على هَذا النَّحوِ تَتوالى عليهِم الآيَاتُ، وعلى هَذا النَّحوِ يزْدَادُون عِنَاداً في الإنْكَارِ:
﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الزخرف٤٨.
فبَدلَ أنْ يَتَّعِظ فِرْعَون بِما رَأَىْ من آياتٍ، طَلَبَ فِرْعَون مِن رِجَالِهِ أن يَجُوْبُوا في الأنْحَاءِ ليَأْتُوه ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾. بأمْهَر السَّحَرة خِبْرةً في فُنونِ السِّحرِ، حَتَّى يُوَاجِهوا ما أتَى به مُوسَى عليه السَّلامُ من بَرَاهينَ إلهيَّةٍ. وهكذا يسْتَنْجِد بِما يتَّهم به مُوسَى عليه السَّلامُ، فهو يدَّعِي بأنَّ البَرَاهينَ عِبارَةٌ عن سِحْرٍ.

الباب الثمانون
ثقة الحق

﴿٨٠﴾

﴿فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾

حصَلَ ذلك بعدَ أنْ حَضَرُوا جَمِيعاً في ذاك المُلتَقَى الكَبيرِ بحُضُورِ فِرْعَون وملئه: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ الأعراف ١١٥.

انتظَرَ مُوسى عليه السَّلامُ حَتَّى أتُوا بِما طَلَبَ مِنهم فِرْعَون بِأكْثرِ السَّحَرَةِ دِرَايةً بعُلُومِ السِّحْرِ، وهم أمْهَرُ سَحَرةِ ذاك الوَقتِ بِناءٍ على أمْرِ فِرْعَون: ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾. أي لا تَتْرُكُوا عليمَاً في عُلُومِ السِّحر إلَّا وتُحضروه.

هنا واجَهَهم موسَى عليه السَّلامُ، و﴿قَالَ لَهُم﴾ بِثِقةِ الحَقِّ الذي هوَ عليهِ: ﴿أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾. افْعلُوا كلَّ ما باسْتِطَاعَتِكم أنْ تفْعَلُوْه من ألوانِ السِّحْرِ.

الباب الواحد والثمانون
أشواك الفَساد

﴿٨١﴾

﴿فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

عندَ ذاك ألقَى السَّحَرةُ ما لديهِم من فُنُونِ السِّحر: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى﴾ طه٦٧، ٦٨.

هُنا: ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾. ولم يكنْ ذلك قوْلاً، بلْ فعلاً:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ الأعراف ١١٧.

فجعَلَ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى تلكَ العَصَا الصَّغِيرةَ تَلتَهِمُ أَمَامَ أنظَارِ الجَمِيع، كلُّ أدَوَاتِ السِّحرِ التي أتَوْا بهَا. ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾. لا يأذَنُ اللهُ للفسَادِ أن يعْلُوَ على الصَّلَاح. وربما يتمكَّنُ الفَسَادُ في موضعٍ ما في وقتٍ ما، لكنَّه يكونُ هَشَّاً ولا يثْبَتُ، وسُرْعان ما يَزُولُ.

وهذه كلُّها أمثلةٌ في القُرآنِ من نوحٍ إلى ما أتَى من بعدِه من أنْبيَاءٍ ورُسُلٍ وإلى مُوسى عليهمُ السَّلاْم.

وهذا مَا يجعَلُ رسولَ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ أكثرَ ثبَاتَاً وهو يُوَاجِه أهلَ الطُّغيَانِ، وكذلكَ يجعَلُ كلَّ مُؤمِنٍ في كلِّ زمانٍ ومَكانٍ أكثرَ ثباتَاً وهو يُوَاجِه أهلَ الطُّغيانِ، سواءً أكانتِ المُوَاجَهةُ مع فردٍ، أو مع جَمَاعَةٍ، سواءً أكانَت مع غَنِيٍّ أو مع فقيرٍ.

ودوماً: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾. ﴿لاَ﴾ يجعَلُ عملَهم يتَكَلَّل بالنَّجَاحِ، ولا بدَّ لهم أن يلْقُوا النَّكسَات وينتَهُوا إلى المَهَانَةِ. فالعَمَلُ الفاسِدُ يخلُو تمَامَاً مِن الصَّلاحِ، كما أنَّ الإنسانَ الفاسِد لا يبْدُر منه صَلاحٌ، وفقط عندما ينتَهِي من الفَسَادِ، ويُصبِحُ صَالِحاً، يبْدُر منه الصَّلَاح.

إذن، لا تَنْتظر صَلاحَاً من شخصٍ فَاسِد، ولا تَنتظِر نفعَاً من عَمَلٍ فَاسِد.

الباب الثاني والثمانون
إحقاق كلمات اللّه

﴿٨٢﴾

﴿وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

مهما بدَا الباطِلُ قَوِيَّاً ومُتَمَكِّناً، لا بدَّ أن يخضَعَ ويضْعُفَ للحقِّ، مهما بدَا هذا الحَقُّ وَاهِناً، فلا يوجَدُ حَقٌ ضَعِيفٌ كما لا يوجَدُ بَاطِلٌ قويٌّ، كما أنَّه لا يوْجَد فسَادٌ صَالِح، ولا يوجَدُ صَلاحٌ فاسِدٌ.

فما دُمْتَ على حَقٍّ، فاعلمْ بأنَّكَ قَويٌّ. فبعَطْفٍ على خَاتِمة الآيةِ السَّابقةِ: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

الآن: ﴿وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾. أي بِما يُصدِرُ اللهُ تَعَالَى ذكرُه من أوَامِرِ لتَنْفيذِ إحْقاقِ الحَقّ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾. مهمَا سَعَى ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ إلى منْعِ ذلك.

فالنَّصْرُ يكونُ للحقِّ مهما كانَ هذا الإنسَانُ الذي يتمثَّلُ الحَقَّ، والهَزِيمةُ تكُونُ للباطِلِ مهما كانَ هذا الإنسَانُ الذي يتمثَّلُ البَاطِلَ.

فكلماتُ اللهِ تأتِي بالأسبابِ التي تجعَلُ ذلكَ طَبِيعيَّاً جِدَّاً، مِثلَ أنَّ هذا الشَّخصَ الذي كانَ على باطِلٍ في أَوجِ قوّته، ونفُوْذِه، ولكنْ بينَ ليلةٍ وضُحَاها ينقلِبُ كلُّ شيءٍ عليه رأسَاً على عَقِبٍ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾. فلنْ يكُونَ بوسْعِ أيِّ مُجرِمٍ أنْ يتَجنَّبَ الذُّلَّ الذي أرادَه له اللهُ عِقاباً على تَمَادِيهِ في الفَسَاد وانْتِهَاكَاتِه المُرَوِّعَة لحُدودِ اللهِ عزَّ وجلَّ. فمَهمَا ﴿كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ وقُوعَ ذلك، ومَهما كَانُوا على قوَّةٍ ونفُوذٍ، فإنَّهم سَيَخضَعُون للذلِّ وينْتَهُون إليه.

الباب الثالث والثمانون
تفعيل الإيمان

﴿٨٣﴾

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾

الجُملةُ الأوْلَى مِنَ الآيةِ الكريمةِ تُظهِر مَدَى سُخُونَةِ الوَاقِعِ وتصْعِيدِه وخُطُورَته. فليسَ: ﴿آمَنَ لِمُوسَى﴾ ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾. بل: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾. أي لاقَى رفْضَاً عامَّاً، ﴿إِلاَّ﴾ باسْتِثناءِ ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾. فالذي يؤمِنُ يُعرِّضُ نفسَه لانتقامٍ شَديدٍ من فِرْعَون الّذي ما يزالُ في قمَّة نفُوذِه. لذلكَ: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾. والعِبارَةُ مُكثَّفة، وتغْتني بأكثَر مِن مَعنَى ومَدْلُولٍ. فهي تعْني ممّا تعنيه الإيمانَ بنُبوَّة مُوسَى، كذلك والاسْتِئْمَان ﴿لِمُوسَى﴾. والشّعُور بالأمْنِ مَعه، نظَرَاً للمُعْجِزاتِ الخَارِقَة التي رَأوْها. وهذا لا يكُونُ إلَّا إذا اسْتَيقَنَ الإنسانُ بأنَّه من خِلالِ الإيمَانِ يكُونُ قد وَضَع نفْسَه في عهْدَةِ اللهِ وأمْنِه. وكانَ مُوسَى عليه السَّلامُ دَليلَ الإيْمانِ باللهِ، والرَّشِيدَ إليه. إلى جانِبِ أنه الدَّاعِي إلى الخُرُوجِ عن تَأْلِيْهِ فِرْعَون طاعَةً له، وهو القَائِلُ لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات ٢٤.

إذن، أنتَ لستَ ربَّنا يا فِرْعَون، وها هو ربُّنَا الحَقِيقِيُّ ربُّ العالَمين الذي أرسَلَ مُوسى، قد أهزمَك وأهزَمَ سَحَرَتك.

فإذا كنتَ ربَّاً كما تدَّعِي، وكما أوهَمْتَنا من قبل، اهزمَ هذه العصَا الصَّغيرةَ التي بيَدِ رسُولِ اللهِ مُوسَى، والتي بثَّتِ الذُّعرَ في أوْصَالِك، لكنكَ لا تسْتطيعُ لأنَّها في الوَاقعِ هيَ ليسَت عَصَا مُوسى، بلْ هي عصَا اللهِ بيدِ مُوسى، لذلك نُؤمِنُ به، ونَأمَنُ له.

إذن فقد بَدَا موسَى قويَّاً بعدَ أن كانَ مع أخيه هَارُونَ على خَوفٍ من طُغيَانِه: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ طه٤٣-٤٦.

الآنَ بدأَ يُخاطِبُ فِرعوْنَ: ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ الإسراء ١٠١

وكانَت إجابةُ مُوسَى عليه السَّلامُ:

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً﴾ الإسراء ١٠٢.

فَمَن هُم هؤلاءِ الذينَ وقفُوا هذا المَوقِفَ الإيمَانيِّ الشُّجاعِ، وهم القلَّةُ المُستَثْنَاةُ من الكَثْرةِ العَامَّة؟

تقولُ الآيةُ الكَريمةُ بأنَّهم: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾. فهؤلاءِ على ما يَظهَرُ كانَ آبَاؤُهم وأجدَادُهم قد أَتَوا سَابِقاً إلى مِصرَ، وهم الآنَ أبناءُ وحَفَدةُ أولئك.

إذن هم يَهُودٌ، كما أنَّ مُوسَى عليه السَّلامُ يهودِيٌّ، وهم: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾.

وقد آمَنُوا ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾. فلم يمْنَعهُم خوفُ فِرْعون مِن الإيمَانِ، وهذا بيانٌ عن مَدَى خَوفِ النَّاسِ من بطْشِ فِرْعَون.

ثم استأنَفَتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾. فلم يقْتصِرْ خَوفُهم من فِرْعَون فقط، بل: ﴿وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾. ولعلَّ هؤلاءَ الذين حَضَرُوا هذا المُلتقَى الكَبيرَ كانُوا من شبابِ بنِيْ إسْرَائِيْلَ، فكلمةُ ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ تبدُو قَرِيْبَةً من فئاتِ الشَّبابِ أكْثر مِنهَا مِن فِئَاتِ الشُّيوخِ. والشَّبابُ عَادَةً هم الذينَ يحْضُرُون مثلَ هذه المُلتَقيَاتِ، أو المُبارِزَاتِ، وهم الذين يُشكِّلونُ القوّةَ العَمَليّةَ على الأرْضِ لفِرْعَون، وكذلكَ لأيِّ حَاكِمٍ. فعندما يتعرَّضُ الحُكمُ لخطرٍ، يكُونُ الاسْتِقْواءُ بطَاقَاتِ الشبَابِ، فيتمُّ تسْليحُهم للدِّفَاعِ عن الحُكْم. فما كانَ يهِمُّ فِرْعَونَ هو بقَاءُ الشَّبابِ المُجنَّدِ معه. لكنْ انقلَبَ ذلكَ عليهِ عندَما ظَهرَ شخصٌ يتحَدَّاه، ولعلّه أوَّلُ شَخصٍ استَطَاعَ أنْ يتحَدَّاه هَكَذا عَلَناً، ويعْجَز فِرعونُ عن اتّخَاذِ أيِّ إجْرَاءٍ عِقَابِيٍّ به. لأنَّ الوَاقعَ باتَ يُشِيرُ له بأنَّ هذه العَصَا التي التهَمَت أدَوَاتِ السِّحْرِ تلك، قادِرَةٌ أن تلتَهِمَه أيضاً، فَفِرْعَونُ الذي يُخَافُ منه، بل حَتَّى مُوسَى وهارون كانا يخَافَان مِن بَطشِه، أصبحَ الآنَ هُو الذي يَخَافُ من عصَاً صَغِيرةٍ يُمْسِكُها مُوسى عليه السَّلامُ بيَدِه. وغدا فِرعَونُ يُذكِّرُ مُوسَى بفَتْرةِ طُفُولتِه، وأنَّهُ قد ربّاهُ واعْتَنى به، ولم يُعاقِبْه عندَما قتَلَ القِبطِيَّ في اسْترجَاعٍ للمَاضِي: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ* وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ* قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ* فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الشعراء ١٨-٢١.

فها هيَ القوَّةُ العَمليَّةُ على الأرْضِ تنقلِبُ عليه، وترفُضُ أُلُوهيَّتَه المَزْعُومَةَ، والمُنهَزِمةَ مِن عصَا بَاتَت تقُضُّ مَضْجَعَه، عَصَا اللهِ التي وَضَعَها بيَدِ رسُولِه مُوسى، لتكونَ آيةً لكلِّ جبّارٍ عنيدٍ. فلا أحدَ مِن كلِّ حَاشِيَةِ فِرعَوْن يجْرُؤ أنْ يَقرَبَ العَصا، لأنَّها يمكِنُ أن تلْتَهِمَ قصُوراً بأكمَلِها.

إذن: ﴿وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾. فهؤلاءِ الذينَ آمَنُوا في هذه السَّاحةِ، لهُم أهْلٌ، لكنَّهم أيْضاً لم ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾. الفِتْنةُ هنا هي تحْرِيضُ بعضِهم على بعضٍ، مِن خِلالِ بَثِّ الفِتْنةِ فيهِم. والفِتْنةُ آفَةٌ تُفَتِّتُ الجَمْعَ وتُوهِن القوَّةَ. فكما أنَّهم لم يَخافُوا فرْعَونَ، كذلك لم يخَافُوا أنْ يُحَرِّض أهَالِيْهم عليهِم.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾. يصِفُ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى الإنسانَ الطَّاغيَ بأنَّه عالةٌ على كَوكبِ الأرْضِ، لأنَّ الأصْلَ في الإنسانِ هو التَّواضُعُ. والطُّغيَانُ حالةٌ شَاذّةٌ، والذي يطْغَى، يُصبِحُ عالَةً، لأنَّه يسْتَعْليْ على النَّاسِ. وكانَ فرْعَونُ يقولُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازغات ٢٤.

اختُتِمَت الآيةُ الكريمةُ بوصْفِ فرْعَونَ: ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

فقد كانَ مُسْرِفاً مِن خِلالِ ادِّعَاءِ الأُلُوْهيّة، ومِنْ خِلالِ الطُّغيانِ على النَّاسِ.

الباب الرابع والثمانون
ثمرة الإيمان اليانعة

﴿٨٤﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾

الآنَ يُزيدُهم موسَى ثَباتَاً فِي مَوْقِفِهم الإيمانِيِّ، ويُزيْحُ عنهم الخَوفَ من بَطْشِ فِرعَونَ، وأنَّه لنْ يسْتطيعَ أن يُؤذِيَهم ما دَامُوا قد آمَنُوا ﴿بِاللّهِ﴾، وقد أصْبحُوا معه ومع هَارُون في عِنَايةِ اللهِ: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ﴾. أي إذَا كانَ إيمانُكُم ﴿بِاللّهِ﴾ صَحِيحَاً، وقوِيَّاً: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ﴾. أخْرِجُوا أيَّ خَوفٍ مِن قُلُوبِكُم، واجعلُوا تَوكُّلَكُم على اللهِ ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

مع الكلمَةِ الأخيرَةِ، أصبَحْنَا أمامَ ثلاثِ كلماتٍ فقريّةٍ في الآيةِ الكريمةِ، هي: ﴿آمَنتُم﴾، ﴿تَوَكَّلُواْ﴾، ﴿مُّسْلِمِينَ﴾.

فيَتبيَّنُ مِن ذلك بأنَّ الإيْمانَ يتَكَامَلُ بالتوَكُّلِ على اللهِ، وتَسْليْمِ الأمرِ له. تؤمِنُ ﴿بِاللّهِ﴾، تتوَكَّل عليهِ، تسَلِّم أمرَكَ له.

وهذَا ما يُؤَدِّي بكَ إلى إسْلامٍ حَقيقيٍّ، فتعِيشُ حالَةَ سلْمٍ حَقِيقيَّةً بينَك وبينَ نفسِك مِن مُنْطَلَقِ الإيمانِ ﴿بِاللّهِ﴾، ومُنْطَلَقِ التَّوَكُّلِ على اللّهِ، وتسْلِيمِ الأمرِ لهُ.

وهنا تبْلغُ مرْتبَةَ اللا خَوْفِ من أحدٍ دونَ اللهِ، وهذه هِيَ ثمرَةُ الإيمَانِ اليَانعَةِ التِي تَكُونُ مِن حَظِّك.

الباب الخامس والثمانون
تجنّب الفتنة

﴿٨٥﴾

﴿فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

تبيِّنُ هذه الآيةُ الكَريمةُ بأنَّ الإيْمَانَ تَحوَّلَ إلى فعْلٍ، وهذا من شَأنِه أنْ يجْعَلَ موْسَى عليه السَّلامُ يشعُرُ بارتِياحٍ، لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وَفَّقَه في تَوْجِيهِ هؤلاء توْجِيهاً خَالِصَاً إلى اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، وأنَّ كلَّ ما يفعلُه مُوسى عليه السَّلامُ، إنَّما هو بقوَّةِ اللهِ تبارَكَ وتَعَالَى، ولولا هذهِ القُوّةُ، لكانَ شخْصَاً عَادِيَّاً، لا يقْدِرُ على شَيءٍ في مُوَاجَهةِ جَبَروتِ فِرْعَون. فهو يهزُّ عرْشَ فِرْعَونَ بقوّة اللهِ، عَصَاهُ تفعَلُ ما تفْعلُ بِمَددٍ من اللهِ، وكلُّ ما يقدِّم من بَراهِينَ، تكونُ بمَشِيئَة اللّهِ. لذلك قالَ: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾. في الآيةِ السَّابقةِ. والآنَ، استَجَابُوا لإرشَادِه السَّليْمِ: ﴿فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا﴾. قطَعْنا كلَّ صِلَةٍ لنا بفِرْعَون، وفتَحْنَا صَفحَةً جَدِيدةً في حيَاتِنا، هيَ صَفحَةُ الإيمانِ الإيمَانِ ﴿بِاللّهِ﴾، والتَّوَكُّلِ عليه، والتَّسْليْمِ لأمْرِه.

﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. دعَاءٌ منْهُم للهِ عزَّ وجلَّ، بألّا يجعَلَ فِرْعوْنَ وملئه ينجَحُونَ في بثِّ الفِتَنِ بيْنَهم، وهذا اسْتِئنَافٌ لسِيَاقِ الآيةِ ٨٣: فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ. فالإيْمانُ الحَقِيقيُّ يتكلَّلُ بالتَّوَجُّه إلى اللهِ والدُّعَاء إليهِ: ﴿فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وهو دُعَاءٌ يمكِنُ لأيِّ شخْصٍ أن يدْعوَ به في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، عندَمَا تتَفَشَّى الفِتَنُ في أوْصَالِ المُجتَمَع. وفيْ ذلكَ بيانٌ بأنَّ الفِتْنةَ يقِفُ خلفَها أنَاسٌ ظالِمُون. فثمَّةَ أُناسٍ بين حيْنٍ وآخر، يُشعِلُوْن فَتيلَ الفِتْنةِ في النَّاسِ من خِلَالِ ما يتمكنون مِن وَسَائلِ الإشْعَالِ. وهؤلاء هُم ظَالمُوْن. فالمُؤْمنُ يكونُ على أتَمِّ الحَذَرِ والحِرْصِ بألّا يجعَلَ من نفسِه جُنْداً ﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وألّا يَسمَحَ لهم بأنْ يُوظِّفُوه في إشاعَةِ وتَأْجِيجِ الفِتَنِ في ظَهْرَانَي المُجْتَمعِ سَواءً قولاً، أو فعلاً.

الباب السادس والثمانون
النجاة

﴿٨٦﴾

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

﴿وَنَجِّنَا﴾ مِمّا يريْدُ فِرْعَونُ أن يُلحِقَه بِنا من انتِقَامٍ رَدّاً على خُرُوجِنا عَنه ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾. وليسَ بأعْمَالِنا لأنَّنا لم نَكنْ صَالِحين، بل كُنّا نتَّبعُ فِرْعَونَ.

فنحنُ نحْتَاجُ إلى رحْمَتكَ بِنا، لأَنَنا بها نسْتحِقُّ النَّجاةَ ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. فِرْعَون ومَنْ يَأْتمِرُون بأمْرِه.

الباب السابع والثمانون
بشارة الإيمان

﴿٨٧﴾

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

بعدَ انتِهَاْءِ ما حَصَلَ مع فِرْعَونَ والسَّحَرةِ، أصبَحَ مع ﴿مُوسَى وَأَخِيهِ﴾ مَن يُوَالُونَهما إيْماناً باللهِ عزَّ وجلَّ. فلم يبْقيَا وَحِيدَين، بلْ تشَكّلَتْ جَمَاعةٌ إيمَانيَّةٌ انشقَّتْ عنْ كُفرِ فِرْعَونَ. وهنا أوْحَى اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾. اتَّخِذَا لهؤلاءِ الذين آمَنُوا ﴿بُيُوتاً﴾. يُقِيْمُون فيها حَتَّى لا يَتَمَكَّنَ فِرْعَونُ مِنهُم إذا عَادُوا إلى أَهَالِيهِم، وحَتَّى لا يُبَثَّ فيهم الفِتَنَ ويجْعَلهم يَقْتَتِلُون فيما بينَ بعضِهم البَعض. وهذا التَّوجُّهُ الإلهِيُّ يجْعَلُنا نَنْتبُه إلى أهمّيَّة الأخْذِ بالأسْبَابِ، سواءً في تَحْقِيقِ المَكَاسِبِ، أو في تجَنُّبِ الخَسَائِرِ.

فهؤلاءِ الآنَ أصبَحُوا جَماعَةً مُستَقِلّةً، يعبُدُونَ اللهَ ولا أحَدَ يسْتَطِيعُ أن يقْرَبَهم بعدَ أنْ تأمَّنَ لهم السَكَنُ مع ﴿مُوسَى وَأَخِيهِ﴾. وباتُوا ينْعَمون بالأمْنِ الذي ينعمان به خارجَ سَيطَرةِ فِرعَون.

﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾. القِبْلةُ هنا هيَ المَلجَأُ الآمِنُ المَفتُوحُ لكلِّ مَن يريْدُ أن ينْشَقَّ عن كفْرِ فِرعَون، ويقْبِلَ إليهم، فهيَ قِبْلَةٌ مَفْتوحَةٌ لكلِّ مَن أرادَ أن يُؤمِنَ، فيُقبِلَ إليها.

﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾. أمرُ اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى بإقامَةِ ﴿الصَّلاَةَ﴾. ويظْهَرُ أنَّ الصَّلاةَ تكونُ فِي هذه البُيُوتِ، وأنَّهم لم يُخصِّصُوا مَكاناً مُعَيّناً ليكُونَ بيتاً للهِ ويصلوا فيه. ونحنُ هُنا في مَرْحَلة ما قبل نُزُولِ التَّورَاةِ، لأنَّ التَّوْرَاةَ أُنزِلَتْ جملةً واحدةً على ألْوَاحٍ، في حين أنَّنا هُنا مع الوَحْيِ الذي يتلَقَّاه مع الأحْدَاثِ ويتصرَّفُ بمُوْجِبِه.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. استَكْملَ الدَّعوةَ إلى اللهِ، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. الذينَ يخْرُجُون من الكُفْرِ إلى الإيمانِ بالفَلَاحِ.

الباب الثامن والثمانون
العقاب من أجل الصلاح

﴿٨٨﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾

دعَا موسَى قَائِلاً: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

الزِّينَة، ما يتزيَّنُ بها الإنسَانُ مِن مَلبَسٍ فَاخِرٍ، وتشمَلُ أيضَاً المَسَاكِنَ الفَاخِرَةَ، وَوَسائلَ النَّقْلِ الفَاخِرَةَ، وكُلّ ما له عَلاقَةٌ بالمَظَاهِرِ. فالزِّينَةُ هي مَظهَرٌ، وهَؤُلاء قد آتَاهم اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى ألوانَ وأصْنَافَ الزِّينَةِ. ﴿وَ﴾ إضافةً إلى ذلك ﴿أَمْوَالاً﴾. فكَانُوا من الأثْرِيَاءِ، والأمْوالُ مُتَوفِّرَةٌ لديهِم بكَثْرَةٍ، مثل الذَّهبِ والجَوَاهِرِ. كذلك كانُوا في نَمَاءٍ في المَزْرُوعَاتِ، فكانُوا يتَقَلَّبُون في أصْنَافِ وألوانِ رَغَدِ العَيْشِ. ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾. فكلُّ هذه النِّعَم بدلَ أن يَشكُرُوكَ عليها ويُؤْمِنوا بكَ، صَارُوا يسْتَخدِمُونهَا في الفَسَاد والفُجُور ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾.

فأحياناً يكونُ الغِنَى سَبَباً في فسَادِ الإنسانِ، فرَجُلٌ عَادِيٌّ كانَ مُوظَّفاً، أو عامِلاً، لكنَّه ولظُروفٍ ما أصبَحَ غنِيَّاً. فتَرىٰ أنَّه خِلالَ خَمْسينَ سَنَة مِن عُمْرِه قبلَ الغِنى لم يتَسبَّبْ بإلْحَاقِ الأذَى بأحَدٍ، لكنَّه خِلالَ عشْرِ سَنوَاتٍ من الغِنَى، والتَّقلُّبِ في رَغَدِ العَيشِ، قد طَغَى وألْحَقَ الأذَى بمِئاتِ النَّاسِ من خِلالَ تَوْسِيع مَشْرُوعَاتِه التِّجَاريَّة، أو الاحْتِكَارِ، أو الغِشّ، وما إلى ذلك، فصَارَ كثيرَ الكَذِبِ وهو الذي لم يسْبِقْ له أن كَذَبَ، صارَ يخْلِفُ مَوَاعيدَه وهو الذي لم يسْبقْ له أن أخْلَفَ مَوْعِداً، صارَ ينْكُثُ بعُهودِه، وهو الذي لم يسْبقْ له أن نَكَثَ عَهدَاً، صارَ يسْتَكْبِرُ، وهو الذي كانَ مُتَوَاضِعَاً، صارَ يتَمَادَى على أعْراضِ النَّاسِ، وهو الذي كانَ عَفيفَاً، صارَ مُنافِقَاً حَتَّى في عِبادَتِه، لأنَّه أصبَحَ يسْتَغِلُّها في مَآرِبَ دُنْيويَّةٍ، وهو الذي كانَ طَبِيعيَّاً في عِبَادتِه وما إلى ذلكَ. إذن لقد أفْسَدَ الغِنَى عليهِ حَيَاتَه وقلَبَها رَأساً على عَقِبٍ مِن الإيْجَابِ إلى السَّلبِ. فيأتي عليه قولُ اللهِ تَعَالَى شَأْنُه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ العلق ٦،٧.

فلمَّا رَأَى مُوسى عليه السَّلامُ كل ذلك في فرْعَونَ وملئه، قالَ: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾. الطَّمْسُ هنا بِمَعنى إفْقَادِ الشَّيءِ قيمَتَه، فيَجعَلُه الطَّمْسُ بلا قيْمَةٍ، مثل نفادِ الثَّرْوَةِ، إلحَاق الأَذَى بالثَّرْوَةِ الزِّرَاعِيَّة بسَببِ انقطَاعِ المَطَر، أو بالثَّرْوَةِ الحَيَوانيَّةِ بسَببِ الوَبَاءِ. ويأتي ذلك على كلِّ مَصَادِر الزِّيْنَة والأَمْوالِ، فيَنقلِبُون من سِعةِ العَيشِ، إلى ضِيْقٍ في المَعِيشَة، وبالكادِ يجِدُون لُقْمَةَ الخُبْزِ، وشربَةَ المَاء.

إضافةً إلى ذلك: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾. اجعلْ ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ في شدَّة. والحَقِيقَة فإنَّ هذا الدُّعَاءَ هو لصَالِحِهم، وليسَ عليهِم، لأنَّ الغايةَ مِنه هو ما تكلَّلَت به الآيةُ الكَريمةُ في خَاتِمَتِها: ﴿فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾. فكُلُّ هذا الدُّعَاء، ليس ليَزدَادُوا كُفرَاً، أو يُعاقَبُوا على كفْرِهم، بل لـ ﴿يُؤْمِنُواْ﴾.

﴿فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾. أي لعلَّهم ﴿يُؤْمِنُواْ﴾ حينَ ﴿يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾. وأصْلُ سَببِ مَجِيءِ مُوسَى وهارون عليهما السَّلامُ إلى فُرْعَون، هو حَتَّى يؤمِنَ: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ طه ٤٤،٤٣.

إذن، ما دامُوا قد ضَلُّوا ﴿عَن سَبِيلِكَ﴾ من خِلالِ السّعَةِ، فعَلّهم يهتدون مِن خلال الضِّيقِ. وأيُّ نبيٍّ من أنْبِياءِ اللهِ يريدُ لقومِه أنْ يهتَدُوا، بل أنْ يهْتَديَ أكثرُ النَّاسِ كفرَاً وتمَادِيَاً. ولذلك كانَ من ضمْنِ أسبابِ مَجِيءِ مُوسى وهارُونَ إلى فِرعَون، هو خُروجُه من الضَّلالِ إلى الهِدَايَة، من الطُّغيانِ إلى العدْلِ. وكلُّ هذه المُعجِزَاتِ التي أتَى بها مُوسَى من عنْدِ اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، هي من أجْلِ أن يُصبحَ فِرْعَون إنْسَاناً صَالِحَاً بعدَ تاريخٍ من الفَسَاد، بَيدَ أنّه لبِثَ على عِنادِه واسْتِكبَارِه.

الآن، لَجَأَ مُوسى إلى اللهِ بهذَا الدُّعاءِ في مُحَاوَلةٍ أخيرةٍ لهِدايَةِ هذا الرَّجلِ وملئه من خِلالِ الضِّيقِ في المَعيْشَة وفي الصِّحّةِ، بعد السّعةِ والعَافِيَةِ.

الباب التاسع والثمانون
منهج الاستقامة

﴿٨٩﴾

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

الذي دَعَا في الآيةِ السَّابِقةِ، كانَ مُوسَى عليه السَّلامُ. والآنَ الاسْتِجَابةُ له ولأخيه هَارُون، وفي ذلك بيانٌ بأن هَارُون كانَ مُوافِقَاً على الدُّعَاءِ. لذلك: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾. فالدُّعَاءُ أصبَحَ صَادِراً مِنْهما مَعاً على لسَانِ مُوسَى.

هنا يأمرُ اللهُ عزَّ وجلَّ مُوسَى وهارُونَ عليهما السَّلام: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾. وهذا بيانٌ لكلِّ إنسانٍ في كلِّ زمانٍ ومكان، بأنْ يبقَى مُراجِعَاً نفسَه في مَسْألةِ الإستِقَامَةِ. وجاءَ الأمرُ شَديدَ التَّركِيزِ بالفاءِ، والأمْرُ ذاتُه جاءَ لمّحمَّدٍ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ كذلك بالفَاءِ:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هود ١١٢.

تكمُنُ الإستِقَامَةُ فيما أمَرَ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، والإستِقَامَةُ هيَ أنْ يبقَى الإنسانُ مُحافِظاً على عَدلِه واعْتِدَالِه، وليس بالضَّرُورةِ مع الآخَرِينَ فحسْب، بل حَتَّى مَع النَّفسِ، و تشْمَلُ الإستِقَامَةُ كلَّ جَوَانبِ الحَيَاةِ، مثلُ عَلاقَتِك بنَفسِك، بالآخَرِين، بعِيَالِك، بعَمَلكَ، بجِوَارِك، بعَلاقَاتِك الاجْتِمَاعيَّةِ، وكذلك اسْتِقَامَتك في العِبَادةِ وفي عَلاقَتِك باللهِ عزَّ وجلَّ. لأنَّ الإنسانَ بحكْمِ الزَّخَمِ في تَدَاخُلِ العَلاقاتِ الاجْتِماعِيَّةِ، يبْقَى مُعرَّضاً للانْحِرافِ عنِ الاسْتقَامَةِ. والانْتِباهُ هنا مهم للغايَةِ، فدومَاً يكونُ الإنْسانُ مُنتَبِهاً ويكُونُ في حَالَةِ مُرَاجَعةٍ دَائِمةٍ لنفسِه في مَسْألةِ الاسْتقَامَةِ، أو الانْحِرَافِ، فيمْكِنُ له أن يتَراجَعَ عن الانْحِرَافِ إذا زلَّتْ قدَمُه في ظَرفٍ ما، أو في مَوْقفٍ ما، في نقطَةِ ضَعْفٍ، أو نقطَةِ قوَّةٍ ما. وطَرِيقُ الاسْتقَامَةِ مَفتُوحٌ لكلِّ مَن يَكُونُ في تِيهِ المُنحَرَفَاتِ.

إذن: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾. ومعْنَى هذا أن فرصةَ الامْتحَانِ ستَطُولُ بفرْعَون وملئه، فقد اسْتجَابَ اللهُ للدُّعَاءِ لقلبِ الأمورِ إلى نقِيضِها. فبَدَأتِ السَّنَواتُ تمْضِي على الفَاقَةِ التي يعيشُها فِرعَون وملئه، لكنْ دونَ أن يتَّعِظُوا.

ويبقَى القَولُ لموسَى وأخيهِ هارُونَ: ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

فمهما طَالَت سَنَواتُ الاخْتِبارِ عليكما الثَّباتُ على الحقِّ وعَدمُ التَّزَحْزُحِ عنه. ويُروَى أنَّ هذا الاختِبَارَ دَامَ نَحْوَ أربعين سَنَة بعدَ اسْتجَابَةِ اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى للدُّعَاءِ.

الباب التسعون
إيمانٌ كالعدم

﴿٩٠﴾

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

بعدَ انتهاءِ مُهلَةِ الاختِبَارِ التي دامَتْ أربَعِيْن سَنَة، الآن: ﴿وَجَاوَزْنَا﴾. قَطَعنا ﴿بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾. لأنهُ لولا أنْ جَاوَزَهم اللهُ ﴿الْبَحْرَ﴾. ما اسْتَطَاعُوا تَجَاوزَه. فعندما أرَادُوا الخُرُوجَ من مِصْرَ، كانَ البَحْرُ بيْنَهم وبيْنَ العُبُورِ إلى الجِهَةِ الأُخرَى، وبالنِّسْبَةِ لعَدَدِهم، يُروَى أنَّهم كانُوا نحْوَ سِتّمائة وعشرين ألفَاً، مَعَهم موسَى وهَارونُ عليهما السَّلامُ.

الأمرُ الآخرُ أنَّ فِرْعونَ قد عَلِمَ بخُرُوجِهم، وأنَّه يعلَمُ أن البَحرَ يكوْنُ بينَهم وبينَ العُبُورِ. هُنا: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾. وقد جهَّزَ فِرْعونُ جَيشَاً يُروَى بأنَّه تألَّفَ من مِليونِ جُندِيٍّ، ومعَهم مائة ألفِ حِصَانٍ، كي يمْنَعَهم مِن الخُرُوجِ ويفتِكَ بِمَن يفتِكُ، ويعْتقَلَ مَن يعْتَقِلُ. فأصبَحُوا في حِصَارٍ، فلا هم قادِرُون على تَجَاوزِ البحرِ الذي وَاجَهَهم، ولا على العَودَةِ، لأنَّهم سيُوَاجِهُون فِرْعونَ بجَيْشِه في طَرِيقِه إليهِم، وكانَ فِرْعونُ هو الذي يقُوْدُ الجيْشَ بنفسِه.

﴿بَغْياً وَعَدْواً﴾. إصْرَاراً على الكُفرِ، وعَدَاوةً للإيمانِ. البِغَاءُ هو ترْكُ الصَّلاحِ، واتِّبَاعُ الفَسَادِ. والكلمةُ تغْتَنِي بالمَعَانِي المُتفرِّعَةِ وفقَ سِيَاقِ الحَدَثِ. وهنا عَنَت التَّمَسُّكَ بالكُفْرِ، وتمَّ عطْفُ ﴿وَعَدْواً﴾ عليها. أي ليسَ ذلك فحَسْب، بل واتّخَاذ مَوقِفِ العَدَاوةِ مِنَ الصَّالِحِ ومَن يتمثَّلُونه. وتمَّ اسْتِخدَامُ الكلمةِ في حديثٍ رَوَاه أبو هرَيرَة رَضِيَ اللّهُ عَنْه عن النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "بينما كلبٌ يُطِيفُ برَكِيَّةٍ، كادَ يقتُلُه العطشُ، إذ رأَتْه بغيٌّ من بغَايا بنِي إسْرائيلَ، فنزَعَت مُوقَها، فسَقَتْه فغُفِر لها به"[1].

[1] صحيح البخاري

الحَديثُ دقيقٌ عن كلبٍ "يُطِيفُ برَكِيَّةٍ" أي يدُورُ حَولَ حَافَّة بئْرٍ، "كاد يقتُلُه العطشُ"، وهُو عَلى وَشكِ أنْ يخْتَنِقَ مِن شِدّةِ العَطَشِ. "إذ رأَتْه بغيٌّ من بغايا بني إسرائيلَ"، البَغِيُّ هي الزَّانِيةُ، وهي هُنا لعلَّها التي تَمْتَهِنُ الزنى للتَّكَسُّبِ، فهذه المَرأةُ الزَّانِيةُ رَأَت هذا الكلبَ وهوَ على هذه الحَالِ. فشَفِقَت به، وأحسَّتْ برحْمَةٍ نحوَه "فنزَعَت مُوقَها"، خَلعَتْ حِذَاءَها الذي تَرْتدِيه، "فسَقَتْه"، حَتَّى تَمكَّنتْ من سِقَايَتِه بهذا الحِذَاء، كأنْ تمْلأَ له الحِذاءَ فيشْرَب، وتَمْلأَ ليَشْربَ، حَتَّى ارْتَوَى. هنا فإنَّ اللهَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى يرَى ما فَعَلَته هذه الزَّانِيةُ بدَافِعِ الرَّحمةِ، وقد أنقَذَت حياةَ الكلبِ الذي هُو مَخْلُوقٌ من مَخْلُوقَاتِ الله، "فغُفِر لها". غُفِرَ لها كلُّ ما ارْتَكَبَته من زِنىً جُملَةً وَاحِدةً "به". بهذا المَاءِ الذي سَقَتْه للكلبِ في هذا المؤْقِفِ. أي كل ما فعلَتْه من زِنىً قبلَ "به". وهذا لا يعْنِي أنها قد تابَت، بل المَغفِرَةُ "به". بمؤْقِفِ الرَّحْمةِ هذا الذي بدَرَ منها تجَاهَ هذا الحَيَوانِ. لكنْ بعدَ "به". لا يوجَدُ إلى ما يُشِيرُ إلى المَغْفِرَة. فالمَغفِرَةُ لكلِّ ما سبقَ: "به". جُملةً وَاحدةً كما لو أنَّه لم يَكُنْ حيثُ مُحِيَ تماماً مِن صَحِيفَتها برَحْمةِ اللهِ. فجَاءَت الرَّحمةُ مُقابِلَ الرَّحمَةِ، ولا يَأذَنُ اللهُ لأحدٍ أن يكُونَ أرْحَمَ منه، وهُو أرْحَمُ الرَّاحِمين. عن عبد الله بن عمرو عن النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ: "الرَّاحِمُون يرْحَمُهُم الرَّحمَنُ، ارْحَمُوا مَن في الأرْضِ يرْحَمْكُم مَن في السَّمَاءِ"[1].

فهذه المرأَةُ هيَ بَغِيٌّ، ولكنَّها ليسَت عُدْوَانيَّةً، ولو كانَتْ عُدْوَانيَّةً لتركَتِ الكَلبَ دُونَ أن تأبَهَ بهِ، ودوْنَ أن تهتزَّ شَعرَةٌ منها، بل لعلَّها أَذتْهُ فوقَ ما هُو عليهِ مِن عَطَشٍ.

بالنِّسْبَةِ لفرْعوْنَ وملئه، فهؤلاءِ فوق: ﴿بَغْياً﴾.هم أيضاً: ﴿وَعَدْواً﴾.

وهذا بيانٌ بأنَّه جاءَ بجيْشِه إلى هَؤلاءِ ليسَ للاطْمِئْنانِ عليهِم، أو للتَّحَاوُرِ معَهُم للوُصُولِ إلى حَلٍّ سِلمِيٍّ. بل جاءَ ليَبْطِشَ بهِم فقطْ لأنَّهُم آمَنُوا. ﴿وَعَدْواً﴾. أي جَعَلَهم أعْدَاءً له، وأبَاحَ لنفسِه الاعْتِداءَ عَلَيهِم. لكنْ: مَن أنتَ حَتَّى تمْنعَ عِبَادَ اللهِ مِنَ الإيمَانِ به، أو تمْنعَهم مِن التَّنقُّلِ في أرْضِ اللهِ الوَاسِعَةِ. فقد تجَاوَزَتَ الحُدُودَ كثيراً، وأمْهَلكَ اللهُ كثيراً، ومَرَّرَكَ بالسَّرّاءِ كثيراً، وبالضَّرّاءِ كثيراً، وأظْهَرَ لكَ مِن خلال رَسُولَه المُعْجِزاتِ كثيراً. لكنَّكَ لم تَغتَنِمْ ولا فُرصَةً مِن كلِّ تلكَ الفُرَصِ الذَّهَبيَّة التي أَتَاحَها اللهُ لكَ، بل ازْدَدْتَ طُغيَانَاً وتَمَادِيَاً، أم أنَّك تريْدُ أنْ تصدِّقَ ادِّعَاءَكَ للألوهيَّةِ؟ لكنْ رغْمَ ذلك، وحَتَّى هذه اللَّحْظَةِ ما تزَالُ فُرصَةُ التَّراجُعِ مُتاحَةً أمَامَك، ويُمكِنُكَ أَن تعُودَ مِن نصْفِ الطَّرِيقِ، أو حَتَّى بعدَ قطْعِ الطَّرِيقِ كلِّهِ وَوُصُولِكَ إلى البَحْرِ، فيُمكِنُكَ الآن أن

[1] أخرجه الترمذي

تعودَ وتتْرُكَ عبادَ اللهِ هَؤلاءِ بشَأْنِهم. لكنَّه لبِثَ فِي عِنادِه وادِّعَائِه الأُلُوهيَّة، وإلْحَاقِ أفْدَحِ الأضْرَارِ بهؤُلاء. لنَنْظرْ إلى الآية إلى أيِّ مَدىً لبِثَ في بَغْيِه وَعَدَائِه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾ لبِثَ مُصِرّاً على ذلكَ ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ ﴿حَتَّى﴾ تمكَّنَ منه ﴿الْغَرَقُ﴾ وأيقنَ أنَّه لمْ يعُدْ باسْتِطَاعَتِه المُقَاوَمَةُ للنَّجَاةِ. وهنا يكونُ عِقَابُ اللهِ قد وقَعَ عليه لينتَهيَ إلى الذُّلِّ والخُنُوعِ، ويكونُ إمْهالُ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى قد انْتَهى. عند ذاك وفِي تلكَ اللَّحَظَاتِ الأخِيرَةِ، ومَع أنفَاسِه الأخِيرةِ واسْتِسْلَامِه وقد أيقنَ أنَّه لم يعُد باسْتِطَاعَتِه المُقَاوَمَةُ للنَّجاةِ: ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

الباب الواحد التسعون
أوان الإيمان

﴿٩١﴾

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

﴿آلآنَ وَقَدْ﴾ حُوصِرْتَ بالغَرَقِ وغدَوتَ في أنفاسِكَ الأخِيرَة تقُولُ: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾. هذه اللَّحظات الأخيرَةِ، طوَالَ عمْرِكَ كلِّه، رغمَ كلِّ فُرصِ الإمْهالِ الّتي أُتيْحَت لكَ. قتلتَ الأطفَالَ، فتكْتَ بالأبْرِيَاءِ، ادَّعيتَ الأُلوْهيَّةَ. وكنتَ تلقَى الإمْهالَ تلو الإمْهالِ، وجَاءَكَ مُوسَى وهَارونُ لعلَّكَ تُراجِع نفسَكَ وتتُوبُ، لكنَّكَ تمسَّكْتَ باسْتِكبَارِك، وأنتَ تدَّعِي بأنَّكَ إله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ القصص٣٨.

﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات ٢٤.

الآنَ، ما الذي سَتُصْلِحُه من تَاريخِ الطُّغيَانِ الذي تقِفُ عليه ﴿وَقَدْ﴾ أيقنْتَ بأنكَ لن تنْجُوَ، وأنتَ تلفِظُ أنفاسَكَ الأخِيرَةَ في جَوْفِ البحْرِ.

﴿آلآنَ﴾ تقولُ بأنَّكَ آمنْتَ، وكانت فرصُ الإيمَانِ مُتاحَةً لك حَتَّى قبل قليلٍ، فيما لو تراجَعْتَ عن مُلَاحَقةِ النَّاسِ لتَفْتكَ بهم ﴿بَغْياً وَعَدْواً﴾.

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. طوالَ حيَاتِك.

فهذه هِيَ التَّوبةُ المُزدَوَجَةُ، حيثُ يرتكِبُ شخصٌ الجَرَائمَ طوالَ عُمْره، وعندما يُكشَفُ ويُحَاصَرُ، ويتمُّ تفْجِيرُ المَكَانِ الذي يختَبِئ فيه، فيَقُولُ وهو يلفِظُ أنفاسَه الأخِيرَة بأنَّه تاب.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ النساء١٨.

فمهما كُنْتَ على تَجَاوُزٍ، تبقَى التَّوبةُ من حَقِّك، لكنْ تتُوبُ وأنتَ في فُسْحَةٍ من أمْرِكَ، وتنْوِي الصَّلاحَ.

إذن، عليكَ أنْ تغتَنِمَ فُرَصَ التَّوبَةِ، وتُصْلِحَ من شَأنِ نفسِك، وتسْتَغفِرَ ربك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾الأنفال٣٨.

فعندَما تنْهَى نفسَكَ عن ارْتِكَابِ مَعْصيةٍ مَخَافَةَ اللهِ، وأنتَ قَادِرٌ على ارتِكَابِها، فهذه هِيَ التَّوبَةُ الحَقيقيَّةُ.

الباب الثاني والتسعون
الاتعاظ من آيات الله في النّاس

﴿٩١﴾

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

هذه الآيةُ مع الآيَةِ السَّابقةِ هما إجَابةٌ على ما قالَهُ فِرعَونِ وهوَ يلفِظُ أنْفَاسَه الأخِيرَةَ في جوْفِ البحْرِ: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾. يا فِرعونُ. الخِطابُ موجَّهٌ إلى شَخْصِه. فليسَ: ننجّيه ببدَنِه. فهو يسمَعُ الكَلامَ في هذهِ اللَّحَظاتِ الأَخيرَةِ، ولعلَّه آخِرُ كلامٍ يسْمَعُه في حَيَاتِه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾. ومَعنَى هذا أنَّ البَدنَ بقِيَ سَليمَاً دوْنَ أن يُصِيبَه أيُّ أذىً. والنَّجاةُ هنا تكون مِن اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، ويجوزُ أن يحصُلَ ذلك من خِلال الأمرِ للبحْرِ بلفْظِ هذا البَدَنِ إلى اليَابِسَة. لكنْ لماذا؟ الجَوَابُ: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾.

ويظهَرُ أنَّ الكَلامَ ما يزَالُ مُوجَّهَاً إليه وهو يسْمَعُ. والآيةُ هنا بمَثابَةِ العِبْرة. فقد جعلَكَ اللهُ عِبْرَةً لِمَن يَعتَبِرُ. فأنتَ الذي كنتَ تقولُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات ٢٤. ها أنتَ وقد تحَوَّلْتَ أمامَ أنْظارِهِم إلى جُثَّةٍ هَامِدَة، فأين رُبُوبِيَّتُك، وأين عُلُوُّك. وسيَنْظُرُون إليك ليوقنوا تماماً بأنَّك كنتَ تَخْدَعُهم.

إذن، فبعدَ أن لفَظَهُ البَحرُ، رَأوْه رَأْيِ العَيْنِ حَتَّى لا يتَكهَّنُوا بأنَّه لم يَمُتْ، أو ربمَا تشْطَحُ المُخَيِّلةُ بالبعضِ بأنه وَارَى نفسَه عن الأنْظَارِ. فها هو مُلقىً على الشَّاطِئِ جثةً هامدة، ولم يسْتطِع أن يُقاوِمَ الغَرقَ، ولو تركوه ملْقَىً هناك، لنَهَشَتْه الحَيَوَانَاتُ. لذلك: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾. فالرَّبُ لا شيء يقدِرُ عليه، وهُوَ قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ.

﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾. خَاتمَةُ الآيةِ الكريمةِ ومُوَجَّهَةٌ إلى ﴿النَّاسِ﴾ في كُلِّ زمَانٍ ومَكان، بألّا يغْفلُوا عن بَرَاهينِ اللهِ، وأنْ يتَّعِظُوا بِما يقعُ للمَارِدِين على الشَّرعِ الإلهيِّ، وكيف أنَّهُم يَنْتَهُون نهاياتٍ ذَلِيلَةً.

الباب الثالث والتسعون
القائمون على الحق والمُختلِفون فيه

﴿٩٣﴾

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

بعدَ أنْ جَاوَزَ اللهُ بهمُ البحْرَ، وعَاقَبَ فِرعَون الذي كان يسْبِيْ نساءَ بني إِسْرَائيلَ ويقْتُلُ أطْفَالَهم، الآنَ: ﴿بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾. بمَعْنَى جَعَلناهم في مَسْكنٍ مُبارَكٍ ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ الأعراف١٣٧.

وسَبَق أن ذُكِرت الكلمةُ في الآيةِ: 87 ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾. وكانَ ذلك بشكلٍ مُؤَقَّت وكتَمْهيدٍ لهذا الانْتِقَالِ إلى الأرْضِ التي أكْرَمَهم اللهُ بها: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ المائدة٢١. وهنا يحصُلُ التِّيهُ نحوَ أرْبعِينَ سَنة في الصَّحْراء، ثمَّ يَدْخُلونَ ﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ﴾ لهم.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾. جعَلَهم اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى في نَمَاءٍ ورَخَاءٍ ورَغَدٍ في المَعيْشَةِ على أرضٍ مُبارَكةٍ. والرِّزقُ هُنا هو الطَّعامُ والشَّرَابُ، فتُنتِجُ أرضُهم طَعَاماً طَيّباً، ومَعْلُومٌ أن طَيِّبَ الطَّعامِ مثْلَ الفَاكِهَة أو الخُضَارِ وما إلى ذلكَ مِن سَائرِ أصْنافِ وألوانِ الطَّعَام، والذي يُسْتَخرَجُ مِنْه الشَّرَابُ أيضَاً، يختَلِفُ بحسبِ الأرضِ التي يَنْبُتُ فيها. فكلُّ أرضٍ لها خاصّيَّةٌ. ولا يَعْنِي أنَّ خَاصّيَّة الطِّيْبِ اقْتَصَرَت فقطْ على تلكَ الأَرضِ، بل إن تلكَ البُقْعَةَ مِن الأرضِ تَمْتَازُ بهذه الخَاصّيَّة من الطِّيْبِ إلى جَانبِ البِقَاعِ الأُخْرَى التي شَاءَ اللهُ لها هذه الخَاصّيَّةَ على سَطْحِ الأَرْضِ.

وهذا يحصُلُ في ذاتِ الدَّولَةِ أيضَاً، فأحْيَاناً عندما يذهَبُ سُكّانُ إِحْدَى المُدنِ إلى العَاصِمَةِ البَعِيدَة عَنْهم، يأتوْنَ ببَعضِ الفَاكِهَة التي يختَلِفُ طعْمُها عَن الفَاكهَة التي تنْبُتُ في مَدِينَتِهم، بل حَتَّى حَجْمُها، ونُضُوجُها، وأَحْيانَاً حَتَّى لونُها. ولذلك ترى بعضَ المُدُن تمْتازُ بجُودةِ أصنافٍ مُعيّنةٍ من الطَّعامِ.

﴿فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ﴾.

﴿فَمَا اخْتَلَفُواْ﴾. لبِثُوا يعِيشُون دونَ خِلافٍ ويستمتعون بِما أنعَمَ اللهُ عليهِم من أمْنٍ ومَعِيشَة طَيّبةٍ

﴿فَمَا اخْتَلَفُواْ﴾. ولم يحْصِلْ بينَهم أي اختراق.

﴿حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ﴾. الآنَ وبمَجِيء مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلّمَ حامِلاً القُرآنَ المَجِيدَ، نَشَبَ بينهم الاخْتِلافُ. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ آل عمران ١٩.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ البينة ٤.

فمنهم مَن آمَنَ به ومِنهُم لم يُؤمِنْ، كما أنَّ القُرآنَ أظْهَرَ التَّحريفَ الذي حصَلَ في التَّوْراةِ. وهنا كان مَكْمَنُ الخِلافِ بيْنَهم على نُبوّةِ مُحَمَّدٍ عليه صلواتُ اللهِ وسَلامُه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

الاختِلافُ الذي وقَعَ بينَهم، ﴿يَقْضِي﴾ به اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. وفي هذا إرْشَادُ اللهِ تَعَالَى ذكْرهُ للمُسْلِمين بالاكْتِفَاءِ ببَلَاغِ القُرآنِ بالحِكْمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَة.

الباب الرابع والتسعون
بين الشك والامتراء

﴿٩٤﴾

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

هذا افتراضٌ، وليسَ وَاقِعاً، فالآيةُ تؤَكّدُ بأن الشَّكَ لم يقَعْ. وجاءَتِ الفَاءُ لمزيدٍ مِن التَّأكِيدِ: ﴿فَإِن﴾.

وهذا مثل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر ٦٥.

وأيضَاً جاءَتِ اللَّام تَأكِيدَاً على عدمِ وُجُودِ الشِّركِ.

فتحْذيرُ الإنسانِ مِن شَيءٍ، لا يَعنِي بأنه وقَعَ فيه، وهذا أمرٌ طَبِيعيٌّ جِدّاً، كمثلِ قولِه تَعَالَى شَأْنُه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الأحزاب ١.

وعِندَما يقولُ لقمَانُ لابنِه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. لا يعْنِي ذلك أنَّ ابنَه كانَ مُشرِكَاً. ولذلك جاءَت الآيةُ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان١٣.

وعندَما يقُولُ له:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ لقمان١٧. فهذا لا يعْنِي بأنَّه لم يكُن مُصَلّيَاً، أو لم يكُنْ يأْمُرُ بالمَعرُوفِ، أو لمْ يكُنْ ينْهَى عن المُنكَرِ، أو لمْ يكُنْ صَابِراً. ولذلك اسْتَكمَلَتِ الآيَةُ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

أمّا عندما يكُونُ الشَّكُ مَوجُوداً بالفعْلِ، فالخِطابُ يخْتلِفُ مثل قَولِه سُبْحَانَه وَتَعَالَى:

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ هود ١١٠.

وقد ثبتَ عليه صَلَوَاتِ اللهِ وسَلامُه في نشر الدعوة في مختلف الظروف.

﴿لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾. أُنْزِلَ عليكَ القرآنُ بالحَقِّ، وهو خَالصٌ بكلِّ حُرُوفِه وَكَلمَاتِه

﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذِي أحْسَنَ إليك واصْطَفَاك لهذا الحَقِّ الكَامِنِ في القُرآن.

﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

تَوجِيهُ اللهِ عزَّ وجلَّ لرَسُولِه عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ بالاسْتِمرَارِ في نشْرِ الدَّعْوَةِ، دونَ أن يَتَأثَّرَ بـ ﴿الْمُمْتَرِينَ﴾. والامْتِرَاءُ هو أحدُ أشْكالِ الشَّكِ، لكنَّه هنا يكُونُ كَثيْرَ الجِدَال حوْلَ الإيمَان، في حِينِ أنَّ الشَّاكَّ قد يَلتَزِمُ الصَّمتَ في هذه المَسْأَلَةِ.

وقد وَرَدَت الكَلمتَانِ في مُستَهلِّ الآيَة، وفي مُخْتَتَمِها.

لكنْ كلُّ واحِدةٍ في مَقامٍ خَاصٍّ بها. في المُسْتَهَلّ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾. يكونُ الشَّكُ ضِمْنِيَاً هنا.

وفي المُخْتَتَم: ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾. يتحَوَّلُ الشّكُ إلى مَادّةٍ للجِدالِ.

الباب الخامس والتسعون
خسارة التكذيب

﴿٩٥﴾
﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

تبيِّن الآيَة الكَرِيْمَة بأنَ الامْتِراءَ يؤدِّي بصَاحِبه إلى التَّكذِيبِ، فأوّلُ التَّكذِيبِ هو امْتِرَاء، فيَنْتَابُ الإنسَانَ شُعورٌ بالتَّردّد، ويتَزَحْزحُ في إيمَانِه بينَ التَّصْديْقِ بأنَّ القُرآنَ مِن عنْدِ اللهِ، أو عدمِ التَّصْديْقِ.

وهكذا يَسْتَمرّ في هذا التَّأرْجُحِ دونَ أنْ يسْتَغفِرَ اللهَ.

وهنا تبْدأُ المُخَيّلةُ تشْطَحُ به كونها أمْسَت مُخَيّلةً مُتَأرْجِحَة، وبذلك يمكِنُ لهُ أن يَنتَهيَ إلى الإلْحَادِ، لكن رغْمَ ذلك فإنَّ هذا الإلحَادَ أيضاً لا يجْعلُه مُسْتَقرّاً، فيلبَثُ مُتَأرْجِحَاً حَتَّى في إلحَادِه. لكنَّه في جَمِيعِ الأحوَالِ لا يسْتَغفِرُ اللهَ ولا يتُوبُ إليه، فيَغدُو ﴿مِنَ﴾ زُمْرَة ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ﴾. مِن قبلِه. وبذلك يَكونُ ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لنعمةِ الإيْمَانِ، والظَّفَرِ بسَكِيْنَتِه وبَرَكَاتِهِ في الدّنْيَا، والفَوزِ بالجَنَّةِ في الآخِرَة. وتلك هي الخَسَارةُ الأفدَحُ التي يمكِنُ لأيِّ إنسانٍ أنْ يُمْنَى بها.

واللهُ عزَّ وجلَّ يبيِّنُ للإنسانِ كي يتَجَاوزَ أيَّ لحظَةِ امْتِرَاءٍ يمكِنُ لها أن تَقرَبَه:

﴿لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾. بهذا الحَقِّ. كما في الآيةِ السَّابقة. ثم هُنا اسْتِئنافاً: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ﴾. وبذلك: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. فمِن الطَّبيعِيِّ أن يوجّه اللهُ رَسُولَه: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ﴾. وهذا كَقولِه تَعَالَى شَأْنُه: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾القصص ٨٦.

والخِطابُ ليسَ موجَّهاً إلى رَسُولِ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ وهو أكثرُ النَّاس ثَباتَاً في الإيمَانِ. وهذه حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ من اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى، حَتَّى لا يعتَقِدَ أيُّ مُؤمنٍ بعدَ رسوْلِ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ بأنَّه أكبرُ مِن أنْ يقْرَبَه الامْتِرَاءُ، أو التَّكْذِيبُ. وبذلك قد يتركُ العَنَانَ لمُخَيّلتِه كيْ تَشْطَح به في الاسْتِغْرَاقِ في مَتَاهَاتِ التَّأَرْجُحِ، بل يكونُ في حَذَرٍ من الوَسَاوِسِ، لأنَّ الوَسْوَسَة تسْتَجرُّ أختَها حَتَّى تُخرِجَه الوَسَاوِسُ الشَّيْطَانيّة تمامَاً من الإيمَانِ. لذلك: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف ٢٠٠.

الباب السادس والتسعون
حصانة الإيمان

﴿٩٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾

الإيمانُ هو حَصَانةُ الإنسانِ، ولا حَصَانَةَ دوْنَ الإيمَانِ مهما تبدَّت أنَّها حَصَانةٌ. فلا يمكِنُ للكفْرِ أن يُحَصِّنَ الكَافِرَ مهما تبَدّى له بأنه مُحصَّنٌ بكفْرِه.

لكِنَّ الإيمانَ مِن شَأنِه أن يُحصِّنَ الإنسَانَ، لأنَّه يجعَلُه وليّاً للهِ، يجْعلُه في عُهْدَة اللهِ، وأمَانَةِ اللهِ.

وقد تبيَّنَ كيفَ أنَّ رَجُلَين اسْتَطاعَا أن يُهزِمَا فِرْعونَ وجَيشَه، وأنْ يجْعلَاهُ ينتَهِي تلكَ النِّهايةَ الانْهِزَاميَّة الذَّلِيلَة. حَتَّى إنه فِي النِّهايةِ قالَ بالإيمانِ، لكنْ في وقتٍ شَديْدِ الضِّيقِ وهو يلفِظُ أنفاسَه الأخيرةَ غَرَقاً في البَحرِ.

إذن، رغمَ كلِّ جَبَرُوتِك وادِّعَاءَاتِ الأُلُوهيَّةِ، فقد تراجَعَتْ أخيراً، ورَضَخَتَ للهِ، لكنْ تأخَّرَتَ كثيراً ، وليسَت هذه اللَّحظَاتُ الأَخيرَةُ من عُمْرِ الإنسَانِ هي لحظاتُ التَّوبَةِ، بل اللَّحظَاتُ التي يكونُ قادِراً فيها على مُمَارَسَةِ الصَّلاحِ. فشخصٌ طوالَ عمْرِه ينْتَهِكُ حُرُماتِ اللهِ، وفجأةً وجَدَ نفسَه في حَرِيْقٍ وقد نشَبَتِ النِّيرانُ بجسَدِه، وقد اسْتَسْلمَ لها تماماً. في تلكَ اللَّحظاتِ وهوَ يلفِظُ أنفَاسَه الأَخِيرةَ يقولُ بأنَّه تابَ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ* فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ غافر ٨٤، ٨٥.

ولذلك كانَ الجوابُ مُوَجَّهاً لفِرعَون: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ﴾ طوَالَ عمرِك ﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. في هذه اللَّحظَاتِ الأَخِيرَة وكانت فُسحَةُ العمْرِ مُتاحَةً أمَامَك. فقد لبِثْتَ مُصِرّاً على الكُفرِ والطُّغيَانِ، ولمْ تأْبَهْ بكلِّ الفُرَصِ التِي أتاحَها اللهُ لك كي تُؤمِنَ وتُصْلِحَ.

وهذه مَوعظَةٌ لكلِّ كافِرٍ كي يتوب وهو في فُسحةِ الحياة، وقادِرٌ أنْ يُقدِّمَ أعمالاً صَالِحَةً، لأنَّه لا يعْلمُ ما الذِي سيحْصُل لهُ بعدَ قَليلٍ، وقد يجِدُ نفسَه في لَحَظاتٍ تَضِيقُ به حيثُ لم تَعُد التَّوبة تنْفعُه فيها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾. أي يمكِنُ لهُم أنْ يُؤمِنُوا والفُرَصُ مُتاحَةٌ ومَفْتُوحَةٌ لهم برَحْمَة اللهِ كي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. لكنَّهم إذا أصَرُّوا على اللا إيمَانِ بعنادٍ شَدِيد، فعندَ ذاك تكُونَ قد ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾. بالعِقَابِ فِي الدُّنيا، وكذلك في الآخِرَة. والآيةُ تحْذِيْرِيّةٌ بألّا يجعَلَ الإنسانُ نفسَه في زُمْرةِ ﴿الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

الباب السابع والتسعون
فُرَص الإيمان

﴿٩٧﴾

﴿وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾

فهذه الآياتُ سَوَاءً التي تكُونُ في القُرآنِ، أو التي تكُونُ في الطَّبِيعَةِ، وفي النَّاسِ، على الإنسانِ أنْ يَتَّعِظَ بِهَا، لأنَّ عدمَ الاتِّعاظِ يُرسِّخ الكُفرَ لدى الإنسَانِ. فهذا الكلامُ هو اسْتئنافٌ لسِيَاقِ الآيةِ السَّابقَة، ومَعْطُوفٌ عليهِ. ف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآنَ: ﴿وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾. ولعلَّ في ذلكَ إشَارَة بأنَّه حَتَّى أعْتَى الكُفَّارِ، في اللَّحظَاتِ الأخيرَةِ ولو بينَهم وبينَ أنْفُسِهم، يتراجَعُون عن إنكَارِهم، ويُؤْمِنُون. فيظْهَرُ من سِيَاق الآيتَين الكَريمتَين أنَّ الإيمانَ يقعُ لهم وذلك وفْقَ كلمةِ ﴿حَتَّى﴾. أي: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾. عندَها يؤمنون لكنْ يكوْنُ أوانُ التَّوبَةِ قد فات. لأنهم يكونُونَ في لحَظَاتِهم الأخيرةِ وهم ﴿يَرَوُاْ الْعَذَابَ﴾ الذي توعَّدَ اللهُ به الظَلَمةَ. فهؤلاء هُم ﴿الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾.

يبيِّنُ اللهُ تَعَالَى ذكْرُه صِنفاً من النَّاسِ يكُونُون في عِنادِهم الشَّدِيدِ على شَاكلَةِ فِرعَون، يمْضُونَ كلَّ أعمَارِهم في الطُّغيانِ والانْتِهاكَاتِ لشرْعِ اللهِ، ويُكذِّبُون الأنبيَاءَ والرُّسُلَ، والثَّوابَ، والعِقَابَ. ولكن عندما يقعون في قلبِ حَادِثٍ مُباغِتٍ يلفِظُون فيه أنفاسَهم الأخيرَة، عندَ ذاك يقولُون بالإيمانِ.

﴿حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾. أي المُوجِعَ، فيتَجرَّعُون الوَجَعَ الذي سبَّبُوه للنَّاسِ بَطشَاً وطُغْيَانَاً. فكما أوجَعُوا النَّاس في الدُّنيا، يوجَعُونَ في الدُّنيا قبلَ أن يمُوتُوا. وهذه سنَّةُ اللهِ في النَّاسِ، فاللهُ عزَّ وجلَّ يقتَصُّ لِعبادِه المَظْلُومِين في الدُّنيا من الظَّلَمَةِ، ويجعَلُهم ينْتَهون نهاياتٍ ذَلِيلةً.

تدعُو الآيَةُ الكَرِيْمَةُ هؤلاء ليؤمنوا قبلَ أن ﴿يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾. والفُرَص مُتاحَة أمَامَهم للتَّرَاجُعِ عن مِلّةِ الكُفر، والدُّخُولِ في مِلّةِ الإيمَانِ.

الباب الثامن والتسعون
بين الإيمان النافع والإيمان غير النافع

﴿٩٨﴾

﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾

بيَّنَت الآيَاتُ السَّابقَةُ الإيمانَ الذي لا ينفَعُ، وكان فِرعَون مثالاً لإيمَانِه الذي لم ينفعْه، عندما قالَ بالإيْمانِ وهو يلفِظُ أنفاسَه الأخِيرةَ.

الآن تُبيِّن الآيَة الكَرِيْمَة الإيمانَ الذي ينْفعُ حَتَّى إذا حَصَلَ عندَ وقوْعِ العَذَابِ، أو مُقَدِّماتِ وُقُوعِ العِقابِ. فيؤمِنُ الإنسَانُ خَوفَاً من اللهِ عنَدَما ينجُو من حَادِث مُرَوِّعٍ، يُصَابُ فيه بإصَابَاتٍ مُؤلِمَةٍ، أو يتعرَّضُ لمرضٍ يجعلُهُ طَرِيْحَ الفِرَاشِ فترةً من الزَّمنِ، أو يتعرَّضُ لخَسَائِرَ تَأتِي على كلِّ مُمْتلكَاتِهِ فيُصبِحُ مَدْيوْناً يُلاحِقُه الدَّائنُونَ وهو الذي كانَ يملِكُ أمْوَالاً طَائلَةً، وما إلى ذلكَ. فيُؤمِن ويتراجَعَ عنْ كُفْرِه وظُلمِه، ويصْلِحُ مِن شَأنِه، ويفْتَحُ صَفحَةً جديدةً في حَياتِه.

ومَرَّرَ اللهُ عزَّ وجلَّ، فِرعَون وملئه بهذه المَرَاحِل من العِقابِ

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ الأعراف ١٣٠.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ الأعراف١٣٣. لكنْ نظِيرَ ذلك هُناك مِن الكُفّارِ مَن يتَّعِظُون ويتَرَاجَعُون، فيمكِنُ لك أنْ تَرَى شَخْصَاً لم يكنْ يُؤمِن باللهِ، وفجْأةً تقَعُ عليهِ كَارِثَةٌ في صِحَّتِه، أو في أمْوالِه، أو في عَائلَتِه، أو ما شابَه، فتراهُ يتَّعِظُ ويتُوبُ إلى اللهِ تَعَالَى، ويؤمِنُ ويُصبِحُ وقَّافَاً عندَ حُدُودِ اللهِ. فهذا الشَّخصُ ينْفَعُه إيمانُه، وبذلك يشْكُرُ اللهَ على هذا الضُّرّ الذي مَسَّه، لأنَّه لولا هذا الضُّرّ لَما اتَّعَظَ، ولَما آمَنَ، ولمُنِيَ بالخَسَارةِ الفَادِحةِ، مهما كانَ تملُّكُه للأمْوَالِ، ومهما كانَ تَمَتُّعه بالعَافيَةِ.

فالآنَ، ظَفرَ بفوزٍ عَظِيمٍ رغمَ كلِّ ما أصَابَه من أذَىً، فقد أصبَحَ كلُّ ذلك الذي خَسِرَه فدْيةً للإيمانِ الذي رَبِحَه. ولو أعَدتَه إلى الوَرَاءِ قبلَ أن يُصَابَ بهذا الضُّرّ، وخَيَّرتَه بين أن يبْقَى فيما هو عليهِ، أو فيما أصْبحَ عليه بعدَ أن مَسَّه الضُّرّ، لاختارَ مرحَلةَ ما بعدَ الضُّرّ، لأنَّها مَرحَلةُ الإشْرَاقَاتِ الإيمانيَّةِ الكُبرَى في حَيَاته، وقد أتَتْ على أنقَاضِ مرْحَلة الظُّلمَات الكُبرَى في حَياتِه.

إذن: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾. لو أنَّ أناسَ هذهِ القريَةِ اتَّعَظُوا وآمَنُوا وأصْلحُوا خِلالَ كلِّ تلكَ الفُرَصِ الإيْمَانيَّةِ التي أتَاحَها اللهُ لهُم، لكانَ نَفَعَهُم إيمَانُهم.

أمّا الآنَ وقد بَلغَ الكافِرُ أنفاسَه الأخيرَةَ، يلفِظُ كلماتِ الإيمانِ، يلفِظُها لأنَّه أصْبَحَ مُوقِناً بأنَّه لم يَعُد قَادِراً على ارْتكَابِ الانْتِهاكَاتِ وقد اسْتَسْلَمَ للضَّربَةِ القَاصِمَةِ التي وقَعَت عليهِ، وأرَاحَتِ النَّاسَ منْ ظُلمِه وطُغيَانِه.

فكانَ القَوْل لِفرعَونَ: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. وهذا الكلامُ يمكِنُ أن يُقالَ لأيِّ ظَالمٍ يَطْغَى في الأرضِ، فقد أمْضَى كلَّ عمرِه في الطُّغْيَان والغدْرِ والإجْرَامِ والظُّلمِ. وها قَد تحقَّقَ وعْدُ اللهِ بتَعذِيبِه في الدُّنيا قبلَ الآخِرةِ، وها هو يغْرَقُ في المَاءِ، أو ها هو في حَادثٍ مرَوِّعٍ، أو فِي حَرِيقٍ نَشَبَ به، أو باغَتهُ شخصٌ بإطلاقِ الرَّصَاصِ عليه، ففي هذه اللَّحظَاتِ الأَخيرَةِ يلفِظُ كلمَاتِ الإيمَانِ. فذلك هو الإيمَانُ الذي لا ينْفعُ لأنه هو نفسُه باتَ يُدرك في تلك اللَّحظَاتِ بأنَّ الحياةَ انتهَت بالنِّسْبَة إليه: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾.

وقد تحدَّثَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ عن النَّبيِّ نوحٍ عليه السَّلامُ، الذي لبِثَ كلَّ تلك القُرونِ يدعُو قومَه إلى الإيمَانِ، لكنَّهم كانُوا يستهزئون به. وبعدَ أنْ صَعَد السَّفِينةَ ومَن معه، وجاءَ أمرُ اللهِ بالطُّوفان، عند ذاك لم يعدْ ينفَعُ الإيمانُ لأنَّ الطُّوفانَ قد حصَلَ من أبْوابِ السَّمَاءِ ومن عيونِ الأرْضِ، والسَّفينَةُ مَضَت.

﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾. الآنَ هذا إخبارٌ من اللهِ عزَّ وجلّ، بأنَّ الإنسانَ مهما كانَ على كُفرٍ، ومهما تَعَاظَمَت به الذُّنُوبُ، فيمْكِنُ أن يُستَثْنَى من عِقابَي الدُّنيا والآخرَةِ. وهذه ﴿إِلاَّ﴾.اِسْتِثنائيَّةٌ خَاصَّةٌ له مَكرُمَةً من اللهِ تَعَالَى. و ﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾. هنا كمِثَالٍ يبقَى مَفتُوحَاً لذُرّيَاتِ ﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾. ولكلِّ إنسَانٍ في كلِّ زمانٍ ومَكانٍ.

وهذهِ الفُرصَةُ كانَت مُتاحَةً لفِرعَون ذاتِه رغمَ كلِّ تَمَادِيهِ في الكُفْرِ والطُّغيانِ، والفتْكِ بالأطْفَالِ، وادِّعَاءِ الرُّبُوبيَّة. ولم يرْسِل اللهُ موسَى وهارون ليُحارِبَاه، بلْ ليَهْدِيَاه: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ

طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ طه ٤٣ ، ٤٤ . وعند ذاك سيكونُ قد آمَنَ وأصلَحَ. ولبثت الفرَصُ الإيمانيَّة تُتاحُ له بفضْلِ اللهِ، لكنَّه كانَ شديدَ العِنادِ، وشديدَ الإستِكبَار، ولم يسْتجبْ لأيِّ فرْصَةٍ.

فعندما يتخلَّى الإنسانُ عن اسْتهْزَائِه بآياتِ اللهِ، ويتخَلَّى عن عِنادِه واسْتِكبَارِه، ويتَواضَعُ لله تَعَالَى، فإنَّه يُسْتَثنَى.

وهذه الـ ﴿إِلاَّ﴾. الاسْتِثْنَائيّةُ تكُونُ له بفضْلٍ من الله تَعَالَى.

﴿إِلاَّ﴾. باسْتِثنَاءِ ﴿قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ﴾. وكانُوا كفَّاراً قبلَ الـ ﴿إِلاَّ﴾ الاسْتِثنَائيّةِ، و﴿آمَنُواْ﴾. بعدَ كفْرِهم: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

فلا يَلقَى الكافِرُ إذا آمَن، ولا العاصِي إذا تَابَ: ﴿عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. بل يُعِزّه اللهُ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. لأنَّه آمَنَ بعدَ أنْ كانَ كَافِراً، ورَفَعَ عن نفسِه رجْسَ الكُفرِ بالإيْمَانِ، أو تَابَ بعد أن كانَ عاصِيَاً، ورَفَعَ عن نفسِه إثمَ المَعْصِيةِ بالتَّوبةِ. وذلكَ من فضْلِ اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى على عِبادِه بأن يُتيحَ لهمُ الصَّلاحَ.

وهؤلاءِ الذينَ تتَحدَّث عنهم الآيَة الكَرِيْمَة، كانُوا في نحوِ القَرنِ الثَّامنِ قبلَ المِيلَادِ، وهم أهْلُ نَيْنَوى، وهي تقَعُ في القسْمِ الشَّماليِّ من بلادِ الرَّافِدَين على الضِّفَةِ الشَّرقيَّةِ لنهرِ دجلَة. و قد وردَ عدَدُهم في الآية ١٤٧ من سورة الصَّافات: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾. وكانُوا يُشْرِكُون باللهِ، ويعبُدُون الأصنامَ، وعندما أرْسَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهمُ النَّبيِّ يونس عليه السَّلامُ، اتَّهَمُوه بالكَذِب، ولمَّا أصَرُّوا على تَكْذيبِه، تركَهم النبي يونس من تلقَاءِ نفسِه، دونَ أنْ يأمُرَه اللهُ بذلك. لكنَّه بقيَ على إيمَانِه وصَلاحِه. الخُرُوْجُ هنا لم يكُنْ بأمرٍ من اللهِ عزَّ وجلَّ، بل لعلَّه نتيجَة يأسٍ من صَلاحِهم حيث بقِيَ يدعُوهم كما يُروَى نحْوَ ثلاثٍ وثلاثين سَنَة دونَ أن يُؤمِنَ به سوى رجلين. ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، هذا عندَ الذَّهابِ عن قومِه. وتستَكمِلُ الآيةُ بعد أن يُصبِحَ في جوفِ الحوت: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأنبياء٨٧ . فاسْتَجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ له، وأمرَ الحُوتَ بأن يلفِظَه إلى الشَّاطِئِ.

واللهُ عزَّ وجلَّ أحَياناً يأمُرُ الأنبياءَ بالخُرُوجِ مِن قَومِهم، سواءً عندما يوقِعُ عليهم العِقابَ، فيَأمُر النَّبِيَّ ومَن آمَنَ معه بمغادَرة المَكَانِ، نجاةً لهم من العَقابِ العَامِّ الذي سيقعُ للقَومِ في ذاكَ

المكانِ. أو عَدمِ وُجودِ العِقابِ للقومِ، كما حَصَلَ مع مُحَمَّدٍ عليه صلوات الله وسلامُه عندما أمَرَه الله بمغادَرَة قومِه في مَكّة، إلى المَدِينةِ.

إذن، عندما غادَرَ يونُس عليه السَّلامُ، وقعَ في البَحرِ، كما وَقَعَ فِرعَون في البَحرِ، لكنْ شتَّانَ بين الرَّجُلَين، أحدُهما نبيُّ الله، والثَّانِي عدُوُّ اللهِ. وهنا فقد نجَّاهُ اللهُ بمُعجِزَة من البَحرِ، وفي ذلك بيانٌ بأنَّ اللهَ كانَ قَادِراً على نجاةِ فِرعَون مهما لبِثَ في جَوفِ البَحرِ، ولكنَّه لم ينَجِّه رغمَ أنَّه في تلك اللَّحظاتِ قالَ بالإيمَانِ. وكانَ الجَوَابُ على قَولِه بالإيْمانِ في تلك اللَّحظاتِ الأخِيرَة: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. لكنَّ اللهَ تَعَالَى عزَّ وجلَّ، أنجَى نبيَّه، وكانَت النِّهايةُ أيضاً مُتشَابِهة بينَ الرَّجُلَين، حيثُ لُفِظَا على شَاطِئِ البَحرِ. لكنْ أيضاً شَتّانَ بين اللَّفظَينِ، فقد لُفِظَ يونُس عَزيزاً بإيمانِه، وأنبَتَ له اللهُ على الفَورِ شَجَرَة يقطينٍ على الشَّاطِئ، وعادَ إلى مُمَارَسة الصَّلاحِ. ولُفِظَ فِرعَون جثّةً هَامِدة بكفْرِه.

هذه هي الآيَةُ الأوْلَى التي ذُكِرَ فيها يُونس عليه السَّلامُ، في هذه السُّورةِ التي سُميَّت باسمِه، لكنْ هي فقط آيةٌ واحدةٌ وكما رَأَيْنا لم تتحَدَّث عنه، بلْ عن قَومِه. وقد جَاءَ ترْتيبُها في السُّورةِ بالآية٩٨، والآياتُ التي تنتَهِي بحَرفِ النُّونِ في هذه السُّورَةِ هي أيضاً ٩٨ آيَة.

فلا يأسَ مع اللهِ تَعَالَى شَأْنُه، فهو القادِرُ أن يُنجِّيكَ حَتَّى لو وجَدْتَ نفسَكَ بغتةً في قعْرِ بحرٍ، وفي جَوف حوْت. وإذا نظرْنَا إلى الحَالتَين نَرَى بأن نجَاةَ فِرعَون كانت أسهلَ، لأنَّه لم يكُنْ قد ابتلعَه حُوتٌ. فالله سُبْحَانَه وَتَعَالَى لا يُعِزّ الكَافرَ وهو في كفْرِه، حَتَّى لو أعْطَاه مَالاً وجَاهَاً ونُفُوذَاً وعَافِيَةً. فذلك كلُّه ليسَ عِزّاً له، لأنَّ اللهَ لا يُعِزّ الكَافِر، بل يتيحُ الفُرَص أمامَه حَتَّى يتوبَ، ليُعزِّه اللهُ بتَوبتِه. كما أنَّ المُؤمِنَ لا يُخْزِيْه اللهُ حَتَّى لو لاقَى الضُّرَّ في صِحَّته، أو فِي ضيْقِ المَعِيشَة، أو ما شَابَه.

بل يَزدادُ إيمَاناً، ويشْكُرُ اللهَ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة ١٥٥.

عَنْ أبي يَحْيَى صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "عَجَباً لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِن: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيْراً لَهُ"[1]. والله سُبْحَانَه وَتَعَالَى يبتلِي مَن يُحِبُّ.

عن أنس بن مالك عن النَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ "إنَّ عِظمَ الجزاءِ مع عِظمِ البلاءِ، وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتَلاهم ، فمَن رَضي فله الرِّضَى، ومَن سخِط فله السَّخطُ"[2]. فالمُؤمِنُ يرتقِي في درَجَاتِ إيمانِه بالصَّبرِ عندَ الابْتِلاءِ، أكثرَ مِمَّا كانَ يرتَقِي قبلَ الابْتِلاءِ.

﴿لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

إذن، قبل إيمانِهم، كانوا على وَشكِ أن يُصِيبَهم اللهُ بالخِزْيِ عِقابَاً لهم، خاصَّةً وأنَّ نبِيَّهم قد تركَهُم بعدمَا أنكَرُوا نبوَّتَه، واتّهمُوه بالكَذِبِ. وبالفعْلِ اقتربَ منهم الخِزْيُ عندما تحقَّقَ ما أَمَرَهم به النَّبيِّ يونُس عليه السَّلامُ، قبلَ تركِهم، بأنَّ العِقَابَ سيَأتِيْهم بعدَ أربعِينَ يومَاً إذا لبِثُوا في كفْرِهم. وبعدَ خمسَةٍ وثَلاثينَ يَومَاً، بدأت السَّمَاءُ تَكْفَهِرُّ، فتذكَّرُوا قولَ نبيِّهم، وتَابُوا، ونَدِمُوا على اتِّهامِه بالكَذِبِ.

هذه هي المُقارَنةُ التي تُقارِنُها السُّورةُ الكَريمةُ بين قومي نوح عليه السَّلامُ، وفِرعَون. فهم لبِثُوا على ما هُمْ فيه من فُجُورٍ. فكانَ العِقابُ أيضاً واحِداً، وهو الغَرَقُ، وقد نَجَا نوْحٌ ومَن معَه بمُعجِزَة إلهيَّةٍ مِن خِلالِ السَّفينَة، كما نَجَا موسى ومَن معه بمعْجِزَة إلهيَّةٍ عندَمَا انْشَقَّ البحرُ، ومَضُوا فيه سَالِمين.

وهنا فإنَّ القومَ تَابُوا رغمَ أنهم لبِثُوا دُونَ نبيٍّ، لكن عادُوا واتَّبَعُوا ما قالَه لهم النَّبيُّ الغَائبُ عنهم عندمَا بدأَتْ علَامَاتُ إنْذَارِه تظهَرُ لهم. فلم يُعانِدُوا أو يسْتَكْبرُوا، بل رَضَخُوا وتَوَاضَعُوا، وتراجَعُوا عن الكُفْرِ ونَدِمُوا على تكْذِيبِ نبيِّهم، وآمَنُوا بصِدْقِه، وأنَّهُ نبيٌّ أرْسَلُه الله لهِدَايَتِهم.

ويُروَى أنَّهم ارتدُوا ثِيَابَاً مُتَواضِعةً واجتَمَعُوا يسْأَلُوْن الله العفْوَ والمَغفِرَة. وباتُوا يُعِيدُونَ الحُقُوقَ لأصْحَابِها، ويُصلِحُون مِن شَأنِهم، ويَعدِلُون فيما بَينَ بعضِهم البَعض. ومِمّا كانُوا يَسْألُون اللهَ: (اللهم إن ذنوبَنا قد عظُمَت وجَلّت، وأنتَ أعْظَمُ منها وأجَلُّ، افعَلْ بِنا ما أنتَ أهلُه، ولا تفعَلْ بنا ما نحْنُ أهلُه).

---

[1] صحيح مسلم

[2] رواه الترمذي

واللهُ سُبحانه وتَعَالَى يستَجِيبُ لدعوة الدَّاعِي إذا دَعَاه، ويُرْسِلُ الأنبِيَاءَ للهِدَايَة، وبذلك يبقَى بابُ التَّوبةِ مَفْتوحَاً، سواءً أكانَ النَّبيّ حَاضِراً في قَومِه، أو غائِبَاً عَنهم. فَما يهِمُّ أنهم يصدّقونه ويتبِعونه كما فعَلَ قومُ يونُس في غيابِ نبيّهم عَنهم.

﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا﴾ رفَعْنا ﴿عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذِي كانُوا يستحقّوه يستحقونه لو لبِثُوا على كفرِهِم

﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾. كلُّ مَتَاعٍ ﴿فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يكونُ ﴿إِلَى﴾ أنْ يحيْنَ الـ ﴿حِينٍ﴾.

ولا مَتَاع دونَ ﴿حِينٍ﴾. ذلك أنّه مَتاعٌ ﴿فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

الباب التاسع والتسعون
خَيار الإيمان

﴿٩٩﴾

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾

يُخبِرُ اللهُ عزَّ وجلَّ في هذه الآيَةِ الكَرِيْمَة، رسُولَه عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ، ويأمرُه بإبلاغِ النَّاسِ بأن اللهَ قادِرٌ أَنْ يجْعلَ ﴿مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ يؤمنون في سَاعةٍ واحِدةٍ وبشكلٍ جماعيٍ موحَّد. ولا يبقى كافرٌ واحدٌ ﴿فِي الأَرْضِ﴾.

فهذه حَقيقةٌ ثابتةٌ وهي: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾.

وهذا مَعنَاه أنكَ لا تجدُ إنسَاناً وَاحِداً لا يُصَلّي، لا تجِدُ إنسَاناً وَاحِداً لا يصُومُ، لا يُزَكِّي، وما إلى ذلك من شَعَائرِ الإيمَانِ.

وهذا بيانٌ للنَّبيِّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ الإنْسَانِ الأوَّلِ الذي تلقَّى القُرآنَ، وللنَّاسِ جَمِيعاً الذينَ يتلقُّون القُرآنَ من خِلَالِه من أبناءِ كلِّ زمانٍ ومكَانٍ.

فالمشيئةُ هنا مُقترَنَةٌ بالمَقدِرةِ: ﴿لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾. أيْ قَادرٌ أنْ يَجْعلَهم يرضخون ويستجيبون لمَشِيئتِه سُبْحَانَه وَتَعَالَى، سَواءً طَوعَاً، أو كَرْهَاً.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

عِندَما يُكْرِه الإنسانُ إنسَاناً على الإيْمَان، سيكُونُ قَد تَجاوَزَ على حَدٍّ مِن حُدُودِ اللهِ، حَتَّى لو كانَ هذا الإنسَانُ نَبيّاً. وبالتَّالي فلا يجُوزُ ذلك لإنسَانٍ قَط، لأنه لو فَعَلَ ذلكَ، سيكُونُ قد تَمَادَى على حَدٍّ من حُدُودِ الله تَعَالَى، بكونِه قَد تَحدَّى مَشِيئةَ اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى الذي بيَّن: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾. وهذا كقولِهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ هود١١٨.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾. فلو شَاءَ أن يُؤمِنَ النَّاسُ﴿جَمِيعاً﴾. لتحقَّقَت مَشِيئَتُه عزَّ وجلَّ دونَ إكْرَاهٍ، ولكانَ الإيمانُ ثَابِتاً في قلوبُ النَّاسِ ﴿جَمِيعاً﴾. لا يُزَحْزِحُه شيءٌ. وذلك دونَ أنْبِياءٍ ولا كتبٍ سَمَاوَيَّة، بل فقط مَشِيئَةٌ. وقولُه تَعَالَى شَأنُه: ﴿لآمَنَ﴾. يُشِيرُ إلى إيمَانٍ حَقِيقِيٍّ، واللهُ يَعلمُ ما يُسِرُّ الإنسانُ وما يُعلِنُ. وهذا العِلْمُ لا يَبلغُهُ الإنسانُ، كَوْنه لا يعلَمُ إن كانَ الذي أكْرَهَه على الإيمَانِ، آمَنَ قلْباً وقَالباً، أم آمَنَ فقط قَالباً اتّقاءَ أَذَى هذا المُكْرِه. ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ الرعد ٣١. فالإنسَانُ لا يُقهَرُ على الإيْمَانِ، لأنه عنْدَ ذاك سيكونُ قد آمَنَ قَهراً، حَتَّى لو كانَ إيمَانَاً صَادِقاً لا تَشُوبُه شَائِبَةٌ. فبيَّنَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾. بمعْنَى صَادِقِين في إيْمانِهم مَظْهَراً وجَوهَراً. وحَتَّى لو تَحقَّقَ ذلك، فإنَّكَ تكونُ قَد جَعلتَ هذا الإنسَانَ يؤمِنُ رغمَاً عنه. واللهُ لا يقبَلُ مَن يَأتِيه رغماً عنه. ولذلك، ما شَاءَ أن يؤمِن ﴿مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾. وعلى هذه القَاعِدَة، لا يجُوزُ لأيِّ مُؤمِنٍ أن يُكْرِه أحداً على الإيمَانِ، اِعْتِبَاراً مِن رَسُولِ اللهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّمَ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ البقرة ٢٧٢.

﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ المائدة ٩٩

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ الكهف ٦.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ القصص ٥٦.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ ق ٤٥.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ*لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ الغاشية ٢١، ٢٢.

يتبيَّنُ من ذلك بأنَّ الإيمَانَ رغبَةٌ دَاخِليّةٌ، وشعورٌ بِمَدى حَاجَةِ الإنسَان إلى اللهِ، فعندما تَعبُدُ الله، تشْعُر براحةٍ نفسيَّة، ولذلك تُقبِلُ على الطَّاعَةِ بمحَبَّةٍ، بانشِراحٍ، بإشْرَاقٍ لأنَّكَ ترْتَاحُ في العِبادَة كما لا ترْتَاحُ في غَيرِها. ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد ٢٨. فاللهُ هو مَلجَأُ المُؤمِن من كلِّ اضْطِرابٍ، ومن كلِّ فَزَعٍ، من كلِّ خوْفٍ، من كلِّ وَسْوَاسٍ، من كلِّ ضيْقٍ، من كلِّ ظالمٍ.

هكذا يبْنِي المُؤمِنُ علاَقتَه الوَثِيقَةَ مع اللهِ، وتكونُ هذه العَلاقَةُ شَدِيدةَ الخُصُوصِيَّة بينَه وبينَ اللهِ. وهذا لا يمكِنُ له أن يتحَقَّقَ على أسَاسٍ من الكُرهِ، بل على أسَاسٍ مِنَ الحُبِّ. ولذلك ما أكْرهَ اللهُ أحَداً على الإيمَانِ، وهو قادرٌ أن يُكْرِه، حَتَّى الشَّيطانَ، كانَ اللهُ قَادِراً أن يُكرِهه على السُّجُودِ للإنسَانِ رُغمَاً عنه، لكَّنه تَعَالَى عن الإكراه، وترَكَه لعصْيَانِه، كما أنَّه يتَعَالَى عن الإكراه، ويترُكُ الإنسَانَ في عِصيَانِه إذا أصَرَّ على العِصْيَانِ. ولكنَّ المُؤمِنَ ليس كالكَافِرِ عندَ اللّهِ، والإنسانُ الذي يَتمادَى ويَسْتَهزِئ بآياتِ اللهِ، وبرُسُلِه، وينْتَهِكُ حُدُودَه، يلقَى العِقابَ في الدُّنيا والآخرَةِ، كما أنَّ المُؤمِنَ الوَقّافَ عندَ حُدودِ اللهِ، يَلقَى الثَّوابَ في الدُّنيَا والآخِرَة. فالإيمَانُ يجعَلُ الإنسانَ صالِحَاً، يَلقَى ثَوَابَ صَلاحِه، كمَا أنَّ الكُفْرِ يجعلُ الإنسانَ فاسِدَاً، فيَلقَى جَزاْءَ فَسَادِه.

فهذا البَيَانُ الإلهِيُّ الجَلِيُّ يجعَلُ الدَّاعيَ إلى الإسْلَامِ، وأولُ الدُّعَاةِ مُحمَّد صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، أكثرَ نُضُوْجَاً، وأكثرَ صَبْراً، وهو يَدعُو إلى الإيمَانِ.

وقعَتِ الآيَة الكَرِيْمَةُ في جُملَتين، فَجَاءت الجُملة الأولَى بيَانَاً: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾.

وتكلّلَتِ الجُملةُ الثَّانيَةُ في استئنافٍ جَمِيل لفَحوَى هذا البيَانِ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا يَجْعل الدَّاعيَ إلى الإسْلامِ أكثرَ وأكثرَ بُعداً من مُجرَّدِ فكرَة الإكرَاهِ حَتَّى على أشَدِّ النَّاس كُفراً، وبذاتِ الوَقتِ، يجعلُه أكثرَ وأكثرَ قُربَاً من الحِكمَةِ والموْعِظَةِ الحَسَنة: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل ١٢٥.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت ٣٤. فأنْ تنجَحَ في التَّأْثِيرِ على شخصٍ واحِدٍ بكلامِك الطيِّب، وسُلوكِكَ الجَميلِ، فيؤمِنُ قناعَةً، خيْرٌ عندَ اللهِ من نَجَاحِكَ في إجبار ألفِ شخصٍ على الإيمان كَرْهَاً، لأنَّكَ تكونُ خرجْتَ عن أمرِ الله بعد الإكْرَاه. وأي نجاحٍ تُحَقّقه بالكَرْه، يكونُ فشَلاً ذرِيعَاً لأنَّه يُبعِدُكَ عن الله، كونه نجاحٌ من خِلالِ تَجَاوُزِ أمْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فصلت ٣٣.

عن سَهْل بن سَعدٍ أنَّ رسولَ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ قال لعلي: "فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ"[١].

وعن أبي هُرَيرَة رَضِيَ اللّهُ عَنْه أن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ قال: "مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا"[٢].

وليسَ بالضَّرُورَةِ أنْ يكونَ الإنسانُ داعِيَةً حَتَّى يدعوَ إلى اللهِ.

عَن عبدِ الله بن عمرو أن النبي صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ قال: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً".[٣]

---

[١] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما

[٢] صحيح مسلم

[٣] صحيح البخاري

الباب المائة
رجس الكفر

﴿١٠٠﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾

هذه الآيةُ معْطُوفَةٌ على سَابِقَتِها في اسْتِئْنافٍ جميلٍ لها: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الآنَ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ﴾.

فالإيمانُ، فضْلٌ مِنَ اللهِ على الإنْسَانِ، فعندما يؤمِنُ إنسَانٌ، يكونُ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى قد أذِنَ له بهذا الإيمَانِ. وعلى هذه القَاعِدَة: فأَيُّ إنسانٍ مُؤمِنٍ، يكوْنُ اللهُ قد مَنَّ عليه بنعْمَةِ الإيمَانِ، ولا يؤمِنُ أحدٌ قط إلَّا ويكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ قد أذِنَ له أن يُؤمِنَ.

من هنا فإنَّ الإنسانَ عندما يسجُدُ لله تَعَالَى، يشْعرُ بأنه يرتَقِي، وهو الانْحِناءُ الوحِيدُ الذي يشعُرُ معه الإنسَانُ بالارتِقَاءِ، ويشْعرُ مَعه بالعِزّ. فكلّمَا يعبُدُ الإنسانُ ربَّه أكثر، كلّمَا يرْتقِيْ أكثر، وكلّما يشعُرُ بالعِزّ أكثر. والمُؤمِنُ هو إنسانٌ عَزِيزٌ بإيمانِه، ويرْتقِيْ في عزِّ إيمانِه بقدْرِ عِبادتِه لله تَعَالَى.

﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾. فأيُّ شخصٍ لا يعقِلُ هذه الحَقِيْقَة، ولا يُؤمِن بها: يجعَلُ اللهُ ﴿الرِّجْسَ﴾ عليه.

أوْرَدتِ الآيَةُ الكَرِيْمَةُ ﴿الرِّجْسَ﴾. وأورَدَتِ العَقلَ. فبالعَقلِ يمْكِنُ لكَ أن تتجَنَّب ﴿الرِّجْسَ﴾.

والخِطابُ مُوجَّهٌ إلى عقْلِ الإنسَانِ بشكلٍ عامٍ ومفْتُوحٍ، سَواء أكانَ مُؤمِناً أو كَافِرَاً. مُؤمِناً لأنَّنا ضمْنَ سيَاقِ الآيةِ الاسْتِثْنَافيَّةِ المَعطُوفَةِ على سابِقَتِها: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

مِن هُنا: ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾. سواءً أكانُوا مُؤمِنينَ ويُرغِمُونَ على النَّاسِ كي يُؤمِنُوا كَرهاً، على قَاعدَةِ أنهم ﴿لاَ يَعْقِلُونَ﴾. أو أنهم كَافرُون ويصِرُّون على كُفرِهم دونَ أن ﴿يَعْقِلُونَ﴾ هَذه الحَقِيْقَة. وبذلك يسْتكْبِرونَ أنْ يسْألُوا اللهَ أنْ يمُنَّ عليهِم بنِعمَةِ الإيْمَانِ، وقد وعدَ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى بالاِسْتجابَةِ لعبَادِه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة١٨٦ . وسؤالُ اللهِ عزَّ وجلَّ مَفْتُوح للنَّاسِ جميعاً مُؤمِنين كانوا أمْ كفَّاراً. ويبقَى مُتاحاً برحْمةِ اللهِ لأيِّ إنسَانٍ مهما أسْرَفَ على نفسِه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الزمر٥٣.

فهؤلاءِ أصَرّوا على مَا هُم عليه دوْنَ أن يعقِلُوا بيانَ اللهِ الجَلِيّ هذا. فيُخبِرُهم بأنه: ﴿يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾. فلم يحرِمِ اللهُ الكافرَ العَقْلَ حَتَّى يقولَ بأنَّه لم يَكُنْ عَاقِلاً، ولم يحرِمْه وصُولَ القرآنِ إليهِ حَتَّى يقولَ بأنَّه لم يصِلْه.

و﴿الرِّجْسَ﴾. يُطفِئُ النُّورَ مِن الإنْسَانِ، فمهما كانَ هذا الإنسَانُ جَمِيلاً، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عندما يجعَلُ ﴿الرِّجْسَ﴾ عليه، ينطفِئُ فيه النُّورُ، فترَى شَخصَاً جَمِيلاً، لكنَّ قبحاً ما قد اطفأ جَمالَه سواءً أكان رجُلاً أو امرَأة.

ولا يقتصِرُ ظهورُ عَلامَاتِ هذا القُبْح على الوَجْه فقط، بل حَتَّى على الصَّوتِ، والحَركَاتِ، وفي أيِّ تصَرّفٍ يتصرَّفُه. فينتابُكَ ريبٌ بهذا الشَّخصِ، ولا تأمَنُه، ولا تطْمَئنُّ له مهما تظَاهَرَ بالطِّيبِ. تأمَّلَ في قَسَماتِ الوُجُوه جيِّداً، تأمَّل في نَبراتِ الأصْوَاتِ، تأمَّلَ في الحَركَاتِ، اللّفَتَاتِ، بل تأمَّل حَتَّى في الثِّيابِ التي يرتَديها هذا الشَّخصُ أو ذاكَ، حَتَّى في الأحْذِيَة، تأمَّل في أصْدِقَائه. سَتَجْلُو لك عَلامَاتُ الطُّمَأنِينةِ، أو علامَاتُ الرَّيبِ وأنتَ تنظرُ بتأمّلٍ، وهذه هي النَّظراتُ الثَّاقِبَةُ التي تثْقُبُ ما يُوَارِيْ هذا الشَّخصُ، أو ذاك.

وهذا لا يحْتاجُ سِوى إلى شَيءٍ من التَّركِيزِ، لأنَّ كلَّ إنسَانٍ تظْهَرُ عليه علامَاتُ مَضْمُونهِ. فعندما يكْذِبُ الإنسانُ، يأبَى الكَذبُ إلَّا أن يظهَرَ سواءً في نَبرَاتِ صَوتِه، أو عَلَى قَسَمَاتِ وَجهِه، أو على حَرَكَاتٍ يُبدِيها، مهما كانَ حَاذِقَاً في إخْفاءِ الكَذبِ.

وعندما يصْدُقُ، يَأبَى الصِّدقُ إلَّا أن يظهَرَ سواءً في نَبرَاتِ صَوتِه، أو عَلَى قَسَمَاتِ وَجِهه، أو على حَرَكَاتٍ يُبدِيها مهما كانَ بسِيطاً في كَلامِه، ومَهمَا كانتْ حُجَّتُه ضَعِيفَةً.

فالرِّجْسُ في الآيَة الكَرِيْمَة، يجوْزُ أن يكُونَ بمَعنَى القُبْحِ، حيث يَقْبحُ به الإنسَانُ فيُصبِحُ قَبيْحَاً.

والرِّجْسُ أيضاً دَرَجَات: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ التوبة ١٢٥.

وقد تكونُ للرِّجْسِ رائِحَةٌ أيضَاً، فتشعر برائِحَةٍ مُنفِّرَةٍ منَ الإنْسانِ الذي يجْعلُ اللهُ علَيهِ ﴿الرِّجْسَ﴾. مهما اغتَسَلَ هذا الإنسانُ، ومهمَا تعطَّرَ. وقد أَكرَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ الإنسانَ المُؤمِنَ وجَنَّبَه ﴿الرِّجْسَ﴾. فيتمتَّعُ برَائحَةٍ طيّبةٍ حَتَّى لو كَان جسَدُه متعرقاً.

الباب مائة وواحد
عبادة النظر

﴿١٠١﴾

﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾

تبيِّنُ الآيةُ الكَريمةُ بأنَّ الإنسَانَ يُمكِنُ له أن يُؤمِنَ مِن خلالِ النَّظَر، فيكوْنُ النَظَرُ دَليلَه إلى قبسَاتِ الإيمَانِ. والإنْسانُ لا يُسبّحُ اللهَ فقط عنْدَما يقْرأُ القُرآنَ، بل ويُسبِّحُه وهوَ يَرَى بَدَائعَ خَلقِه. وهنا أيضَاً يكونُ النَّظَرُ دَليلَه إلى العِبادَةِ، فيعبُدُ اللهَ من خِلالِ نَظَرِه، ويجْعَلُه نَظَرُه يرْتقِي فِي دَرجَاتِ الإيمانْ. ويقْتَرِن ذلك على بمقدار تَوَاضُعِ هذا الإنسَانِ للهِ تَعَالَى، ثم بعدَ ذاك يبدأُ يكْتَشِفُ عَظَمةَ اللهِ في خَلقِه. فالنَّظَر على أسَاسٍ سَليمٍ يُؤدّي إلى تفكِيرٍ على أسَاسٍ سَليمٍ.

﴿قُلِ انظُرُواْ﴾. وظِّفُوْا النَّظَرَ الذي مَتَّعَكُم به اللهُ، و: ﴿انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. أي ما يمْكنكَ أنْ تراهُ ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾. مثلَ: الشَّمْسِ، القَمرِ، النُّجُومِ، الغُيُومِ، وما يحصُلُ مِنْ بُرُوقٍ ورعُودٍ، وأمْطَارٍ وثلُوْجٍ، وما إلى ذلكَ.

﴿وَالأَرْضِ﴾. مثلَ: البِحَارِ، الجِبَالِ، الصُّخورِ، المَعَادنِ، المَزرُوعَاتِ، الدَّوَابِّ، وما إلى ذلكَ.

فهذَا النَظَرُ التَّأمُّليُّ سيؤدّي بِصَاحِبِه إلى الإيْمانِ بالله تَعَالَى، في حالِ تخلَّى عن عِنادِه وتفكَّرَ فيمَا يَرَى. أمَّا إذا كانَ رَافِضَاً فكْرةَ الإيمَانِ ومُستَهْزِئاً بها ومُصِرّاً على الرَّفضِ بِعنَادٍ شديدٍ، فلا يفِيدُه نَظَرُه. لذلك، جاءَ الاسْتِئنافُ في الجُملَة الثَّانيَةِ من الآيَة الكَرِيْمَة المُؤَلَّفة من جملتَين تَكامليتَين: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾.

فالجملةُ الأُولَى من الآيَة الكَرِيْمَة: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. دعْوةٌ إلى توظِيفِ النَّظَر توْظِيفَاً إيَمانيَّاً سَليمَاً.

وعُطِفَتْ عليها الجُملةُ الثَّانيةُ: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾. فالنَّظَرُ الذي لا يُوَظَّف على قاعِدَةٍ إيمانيّةٍ سَليمةٍ، لا ينْفعُ صَاحِبَه شيئاً مهمَا توسَّعَ بنَظَرِه إلى ما: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ يوسف ١٠٥.

فالذي لا يتَّعِظُ بالنَّظَر إلى آيَاتِ اللهِ في الكَونِ، لا يتَّعِظُ أيضاً بِما أتَى به الأنْبِيَاءُ والرُّسُل من عندِ الله. فذُكِرَت ﴿الآيَاتُ﴾ وعُطِفَ عليها ﴿النُّذُرُ﴾. جَمْع نذيْرٍ. والنّذِيرُ هو الرَّسُول ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ هود ١٢.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ الحجر ٨٩.

وجاءَ الاثنانِ جَمعاً ﴿الآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾. بمعنَى أنَّ كُلَّ مَا ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. وكلَّ أنبِياءِ ورُسُلِ اللهِ جَميعاً، لا ينفعون الإنسانَ العَنِيْدَ المُتكبِّرَ.

﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾. ذلك أنَّها ﴿تُغْنِي﴾ المُؤمِنينَ. فيُصبِح المُؤمِنُ غَنيّاً بإيْمَانِه، وبهذا النَّظَرِ الإيْمَانيِّ تزدَادُ حَسَناتُه، وتمحى عنْه سَيّئاتُه. فيزْدَادُ غِنىً على غِنىً. وبذات الوَقتِ يلْبَثُ المُعانِد المُتَكبّر بنظَرِه اللا الإيْمَانيِّ مُفلِساً، ويزداد إفلاساً على إفلاسٍ.

الآنَ: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ﴾. التي ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ جَميعها. ﴿وَالنُّذُرُ﴾. أنبِياءُ ورُسُلُ اللهِ جَميعاً: ﴿عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾.

فهذه الآيةُ الكَريمَةُ هي دَعَوةٌ لهَؤلاء الذينَ ﴿لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾. كَي يُراجِعُوا أنْفُسَهم، ويُعيْدُوا حِسَاباتِهم كي يُؤمِنوا ويَنتَفِعُوا. ولدَيْهم النَّظَرُ الذي يمْكِنُ لهم أن يُوَظِّفُوه من أجْلِ إيمانٍ صَحيْحٍ قَوِيمٍ.

ومهما كانَ الإنسَانُ وَاقِفاً على تاريخٍ من المَعاصِي، فإنَّ اللهَ جَلّ شَأنُه يتقبَّلُ اسْتغفَارَ المُسْتَغفر، يتقبَّلُ توبةَ التَّائبِ. والنَّاسُ جَميعاً هم عِبادُ اللهِ، ولا أحد أفْضَل من أحَدٍ إلَّا بمقْدَارِ التَّقوَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات ١٣.

فبَراهِينُ الإيمانِ مُوجُودَة وثابِتَةٌ لِمَن يُريدُ أن يُؤمِنَ. وإيمانُ الإنسَانِ يبدَأُ مِمّا يَرَى ويلمِسُ مِن حَوله مِن آياتِ اللهِ في الكَونِ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ*وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ الذاريات ٢١.

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الجاثية٣. وهذا كلُّه يتَكَامَل مع آياتِ اللهِ المَقرُوْءَة فِي القرآنِ.

الباب مائة واثنان
بين انتظار العقاب وانظار الثواب

﴿١٠٢﴾

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾

فهؤلاءِ الذين يكْفُرونَ بآياتِ اللهِ، تُنبّهُهم الآيَةُ الكَرِيْمَةُ بأنَّهم يحْكُمُون على أنفسِهم بأنْ يَلقُوا العِقابَ الذي لقِيَه ﴿الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾. إذا اسْتَمرّوا.

والآيَةُ الكَرِيْمَةُ تُنبّههم في الوَقتِ عينِه بألّا يسْتمرُّوا في الكفْرِ والطُّغيَان وانتهاكِ حُدودِ اللهِ. لأنه كما لم يسْلَم ﴿الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾. فلنْ يسْلَمُوا هُم أيضَاً من العِقابِ.

لكنْ يمكنُ لهُم أن يسْلَمُوا، وبابُ التَّوبةِ مَفتُوحٌ أمَامَهم مهما كانُوا على كُفرٍ وذُنُوبٍ.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ الأنفال٣٨.

فيمكنُ لهُم أنْ يَندَمُوا على كُلِّ ما ارتكَبُوا من خَطَايَا، ويُصْلَحوا ويتَحَوَّلُوا إلى أُناسٍ مُؤمِنينَ صَالحِيْنَ.

والآيةُ الكَريمةُ تدْعُوهم إلَى الصَّلاحِ، وتُحذِّرُهم مِن مغبَّة العِنَادِ. وعِندَها: ﴿قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾. أي ﴿فَانتَظِرُواْ﴾ عاقبةَ الذينَ تَحْذُون حَذوَهم. ويبقَى هذا الكَلامُ مَفتُوحَاً لأبناءِ كلِّ زمانٍ ومَكَانٍ. فينتَظِرُ الفَاسِدُ نهايَةَ فَسَادِه المُزرِيَةَ، كما أنَّ الصَّالحَ ينتَظِرُ تحقيقَ وعْدِ اللهِ في الظَّلَمةِ. فأحياناً لا يسْتَطِيعُ الصَّالحُ مَنعَ الظَّالِمِ مِن ظُلمِه للناس، لأن الظَّالِم يكونُ نافِذَاً ومُتمكِّناً. فيَنتظِرُ ويصْبِرُ ليرَى كيفَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُذلُّه بظلمِه في الدُّنيَا قبلَ الآخِرة.

إذَنْ، أيُّها المستهزئون بآياتِ الله، والمُسْتكْبِرونَ على الإيمانِ، اعلَمُوا بأنَّكم تنتظِرُونَ العِقَابَ الذي مُنِيَ بهِ المستهزئون والمُسْتكْبِرونَ مِن قبلِكُم، وأنَّ هذَا العِقابَ ينتَظِرُكُم إذا اسْتمْرَرتم فيما أنتُم فيه من طُغيَانٍ. فبدَلَ أنْ تنتَظِرُوا العِقابَ، يمْكِنُكُم أنْ تنتَظِرُوا الثَّوابَ، وبدلَ أن ينْتَظِرُكم العِقابُ، يمْكنُ أن ينْتَظِرُكم الثَّوابُ. ولكُم خيارُ أن تكُونُوا على هَذا، أو ذَاكَ.

الباب مائة وثلاثة
حق نجاة المؤمن على الله

﴿١٠٣﴾

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿ثُمَّ﴾ عنْدَ وقُوعِ العَذابِ ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾ من العَذابِ، فلا يُصِيبُهم أيُّ أذىً.
فقبلَ ﴿ثُمَّ﴾ يكونُ النَّاسُ في مَرحَلَة الإمْهَالِ، والإنْذَارِ، والتَّحذِيرِ، ويكونون في أمَانٍ رغمَ ما هُمْ عليهِ من عِصْيانٍ. وهذا ما حَصَل عندما أنْجَى اللهُ نوحاً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾. وعاقَبَ العُصَاة.
وكذلكَ مع موسى وهارون ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾. وعاقَبَ فِرعَون وجُنْدَه.
إذن: عندَمَا يوقِعُ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى العِقابَ على الظَّلَمة والفَجَرَة: ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾. جاءَت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾. المَعطُوفَة على رُسُل الله، مفْتُوحَةً وشَامِلةً مُؤمِنِي كلِّ زمانٍ ومَكانٍ.
وَجاءَت الجُملةُ الثَّانِيةُ مُركَّزة في الآيةِ المؤلَّفة مِن جُملَتين: ﴿كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
وكانَ يمكِنُ القولُ: ﴿كَذَلِكَ﴾ ﴿عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذا وعدٌ مِن اللهِ تَعَالَى شأنُه لك حَتَّى يوقِنَ المؤمنُ أكثرَ، فقد جَعَلَ اللهُ هذه النَّجَاة ﴿حَقّاً﴾ . للمُؤمِنِ عليْهِ. فيكونُ بذلك لك حَقٌّ عنْدَ الله بنجاتِك ما دُمتَ مؤمِناً. ﴿كَذَلِكَ﴾. أي مثلمَا أنْجَينَا ﴿رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾. فنجَاةُ المُؤمِنينَ في أيِّ زمانٍ وأيِّ مكانٍ ﴿حَقّاً عَلَيْنَا﴾ كما لو أنَّ ﴿رُسُلَنَا﴾ مَعَهم.
ف﴿كَذَلِكَ﴾.
هنا، بِمَقام: مثلَما. فقدْ سَاوَى اللهُ بينَ المُؤمِنينَ جَميعَاً في هذا الحَقِّ، كما لو أن رُسُلَه يعِيْشُون بينَهم. وهذا لا يقتصِرُ عَلى الحَالاتِ العَامَّةِ مِثلَ الحُرُوبِ أو الكَوارِثِ، بل حَتَّى في الحَالاتِ الصَّغيْرةِ، أو الفَرديَّةِ، فينجِّيُ اللهُ عزَّ وجلَّ، عبْدَه المُؤمِنَ، من ظَالِمٍ يُريدَ أن يفْتكَ به، من كَرْبٍ، من قَهْرٍ، من ذُلٍّ، من عَوَزٍ. فيعيشُ فِي أمَانِ اللهِ حياةً كَريمَةً عَزِيزةً حَتَّى لو كانَت ظُروفُه المَعِيشِيَّة مُتَواضِعَة. ذلك أنه يعيشُ غَنيَّاً بإيمانِه، وربَّما لو توزَّعَ إيمانُه على أبناءِ مَدينةٍ بأكمَلِها، لكَفَاهُم.

الباب مائة وأربعة
بين الشك والإيمان

﴿١٠٤﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

الشَّكُّ، هو نَقيْضُ الثِّقَةِ، والثِّقةُ هي التَّصدِيقُ، التَّصدِيقُ يؤدِّيْ إلى اليَقيْنِ، واليَقِينُ يؤدِّي إلى الإيْمَانِ.

تتناوَل الآيَة الكَرِيْمَة جَوهَرَ العَلاقَةِ بينَ الشَّكِّ والإيْمَانِ. فالشَّكُّ هو تذَبْذُبٌ، والتذَبْذُبُ تردُّدٌ، والتردُّدُ يؤَدِّي بالمُتردِّدِ إلى عَدَمِ التَّصْدِيقِ، وعَدَمُ التَّصْدِيقِ يُبعِدُ عنه اليَقينَ، وبُعْدُ اليقِيْنِ، يؤدِّي به إلى عَدَم الإيْمَانِ. لكنْ كيفَ يتحوَّلُ الإنسَانُ من الشَّكِّ إلى اليقِيْنِ، ونظيْرَ ذلك: هل يمكِنُ للإنسَانِ أن يتحوَّلَ من اليقِيْنِ إلى الشَّكِّ؟

تُبيِّن الآيةُ الكَرِيمَةُ بأنَّ العِبادَةَ تُرَسّخُ اليَقينَ عندَ الإنسَانِ، وكلّمَا عبَدَ الله أكثرَ، كُلّما ترسَّخَ في الإيمَانِ أَكثرَ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ الحجر ٩٩.

ونظِيرَ ذلك فإنَّ لوْثَةَ الشَّكِّ يُمكِنُ لها أن تَتسرَّبَ إلى قلْبِ المؤْمِنِ مع قلّةِ العِبادَة، فتفْسِدُ عليه إيمَانَه. وهكذا كلّما قلَّتْ عِبادَةُ المُؤمِن، تسرَّبَ الشَّكُّ إلى قلبِه أكثَر، وزَحْزَحَه عن إيمانِه أكثر، ويلبَثُ يتَسَرَّب ويتَّسِعُ مع قلّةِ العِبادةِ حَتَّى يَسْتفحِلَ به ويُخرِجَه مِنَ الإيْمانِ تَماماً، فيُحيلَه من إنسَانٍ صَالحٍ إلى إنسانٍ فَاسِد، من إنسَانٍ تقِيٍّ إلى إنسَانٍ فَاجِرٍ.

فقلَّةُ العِبادَةِ هي منْفَذٌ للشَّكِّ، وكثْرتُها هي مَغلَقٌ له.

استُهلَّت الآيَة الكَرِيْمَة بالشَّكّ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾. ثم برفْضِ العِبادةِ السَّلبيّةِ التي تكونُ لغيْرِ اللهِ: ﴿فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ﴾. وهذا الرَّفضُ لا بدَّ أن تكونَ له قَاعِدةٌ والتي على أسَاسِها يأتِي الرَّفضُ. والقَاعِدةُ هي إيمانٌ باللهِ الواحِدِ الأحدِ الذي لا شَريكَ له. فاسْتَأنَفَت الآيةُ: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ﴾.

وهكذا فإنَّ عِبادةَ اللهِ تُحصِّنُ الإنسانَ من الشَّكِّ.

إذنْ، المُمَارَسَةُ تُرسّخُ الإنسانَ في الشّيء وتجْعلُه يألَفُه، ومُمارسَةُ العِبادةِ تُرسِّخُ المؤمِنَ في إيمانِه وترْتقِي به في درجاتِ الإيمانِ.

فعندمَا يقرأُ الإنسانُ القُرآنَ كلّ يومٍ، فإنَّه يعْتادُه ويألَفُه، وعندمَا لا يقرؤه سوى في بعضِ المُناسَباتِ، أو فقطْ في رمَضَان، فإنَّه لا يقرؤه بأُلفَة، لأنه لم يعْتدْ عليه.

فاليدُ التي تمْسِك القُرآنَ كلَّ يومٍ، هي غيْرُ اليَدِ التي لا تلمَسُ القرآنَ سوى مرَّةٍ واحدةٍ في السَّنةِ، أو حَتَّى في أكثر من سَنَة، وكذلك العَيْنُ التي تقْرأُ القُرآنَ، وكذلك الأُذنُ التي تسْمَعُ القرآنَ. هكذا تشْتَاقُ اليَدُ لحمْل القُرآنِ، تشْتَاقُ العَينُ لقِراءَةِ القُرآنِ، تشْتَاقُ الأذنُ لسَمَاعِ القُرآنِ.

ونَظيرَ ذلك فإن هَاجِرَ القُرآنِ لا تشْتَاقُ يَدُه للقُرآنِ، لا تشْتَاقُ عينُه لقِراءَةِ القُرآنِ، لا تشْتَاقُ أذنُه لسَمَاع القُرآنِ.

وهذا يُقَاسُ علَى سَائرِ السُّلوْكيّاتِ الإنسَانيَّة، فعندمَا يُمارِسُ الإنسانُ سُلوكَ الإنْفَاقِ في سبيلِ اللهِ، فإنه يعْتادُه ويألَفه حَتَّى إنه لا يمُرُّ عليه أسبوعٌ أو على الأكثر شهرٌ واحدٌ دون أن يُنفِقَ شَيئاً في سبيلِ اللهِ تَعَالَى. وعندمَا لا يُمارِسُ سُلوكَ الإنفَاقِ في سَبيلِ اللهِ، فإنه لا يُنفِقُ شيئاً في سَبيلِ اللهِ، إلَّا إذا كانَ لدَيهِ نِصَابُ الزَّكاةِ، فيُخرِجُ الزَّكاةَ مُضطَراً أو مُكرَهاً، وليس عن طِيْبٍ، لأنَّه لم يُعَوِّدْ نفسَه على سُلُوك الإنفَاقِ.

من هنا فقَد بيَّنَتِ الآيَةُ الكَرِيْمَةُ أنَّ مُمَارسَة العِبادَةِ الوَثنِيَّةِ رسَّخَتِ الشَّكَّ لدى الوَثَنِيين. فـ: ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾. وهذا الشَّكُّ مَبنيٌّ على أسَاسِ: ﴿الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

فلا أتَّبِعُكم في عبَادَة ﴿الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾. لم يكتفِ بذلك، بلْ ﴿وَلَكِنْ﴾. وهَذا هو المُهمُّ، لأنَّ لي أرْضِيَّتِيَ الإيمَانيَّةَ القَويمَةَ: ﴿أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾. وهذا تذكِيرٌ لهم بأن اللهَ هو الذي يَتوفَّاهُم، وليستِ الأوْثَانُ هي التي تَتوفَّاهم، وأنَّ مَرْجِعَهم إلى اللهِ، وليسَ إلى الأوْثانِ.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أوْثَانُكم لم تأْمُركُم بعبَادَتِها، ولا كلِمَة واحِدَة منْها بينَ أيَادِيكُم، وهي متبرِّئةٌ من عبادتِكُم لها. لكنْ أنا لديَّ قُرْآنٌ من اللهِ تَعَالَى. ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بمُوجِبِ هذا القُرآنِ: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. الذينَ سَبقُوني في الإيْمَانِ.

البَابُ مائة وخمسة
الحنيفيّة

﴿١٠٥﴾
﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

الإقَامَةُ، من الاسْتِقَامَةِ، وهي نقيْضُ الانحِرافِ. والحَنِيفيَّة، هي التَّوحِيدُ الخَالصُ الذي لا يشُوبُه أيُّ انْحِرافٍ ﴿لِلدِّينِ﴾.

بلامِ العلّة: ﴿حَنِيفاً﴾. مُوحِّداً خَالياً من الشِّركِ، مهما كَثُرَت أعدادُ المُشْركينَ من حَولِك.

يبيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّ كُلَّ أشْكَال وألوانِ الشِّركِ التِي كانَت مُنْتشِرَة، والتي كَانَ المُشرِكُونَ يدَّعُون بأنَّها تُقرّبُهم ﴿إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ الزمر٣. هي بَاطِلةٌ، ولا أسَاسَ من الصِّحَةِ لها. ومن الطَّبيعيِّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، لا يعلَمُ، وأنَّ الله جلَّ شأنُه، يُعلّمُه. ونحْنُ الآنَ في المَرحَلةِ المكّيةِ من نشْرِ الإسلَامِ، والنَّبيُّ عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ مقيمٌ في مَكّة التي تفَشَّتْ فيها الأوثَانُ، والمُعتَقَدَاتُ الشِّركِيَة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى*وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى* أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى* تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى*إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ النجم١٩، ٢٣.

بعد أن يأمرَ اللهُ رسُولَه: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾. يقولُ: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وكانَ يمكن القَولُ: ﴿وَلاَ﴾ تكنْ ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. لكِن أتَتِ النُّون الثَّانية تَوكِيديّةً: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. بعطفِ كامِلِ الجُملةِ على كامِلِ الجُملةِ السَّابقَةِ: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾. لتُعطَفَ الآيةَ بأكملِها على خَاتمَةِ الآيةَ السَّابقةِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا تأكيدٌ آخرُ بأنَّ العِبادَة تُحصِّن الإنسانَ من أيِّ شَكْلٍ مِن أشكالِ الشِّركِ، وهيَ تُزيدُ الإنسَانَ ثَباتاً فِي إيْمانِه.

الباب مائة وستة
التوحيد

﴿١٠٦﴾

﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾

يبيِّنُ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى لرسُولِه عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ، بأنَّ كلَّ أشكالِ وألوانِ الشِّركِ، لا ذرَّة نَفْع فيها، وهيَ غيرُ قَادِرةٍ أن تمَسَّ أحَداً بشَيءٍ من الضُّرِّ.

والآيةُ كجمْلةٍ وَاحِدةٍ، مَعطُوفَةٌ على سابِقَتِها كجمْلةٍ وَاحِدةٍ من خِلالِ اسْتِكمَالِ كَلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ لرسولِه صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ.

أي ﴿وَ﴾ أمَرني ربِّي أنْ: ﴿لاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ﴾ كائِناً مَن كانَ ﴿مَا لاَ يَنفَعُكَ﴾ مهما دَعَوته ﴿وَلاَ يَضُرُّكَ﴾. مهما أنْكَرتَه.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ . أي دَعَوت ﴿مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ: ﴿فَإِنَّكَ﴾ بفِعلِك ﴿إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾. الذين ظَلَمُوا أنفُسَهم، لأنَّ الإنسَانَ الذي أكرمَهُ اللهُ وجَعَل المَلائكَة تسْجُد له، يظلِمُ الإنسانَ في نفسِه، عِندَما يتَوسَّل للأوْثَانِ، أو يسجُدُ لها. وهذا يبيِّنُ مدَى انتشَارِ العَقيدةِ الوَثنيَّةِ في مَكّة حَتَّى إن اللهَ سُبْحَانَه وَتَعَالَى يقولُ لرسُولِه عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾. وهوَ الذي أُنزِلَ القرآنُ على قلبِه، وبالتَّالِي كم كانتِ الدَّعوَة شَاقَّةً في واقِعٍ وثنيٍّ كذاك.

الباب مائة وسبعة
القدرة الإلهية

﴿١٠٧﴾

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

في الآيَة المَتقدّمَة، أخبرَ اللّهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى رَسُولَه صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ عن عجْزِ الأوثَانِ تَقْدِيم أيِّ نفْعٍ له، أو إلحاقِ أيِّ ضُرٍّ به: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾.

الآنَ وفي اسْتكمَالِ الإخبَارِ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾.

وهذا الإخبَارُ وإن كانَ مُوَجَّهاً إلى النَّبيِّ عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ، إلَّا أنه يبقَى مَفتوحَاً ومُوَجَّهاً لإنسانِ كلِّ زمانٍ ومكان.

والأمرُ في الآيَة الكَرِيْمَة، لم يقَعْ، بل هو على سبيْلِ الافْتِرَاضِ لبيَانِ جَوهَر الحَقِيْقَة. فالأوثَانُ غيرُ قَادِرةٍ، ولكنَّ اللهَ قادِر أنْ يْسحَق حَتَّى كلَّ تلك الأوثانِ من جُذورِها مَثلاً من خِلَال هَزَّةٍ أرْضِيَّة، أو زلْزَالْ، أو عَاصِفةٍ، أو فيَضَانٍ، أو برْقٍ، وما إلى ذلكَ.

فأحياناً يخْتَبِرُ اللّهُ عزَّ وجلَّ الإنسانَ، وهذا الاخْتبارُ يكونُ لخَيرِ الإنسَانِ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة١٥٥. وحَصَلَ هذَا مع الأنبِيَاءِ والرُّسُلِ على مدَارِ التَّاريخِ البَشرِيِّ، كما أنَّه يحصُلُ للأوْليَاءِ والصَّالحِينَ في كُلِّ زمَانٍ ومَكَانٍ.

فالضُّرُّ هنا اِختِبَارٌ، وكونه اختباراً، فيكُونُ الصَّابِرُ في حالة عِبادَة مُستَمرَّة ما دَامَ بهِ هذا الاختبارُ. وهَذا مُختَلفٌ تمامَاً عن العِقابِ الذي يُلْحِقُه اللّهُ عزَّ وجلَّ بالظَّالِم في الدُّنيا ليكونَ عِبرَة للظَّلَمةِ. وشتّانَ بينَ اخْتبَارِ الأَولِيَاءِ، وعِقابِ الفَجَرةِ. ويظهَرُ الاختِلَافُ عنْدَما ينتهِي الفَاجِرُ نهايةً ذَليلةً خَانعَةً، في حين يلبَثُ الوليُّ في عزِّه ورِفعَتِه.

لكنْ هناكَ أمرٌ آخر أيضاً وهوَ أنَّ الإنسانَ يُسبِّبُ الأذى لنفسِه نتيجةَ بعض التَّصرّفاتِ، مثلَ أنْ يتناوَلَ طعاماً متَّسِخاً أو فاسِداً، فيُصابُ بأذىً في معِدَته، أو يُدمِن على المُخدِّرات، فيَتأذَّى نتيجةَ إدْمانِه، أو يُعرّضُ نفسَه للبرْدِ القَارِسِ، فيُصَابُ بزكَامٍ، أو يفْرطُ في تناولِ الطَّعامِ ولا يُمارِس الرِّياضَة، فترتَفعُ لديه نسْبةُ الدُّهُونِ، أو لا يغْسِل أسنانَه فتُصَابُ بأذَىٍ. فإذن أسنَانُك هي التي عاقَبتكَ لأنَّك أهمَلتَها حَتَّى تسَوَّسَتْ، كمَا أن مَعِدَتك هي التي عاقَبتك لأنَّكَ أدْخَلتَ إليها طَعامَاً متّسِخَاً، وأعصَابُكَ عاقَبتْك لأنَّك أقحمْتَ عليها المُخَدّرَات، وتنفُّسُكَ عاقبَكَ لأنَّكَ عرَّضتَ جسَدَكَ للبردِ القَارِس، ودمُكَ عاقبَكَ لأنكَ أقحَمْتَ عليه زِيادَةً في الدُّهونِ دون أن تمارِسَ الرِّيَاضَة: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ النساء٧٩.

لكنَّ هذا الأذَى كُلَّه مَمْنوعٌ عليه أن يُصيبَكَ دونَ أن يأذَنَ له اللهُ بذلك، ويمْكِن أنْ ينجِّيَ اللهُ الإنسَانَ حَتَّى لو تحقَّقَت فيه أسْبابُ الأذى. فحَتَّى النَّارُ لو وَضَعْتَ يَدكَ فيها، فلا يمْكِنُ لها أن تحْرِقَها قبلَ أن يَأذَنَ اللهُ لهَا بذلكَ. فعِندَما تمَّ وَضعُ خَليْلِ اللهِ إبْرَاهيمَ عليه السَّلامُ في النَّارِ، ولمْ يَأذَنِ اللهُ تبارَك وتعَالَى لها أن تَحرِقه، تحوَّلَت حَرَارةُ النَّارِ المُلتَهبَةِ إلى برْدٍ وسَلامٍ بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ* قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ الأنبياء٦٨، ٦٩. فكلُّ خَلقٍ مِن خَلقِ اللهِ يأْتَمِرُ بأمْرِه. فيمْكِنُ أنْ ينجُوَ الإنسانُ بأُعْجُوبَةٍ من حَادثِ سَيرٍ مُرَوِّعٍ، أو من زِلزَالٍ، أو مِن تفْجِيرٍ، أو حَرِيقٍ، وما إلى ذلك من أشْكالِ المَخَاطِرِ التي قد تقَعُ بغتةً سَواء بشَكلٍ فَردِيٍّ، أو جَمَاعِيٍّ، فيُنَجِّي اللهُ عَزَّ وجلَّ هذا الشَّخصَ، أو ذاكَ بأُعْجُوبَةٍ في اللَّحَظاتِ الأخِيرةِ ينْذهِلُ لها النَّاسُ، بل الشَّخصُ نفسه ينْذهِلُ لها.

مِن هنا فإنَّ الذي يعْطِي الإذْنَ، يمكِنُ له ألّا يُعطِيَ، وهي حَالاتٌ اسْتِثنَائيَّةٌ تحْصُلُ أحياناً وليسَ دائِماً، لأنَّ اللهَ عزّ شَأنُه لو أوقفَ الإذنَ عن إصَابةِ الإنسَانِ بالأذَى الذي يُسَبِّبُه لنفْسِه، لتَحوَّلَت الحَياةُ إلى شِبهِ فوضَى. فالمُدمِنُ على المُخدِّرَاتِ يكونُ كالذِي لا يَقْربُهَا، والمُعتَدِلُ في الإنْفاقِ يكونُ كالمُبَذّر، والمُنْتَهكُ لأَعرَاضِ النَّاسِ يكوْنُ كالعَفيفِ، وسَارِقُ أمْوالِ النَّاسِ يكون كالأمِيْنِ، والمُحَافِظُ على صِحَّته يكونُ كالمفَرِّطِ فيها.

إذن: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ﴾ فاعلمْ تَماماً بأنَّ الشِّفاءَ لا يمْكنُ أنْ يكونَ إلَّا منَ اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى:

﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾. ﴿إِلاَّ﴾. أي حصْراً ومُؤَكَّداً بدونِ أيِّ اسْتثنَاءٍ ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ﴾ لا رافِعَ لهذا الضُّرِّ ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ ﴿إِلاَّ﴾ اللهِ. ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ الشعراء ٨٠.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾.

فكلُّ ما تَراه مِن خيْرٍ هوَ بفضْلِ اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى، لأَنَّك لا تَسْتَحِقُّ بأعمَالكَ الخَيرَ الذي أنتَ فيْهِ، ولَو عَاقبَكَ اللهُ على التجاوزات التي تَجَاوَزتَها، لَما كنْتَ تنعم بكثيرٍ من النِّعَم التي تَرفلُ وتتَقلَّبُ فيها. ولذلك: ﴿فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾. وليسَ لخيرِه. في بيانٍ بأنَّ هذا الخيْرَ هو ليسَ لكَ وأنتَ لا تسْتَحقُّه، بل بفضْلِ اللهِ عليك، كونه زِيَادة عن اسْتِحْقَاقِك الذي تسْتَحِقّه بأعْمالِك الصَّالحَةِ. وهذا أيضَاً نظِيرَ أنَّ اللهَ يرفَعُ عنكَ ضُرّاً لا تسْتحِقُّ بعملِكَ أن يُرفَع عنْك، بل بفضْلِ اللهِ. فالفَضْلُ هنا يكونُ برفع الضُّرّ الذي لا تسْتحِق أن يُرفَعَ عنْك نتيجَةِ ذنُوبِكَ.

﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾. إذا أرادَ اللهُ لكَ خيراً، ﴿فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾.

لا يمْكِن لأحدٍ أن يحُولَ بينك وبين وُصُول هذا الخَيرِ –الذي هو فَضلٌ من الله– إليكَ.

وخيرُ اللهِ يكونُ في العَافيَةِ، في المَالِ، في راحَةِ النَّفسِ، في السُّمعَةِ الطيّبةِ، في محبَّةِ النَّاسِ، وما إلى ذلك من ألوانِ الخَيرِ.

﴿يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. فإنْ أصابَ، تفضَّلَ، وإن لم يُصِبْ، ما ظَلَمَ.

ولذلك: ﴿مَن يَشَاءُ﴾. اللهمَّ اجْعَلنا أهلاً لهذه المَشِيئةِ.

ثم جاءَ بيانُ اللهِ سُبْحَانَه وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. بيانٌ بأنَّ كفّةَ ﴿يُصَيبُ﴾. ترْجَح بكفّة على كفة لا ﴿يُصَيبُ﴾. ولذلك لم تنتَهِ الآيَة الكَرِيْمَة عند قوله تبارَكَ وتَعَالَى: ﴿يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. وكان يمكِنُ لها أن تنتهِيَ، لأن الفضْلَ كانَ سيَبقَى كذلكَ، لكن: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. بيانٌ بأنَّ اللهَ تَعَالَى ذكْرُه، لا ينظُرُ إلى الإنسانِ بِما ارْتكَبَ من عِصْيان، بل ينْظُر إليه بمغْفِرَتِه لتلك المَعاصِي، وبرَحمَتِه به. وهذا يكونُ عندَ عَدَمِ العِنادِ في الإصْرارِ على المَعاصِي، بل عندَ الاسْتِغفَارِ والتَّوبَةِ. ولذلك: ﴿وَهُوَ﴾. بعطْفٍ على كلِّ ما وَرَدَ في الآيَة الكَرِيْمَ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾. لذُنُوبِ النَّاس، ﴿الرَّحِيمُ﴾. بهِم.

من هنَا فإن أعدَادَ ﴿يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. تكُونُ فِي تَكَاثُر. فـ﴿يُصَيبُ﴾. بصِيغةِ المُضارِع، أي تبقى الإِصَابةُ مُفْتُوحَة ومُستمرَّة.

الأَمْر الآخَر: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾. نسَبَ اللهُ عزَّ وجَلَّ في هذا المَقامِ العِبادَ إلى نَفسِه. فهؤلاءِ عبادُ اللهِ، يرفَعُ الضُّرَّ عمَّن يشَاء، ويعطِي الخيرَ لِمَن يَشَاءُ، ويغفِرُ لهم ذنوبَهم بمَغفِرتِه، ويرْحَمُهم برحْمَته. وفي كلِّ ذلك: ﴿فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ﴾. ويبقَى هذا الفضْلُ مَفتُوحَاً لأبناءِ كلِّ زمَانٍ ومَكانٍ.

الباب مائة وثمانية
بين الهداية والضلال

﴿١٠٨﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾

﴿الْحَقُّ﴾. هُوَ نقِيضُ البَاطِلِ. و﴿الْحَقُّ﴾. هو حَاجَةٌ أَسَاسِيَّة للإنسَانِ. وهو في الآيَةِ الكَرِيْمَة يشْمَلُ كلَّ حَقٍّ، وكلَّ ما هو نقيضُ البَاطِل. واللهُ عزَّ وجلَّ، يوجِّهُ الرَّسُول عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ، بأن يقولَ للناسِ بصِفَةٍ عَامّةٍ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ جميعَاً ﴿قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ﴾ القُرآنُ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾. يجِدُ فيه كلُّ ذِي حقٍّ حَقَّه. ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت ٤٢.

فالقُرآنُ هو كِتَابُ الحَقِّ الذي أنزَلَه الحَقُّ بالحَقِّ، ويكمُنُ فيه كلُّ حَقٍّ.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾. مِن رَبِّ النَّاسِ جَمِيْعَاً أينَما كانُوا وحيثُما وُجِدوا. فهذا حَقٌّ أكرَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ الإنسَانَ.

﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾. آمَنَ بالقرآنِ وجعَلَه مِنْهاجَاً لحَياتِه: ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾. يُصلحُه القُرآنُ ويُحسِّنُ له حَياتَه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾. أنكَرَ القُرآنَ ولم يعْمَلْ به: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾. يجعَلُ عَواقِب ضَلَالِه على نفْسِه.

﴿وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾. الوَكِيْلُ هو الذي يتحمَّلُ مَسْؤوليّةَ إنقَاذِ مُوَكِّلِه، لأنَّ الوَكالةَ مَسْؤوليّةٌ، فاللهُ تبارَكَ وتَعَالَى لم يجعل رسولَه عليهِ الصّلاةُ والسَّلَامُ مسْؤوْلاً عن إصْرَارِ النَّاس على الضَّلالِ. لذلك لم يأذَنْ له بإكْرَاه النَّاسِ على الإيمانِ كما مَضَى معنا فِي الآية ٩٩: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾. وأمَرَه بالبَلاغ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ المائدة٦٧.

وأنْ: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل ١٢٥.

وعلى ذلك، فبعْدَ أنْ أبلّغكُم هذا الحقَّ أكونُ قد أدّيتُ ما كلَّفني به ربِّي من تكليْفٍ بالبَلاغِ ﴿وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم﴾ بعدَ البَلاغِ ﴿بِوَكِيلٍ﴾.

الباب مائة وتسعة
اتباع الحق

﴿١٠٩﴾

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

خَاتمَةُ السُّورَةِ الكريْمَةِ هِيَ دَعْوةٌ إلى اتَّباعِ الحَقِّ في مُخْتَلفِ الظُّرُوفِ، وعدَمِ التَّخلّي عَن اتِّباعِ الحق بأيِّ حَالٍ من الأَحْوالِ. ومهما كانَتِ الظُّروفُ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُوصِي بالصَّبرِ، لأنَّ الحُكْمَ العَادِلَ يَأتِي مِنْه. وهذا ما حَصَل مع رَسُولِ الله صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ الذي اتَّبَع الحَقَّ، ولم ييئس رَغمَ كلِّ المَشَاقِّ التي لقِيَها، وصبرَ على كلِّ ما كَان يلقَى مِن أذَى. فتحقَّقَ حُكمُ اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ نَصَرَ رسُولَه صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّمَ، وبعدَ أن هَاجَرَ من مَكَّة، عادَ إليها وقد أصْبحَتْ تحتَ إمرته.

وبذلك فقد أصبَحَ للمُسْلِمِينَ كَيَانٌ، وانتشرَتِ الدَّعوَة في رحَابِ الأَرضِ.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾. مِنَ الحَقِّ، ﴿وَاصْبِرْ﴾ مَهمَا لقيْتَ من عَقَباتٍ، ﴿حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ﴾ بأمْرِهِ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. في إيصَالِ كلِّ ذِي حَقٍّ إلى حَقِّهِ.

تم بفضل الله في مدينة أربيل
أغسطس ٢٠٢١

مؤلفات صدرت للكاتب

➢ في الرواية

١ – برويـن – مركز رام – دمشق ١٩٩٧

الطبعة الثانية– دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٢١

٢ – ديـن – دار الينابيع – دمشق ٢٠٠٤

٣ – جسد وجسـد – دار الينابيع – دمشق ٢٠٠٤

٤ – روهات – دار المنارة – دمشق، بيروت ٢٠٠٦

الطبعة الثانية– دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٢١

٥ – خلف الجدار – دار كنعان – دمشق ٢٠٠٧

٦ – إمام الحكمة – وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الكويت ٢٠١٠

الطبعة الثانية– دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٢١

٧ – الآخرون أيضاً – منظمة كتاب بلا حدود – كركوك ٢٠١٢

٨ – هولير حبيبتي – مكتب التفسير للنشر والإعلان – أربيل ٢٠١٣

الطبعة الثانية– دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٢١

٩ – هولير سدرة العشق – مكتب التفسير للنشر والإعلان – أربيل ٢٠١٥

١٠ – سورين – دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠١٩

١١ – سيامند وخجي – دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠١٩

١٢ – بلاد ليست كالبلاد – دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠١٩

١٣ – أمريكا كاكا – دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٢٠

١٤ – المُلحد – دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٢٠

١٥ – بروين – دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٢١

➢ في القصة

١٥ – سيمفونية الصمت – دار المجد – دمشق ١٩٨٩

١٦ – الحب في دائرة العبث – دار المجد – دمشق ١٩٩٠

١٧ – طقوس الذكرى – دار الثقافة – دمشق ١٩٩٢

١٨ – كتاب الحب والخطيئة – مركز الإنماء الحضاري – حلب ٢٠٠٤
الطبعة الثانية– دار اسكرايب للنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٢١
١٩ – غيوم من الشرق – منشورات اتحاد الكتاب العرب– دمشق ٢٠٠٦
٢٠ – طريقة للحياة – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق ٢٠٠٧

➢ في الدراسات

٢١ – فقــه المعرفــة – دار المنارة – بيروت ٢٠٠٤
٢٢ – إسلام ومسلمون وفقهاء – دارالرضوان – حلب ٢٠٠٤
٢٣ – عالم الكتابة القصصية للطفل – وزارة الثقافة والإعلام – سلسلة كتاب المجلة العربية– الرياض ٢٠١٠
٢٤ – حساسية الروائي وذائقة المتلقي – وزارة الثقافة والإعلام – سلسلة كتاب المجلة العربية– الرياض ٢٠١٢
٢٥ – الارتقاء في درجات تلقي معاني القرآن – الاتحاد الاسلامي الكردستاني – أربيل ٢٠١٤
٢٦ – فضيلة العفو في السيرة النبوية – منشورات جامعة الملك سعود –الرياض ٢٠١٥
في مشروع التحليل الروائي للقرآن الكريم:
٢٧– التحليل الروائي لسور : الفاتحة، البقرة، آل عمران، النساء، المائدة– المجلّد الأول، الطبعة الثانية، منشورات دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٢٠
٢٨– التحليل الروائي لسورتَي: الأنعام، الأعراف– المجلّد الثاني، الطبعة الثانية، منشورات دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٢٠
٢٩– التحليل الروائي لسورة: الأنفال– المجلّد الثالث، الطبعة الأولى، منشورات دار الكتب العلمية بيروت ٢٠١٩
٣٠– التحليل الروائي لسورة: التوبة– المجلّد الرابع، الطبعة الأولى، منشورات دار اسكرايب للنشر والتوزيع– القاهرة ٢٠٢١
٣١– التحليل الروائي لسورة: يونس– المجلّد الخامس، الطبعة الأولى، منشورات دار اسكرايب للنشر والتوزيع– القاهرة ٢٠٢١

الفهرس

سورة يونس ---------- ٥
مقدمةٌ ---------- ١١
الباب الأول | حروف القرآن ---------- ١٩
الباب الثاني | آفةُ المظاهر---------- ٢٤
الباب الثالث | منزلة الشفاعة ---------- ٢٦
الباب الرابع | البُشرى والإنذار---------- ٣١
الباب الخامس | الخَلق الحق ---------- ٣٤
الباب السادس | بين آيات الطبيعة والتقوى ---------- ٣٦
الباب السابع | متاهة الغفلة ---------- ٣٨
الباب الثامن | كَسبُ السوء---------- ٣٩
الباب التاسع | ثمرات الإيمان ---------- ٤٠
الباب العاشر | تعظيم الله عزَّ وجلَّ---------- ٤٢
الباب الحادي عشر | متاهة العَمَه ---------- ٤٥
الباب الثاني عشر | الإسراف المُزيَّن---------- ٥١
الباب الثالث عشر | جزاء الإصرار على الظلم---------- ٥٧
الباب الرابع عشر | خلاصة العمل---------- ٥٩
الباب الخامس عشر | المعصيةُ تُعاقِب مُقترفها ---------- ٦١
الباب السادس عشر | الاحتكام إلى العقل---------- ٦٤
الباب السابع عشر | ظلم الافتراء ---------- ٦٦
الباب الثامن عشر | العِبادة المُنحرفة ---------- ٦٧
الباب التاسع عشر | زهور الاختلاف وأشواكه ---------- ٧٠

الباب العشرون | إشراقة الانتظار ---------- ٧٥
الباب الواحد والعشرون | المكر السلبي والمكر الإيجابي ---------- ٧٩
الباب الثاني والعشرون | الإنسان بين الأمان والخطر ---------- ٨٥
الباب الثالث والعشرون | عاقبة البغي ---------- ٨٨
الباب الرابع والعشرون | بين عالَم الإنسان وعالَم النبات ---------- ٩١
الباب الخامس والعشرون | بين الهداية والضلال ---------- ٩٥
الباب السادس والعشرون | العاقبة الحُسنى ---------- ٩٨
الباب السابع والعشرون | عاقِبة السوء ---------- ١٠١
الباب الثامن والعشرون | متاهة التكهّنات ---------- ١٠٦
الباب التاسع والعشرون | براءة الشركاء ---------- ١٠٩
الباب الثلاثون | تَبَعية الدنيا وتَبَعية الآخرة ---------- ١١٠
الباب الواحد الثلاثون | موعظةُ التقوى ---------- ١١٢
الباب الثاني والثلاثون | خطوات الحق وخطوات الضلال ---------- ١١٤
الباب الثالث والثلاثون | التطهّر من وباء الفسوق ---------- ١١٥
الباب الرابع والثلاثون | عجز الشركاء ---------- ١١٦
الباب الخامس والثلاثون | أحقّية الاتباع ---------- ١١٧
الباب السادس والثلاثون | علم الله ---------- ١١٩
الباب السابع والثلاثون | التكامل الخالص ---------- ١٢٠
الباب الثامن والثلاثون | صدق القرآن ---------- ١٢٣
الباب التاسع والثلاثون | تفادي عاقبة السوء ---------- ١٢٥
الباب الأربعون | أهلُ الفَساد ---------- ١٢٧
الباب الواحد والأربعون | منهج التبرئة ---------- ١٢٨
الباب الثاني والأربعون | أسماءٌ صمّاء ---------- ١٢٩

الباب الثالث والأربعون | أنظارٌ عمياء ------------------------- ١٣١
الباب الرابع والأربعون | ظلم النفس ------------------------- ١٣٢
الباب الخامس والأربعون | خسارة الهداية ------------------------- ١٣٤
الباب السادس والأربعون | الوعد الإلهي ------------------------- ١٣٥
الباب السابع والأربعون | قضاءُ الله ------------------------- ١٣٦
الباب الثامن والأربعون | الصدق والتكذيب ------------------------- ١٣٨
الباب التاسع والأربعون | حكمة المشيئة الإلهية ------------------------- ١٣٩
الباب الخمسون | وهم الاستعجال ------------------------- ١٤١
الباب الواحد والخمسون | اغتنام الإمهال ------------------------- ١٤٢
الباب الثاني والخمسون | جزاء كسب الظلم ------------------------- ١٤٣
الباب الثالث والخمسون | الاستنباء ------------------------- ١٤٦
الباب الرابع والخمسون | التحذير من عاقِبة العِناد ------------------------- ١٤٧
الباب الخامس والخمسون | تحقيق وعد الله الحق ------------------------- ١٤٩
الباب السادس والخمسون | المرجعية الإلهية ------------------------- ١٥١
الباب السابع والخمسون | نعمة القرآن ------------------------- ١٥٢
الباب الثامن والخمسون | الفرح الإيجابي والفرح السلبي ------------------------- ١٥٨
الباب التاسع والخمسون | الافتراء المردود ------------------------- ١٦١
الباب الستون | شُكر الله على فضله ------------------------- ١٦٤
الباب الواحد والستون | دقّة توثيق الأعمال ------------------------- ١٦٧
الباب الثاني والستون | حصانة الأولياء ------------------------- ١٧٠
الباب الثالث والستون | مرتبة الأولياء ------------------------- ١٧٢
الباب الرابع والستون | عَظمة الفَوز ------------------------- ١٧٣
الباب الخامس والستون | عزّة الله الكاملة ------------------------- ١٧٤

الباب السادس والستون | تبعيّة الظن العمياء----------١٧٥
الباب السابع والستون | سكون الليل وضجيج النهار ----------١٧٧
الباب الثامن والستون | غِنى الله عن الولد ----------١٧٩
الباب التاسع والستون | اللا فَلاح ----------١٨١
الباب السبعون | جزاء اللا تَراجع عن الكفر ----------١٨٢
الباب الواحد والسبعون | قوّة التوكّل على الله ----------١٨٤
الباب الثاني والسبعون | أجر الدعوة----------١٨٧
الباب الثالث والسبعون | الإنذار----------١٨٩
الباب الرابع والسبعون | الاعتداء ومَكرمة التقوى ----------١٩١
الباب الخامس والسبعون | جرم الاستكبار----------١٩٥
الباب السادس والسبعون | إنكار الحق ----------١٩٦
الباب السابع والسبعون | خَيبة السحر----------١٩٨
الباب الثامن والسبعون | وباء الإصرار على الكفر ----------١٩٩
الباب التاسع والسبعون | الاستنجاد بالسحر----------٢٠٠
الباب الثمانون | ثقة الحق ----------٢٠١
الباب الواحد والثمانون | أشواك الفَساد ----------٢٠٢
الباب الثاني والثمانون | إحقاق كلمات الله ----------٢٠٣
الباب الثالث والثمانون | تفعيل الإيمان ----------٢٠٤
الباب الرابع والثمانون | ثمرة الإيمان اليانعة ----------٢٠٧
الباب الخامس والثمانون | تجنّب الفتنة ----------٢٠٨
الباب السادس والثمانون | النجاة ----------٢٠٩
الباب السابع والثمانون | بشارة الإيمان ----------٢١٠
الباب الثامن والثمانون | العقاب من أجل الصلاح----------٢١١

الباب التاسع والثمانون | منهج الاستقامة ---------------------- ٢١٣
الباب التسعون | إيمانٌ كالعدم --------------------------- ٢١٥
الباب الواحد التسعون | أوان الإيمان ------------------------ ٢١٨
الباب الثاني والتسعون | الاتّعاظ من آيات الله في النَّاس----------------- ٢٢٠
الباب الثالث والتسعون | القائمون على الحق والمُختلِفون فيه-------------- ٢٢١
الباب الرابع والتسعون | بين الشك والامتراء----------------------- ٢٢٣
الباب الخامس والتسعون | خسارة التكذيب----------------------- ٢٢٥
الباب السادس والتسعون | حصانة الإيمان------------------------ ٢٢٧
الباب السابع والتسعون | فُرَص الإيمان ------------------------ ٢٢٩
الباب الثامن والتسعون | بين الإيمان النافع والإيمان غير النافع ------------- ٢٣٠
الباب التاسع والتسعون | خَيار الإيمان------------------------ ٢٣٦
الباب المائة | رجس الكفر ---------------------------- ٢٤٠
الباب مائة وواحد | عبادة النظر --------------------------- ٢٤٣
الباب مائة واثنان | بين انتظار العقاب وانظار الثواب ------------------ ٢٤٥
الباب مائة وثلاثة | حق نجاة المؤمن على الله ---------------------- ٢٤٦
الباب مائة وأربعة | بين الشك والإيمان ----------------------- ٢٤٧
البَابُ مائة وخمسة | الحنيفيّة --------------------------- ٢٤٩
الباب مائة وستة | التوحيد ---------------------------- ٢٥٠
الباب مائة وسبعة | القدرة الإلهية -------------------------- ٢٥١
الباب مائة وثمانية | بين الهداية والضلال ---------------------- ٢٥٥
الباب مائة وتسعة | اتّباع الحق--------------------------- ٢٥٧
مؤلفات صدرت للكاتب ------------------------------ ٢٥٩
الفهرس --------------------------------------- ٢٦١